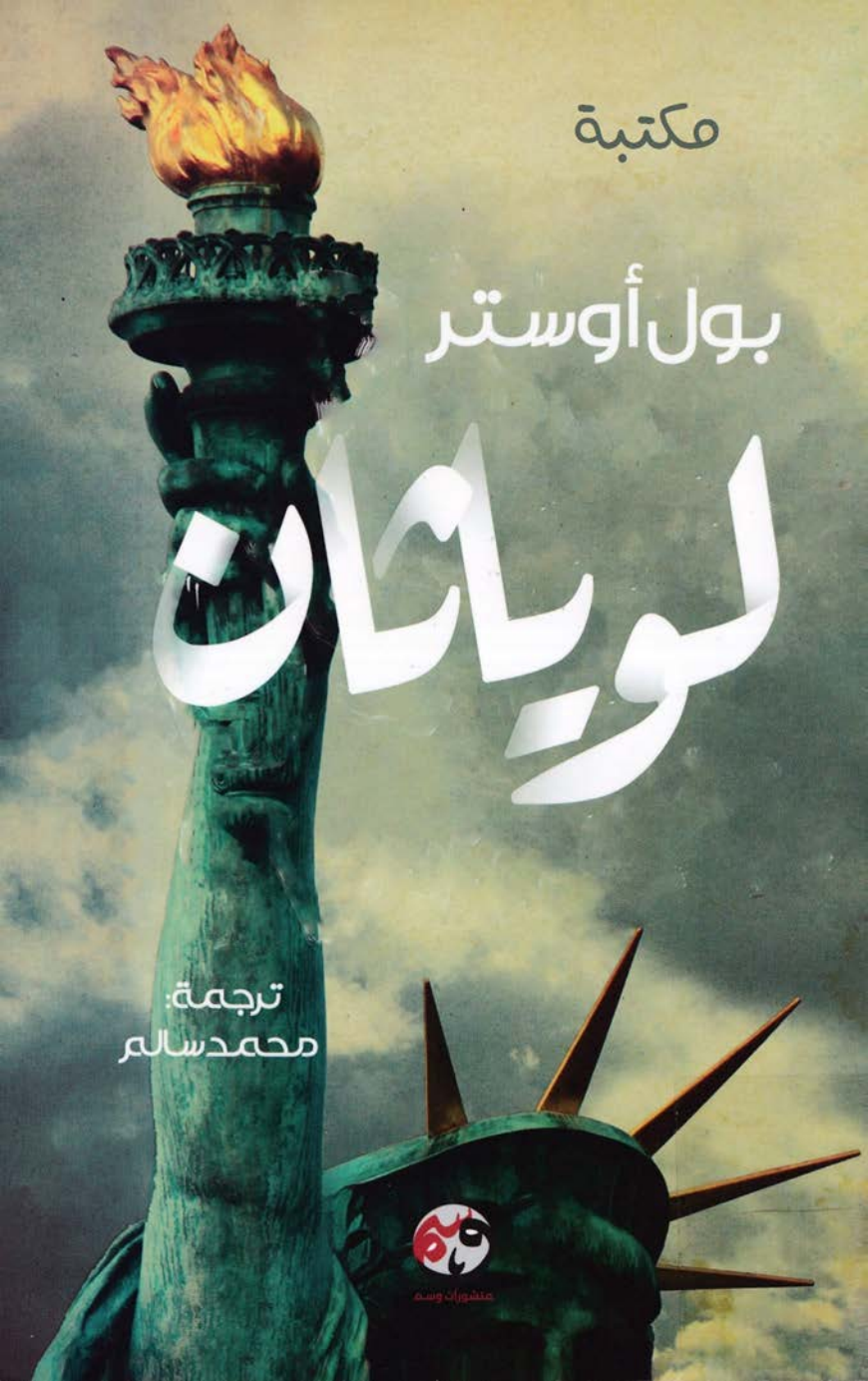

مكتبة

بول أوستر

لوياثان

ترجمة:
محمد سالم

منشورات وسم

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

لوياثان

ملشورات وسم

Leviathan
©This edition published by arrangement with Viking, an imprint of Penguin Publishing Group, a division of Penguin Random House LLC
الترقيم الدولي (ISBN): 978-1-961628-09-0
جميع الحقوق محفوظة ©

مكتبة
t.me/soramnqraa

11 2025

الكويت - العاصمة - القبلة - شارع فهد السالم
عمارة أسامة - الدور الأول س- مكتب رقم 26
إيميل wasm_publishing@hotmail.com
تصميم الغلاف: محمد إسلام @Medislamm
التنسيق الداخلي: ضياء فريد

بول أوستر

لوياثان

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

ترجمة

محمد سالم

منشورات وسم

إلى دون ديليلو

كلُّ دولةٍ فعليَّة فاسدة.

- رالف والدو إيمرسون

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

مكتبة سُر مَن قرأ

قبلَ ستة أيام، فجّر رجل نفسَه على جانب طريق شمالي ولاية ويسكونسن. لم يكن هناك شهود، لكن يبدو أنه كان جالسًا يصنع القنبلةَ على العشب بجوار سيارته المتوقفة فانفجرتْ عن طريق الخطأ. وبحسب تقارير الطبِّ الشرعي التي نُشرت قُتل الرجلُ على الفور. تناثر جسدُه إلى عشرات القطع الصغيرة، وعُثر على بقايا من جثته على بُعد 15 مترًا من موقع الانفجار. وحتى اليوم، 4 تموز 1990، لا يبدو أن أحدًا لديه فكرة عن هويَّة الرجل.

بدأ مكتب التحقيقات الفيدرالي- الذي يعمل جنبًا إلى جنب مع الشرطة المحلية ووكلاء من مكتب الكحول والتبغ والأسلحة النارية- تحقيقَهم بفحص السيارة: دودج زرقاء عمرُها سبع سنوات تحمل لوحاتٍ صادرة من ولاية إلينوي، إلا أنَّهم علموا بسرعة أنها مسروقة في واضحة النهار من موقف سيارات جولييت في 12 حزيران. الشيء ذاته حصل عندما فحصوا محتوياتِ محفظة الرجل، والتي نجتْ بمعجزة من الانفجار إلى حدٍّ ما دون خدش. ظنوا أنهم عثروا على ثروةٍ من القرائن: رخصة القيادة، ورقم الضمان الاجتماعي، وبطاقات الائتمان. ولكن بمجرد إدخال بياناتها في الكمبيوتر تبيّن أنها إمّا مزوَّرة أو مسروقة.

كانت بصمات الأصابع ستكون الخطوةَ التالية لو بقي هناك شيء منها؛ فَيَدا الرجل بددَهما الانفجار. السيارة- أيضًا- لم تقدم أيَّ معلومة لهم. تحولت الدودج إلى كتلة من الفولاذ المتفحِّم والبلاستيك المصهور، وعلى الرغم من جهودهم لم يُعثر على بصمةٍ واحدةٍ عليها. ربما سيكون لديهم المزيد من الحظ مع أسنانه، على فرض أن هناك أسنانًا كافية للعمل عليها، لكن هذا لا بدَّ أنه سيستغرق وقتًا؛ ربما عدَّة أشهر. في النهاية، لا شك بأنهم

سيفكرون بشيء ما، ولكنهم ما لم يتمكنوا من إثبات هويَّة صاحب الأشلاء التي بين أيديهم فإنَّ فرص التقدم في التحقيق ضعيفةٌ.

بالنسبة لي، كلما استغرق الأمرُ وقتًا أطول فسيكون أفضل.

القصة التي عليّ سردُها الآن معقدة نوعًا ما، وما لم أنتهِ منها قبل أن يقدموا إجابتهم فإنَّ الكلمات التي أنا على وشك كتابتها لن تعني شيئًا. فبمجرد الكشف عنِ السرِّ ستُروى أنواع الأكاذيب، وتُنشر التحريفات القبيحة في الصحف والمجلات، وفي غضون أيام، ستُدمَّر سمعة الرجل. ليس الأمر أنني أريد الدفاعَ عما فعله، ولكن نظرًا لأنه لم يعدْ في وضع يسمح له بالدفاع عن نفسه فإنَّ أقلَّ ما يمكنني فعله هو توضيحُ هويته وتقديم القصة الحقيقية لسبب وجوده على ذلك الطريق شمالي ولاية ويسكونسن؛ لذا عليَّ العمل بسرعة حتى أكون مستعدًّا لهم عندما يحين الوقت.

أما إذا ظلَّ اللغز دون حلٍّ لسبب ما فسأحتفظ ببساطةٍ بما كتبته، ولن يحتاج أحدٌ إلى معرفة أي شيء عنه. هذه أفضل نتيجة ممكنة: جمود مثالي، عدم النطق بكلمة واحدة من أيٍّ من الطرفين.

لكن عليَّ ألّا أركن لذلك. لكي أقوم بما ينبغي عليَّ القيام به يجب أن أفترض أنهم يقتربون منه بالفعل، وأنهم عاجلًا أم آجلًا سيكتشفون هويته. ليس فقط عندما يكون لدي الوقت الكافي لإنهاء هذا، ولكن في أي لحظة، و«في أي لحظة» هذه، تبدأ الآن.

في اليوم التالي للانفجار، نشرت وكالاتُ الأنباء خبرًا موجزًا عن القضية. كانت واحدة من تلك القصص المُبْهمة المكونة من فقرتين دُسّت في منتصف الصحيفة، لكني صادفتها في صحيفة نيويورك تايمز بينما كنت أتناول الغداءَ بعد ظهر ذلك اليوم. تقريبًا، وبشكل متوقع، بدأت أفكرُ في بنيامين ساكس. لم يكن هناك شيء في المقالة يشير إليه من قريب أو بعيد، ولكن في الوقت نفسه بدَا كل شيء متطابقًا معه. لم نتحدث منذ ما يقرب من عام، لكنه قال

ما يكفي خلال محادثتنا الأخيرة لإقناعي بأنه في ورطةٍ عميقة، تتسارع بتهورٍ نحو كارثة مظلمة لا يمكنه ذكرها. إذا كان هذا غامضًا جدًّا فعليَّ أن أضيف أنه ذكر القنابل أيضًا، وأنه أطال الحديثَ عنها أثناء زيارته، وعلى مدار الأحد عشَر شهرًا التالية كنت أعيش وخشية: أنه كان عازمًا على قتل نفسه، وأنني سأفتح الصحيفة ذات يومٍ وأقرأ أنَّ صديقي فجّر نفسه، تتجول في داخلي.

لم تكنِ الفكرة أكثرَ من حدس جامح في تلك المرحلة؛ واحدة من تلك القفزات المجنونة في الفراغ، ومع ذلك، بمجرد أن دخلت الفكرة في رأسي لم أستطعِ الفكاكَ منها. ثمَّ بعد يومين من مطالعتي المقال حضرَ زوجٌ من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي ليطرقا بابي. وفي اللحظة التي أعلنا فيها عن هويَّتيهما، أدركت أنني كنت على حق: ساكس هو الرجل الذي فجَّر نفسه. مات ساكس، والطريقة الوحيدة التي يمكنني بها مساعدتُه الآن هي الاحتفاظ بموته لنفسي.

ربما كان من حُسن حظي أنني قرأت المقال عندما وقعت عليه عيني، على الرغم من أني أتذكر أنني تمنَّيت وقتها لو لم أقرأه. عدا عن ذلك، فقد منحني يومين لامتصاص الصدمة. عندما قَدِم رجُلا مكتب التحقيقات الفيدرالي لطرح أسئلتهما، كنت مستعدًّا لهما بالفعل، وقد ساعدني ذلك في السيطرة على انفعالاتي. بالإضافة إلى أنه لا يضرُّ مرور ثمانٍ وأربعين ساعة إضافية قبل أن يتمكّنا من تعقبي. من بين الأشياء التي نجتْ في محفظة ساكس قصاصةٌ تحمل الأحرفَ الأولى من اسمي ورقم هاتفي. هذا ما دفعهما للبحث عني، ولكن لحُسن الحظ، كان الرقم خاصًّا بهاتف منزلي في نيويورك، وخلال الأيام العشرة الماضية كنت في ڤيرمونت، أقيم مع عائلتي في منزل مستأجر حيث كنّا نخطط لقضاء بقية الصيف. الربُّ وحده يعلم عددَ الأشخاص الذين تحدثا معهم قبل أن يكتشفا أنني هنا.

سأذكر بشكل عابرٍ أن هذا المنزل تملكه زوجةُ ساكس السابقة. هذا فقط لإعطاء مثال واحد على مدى تشابك وتعقيد هذه القصة.

بذلت قصارى جهدي للتظاهر بالغباء أمامهما، ومنحهما أقلَّ قدر ممكن. لا، أجبتهما، لم أقرأ المقالَ في الجريدة. لم أكن أعرف أي شيء عن القنابل أو السيارات المسروقة أو الطرق الخلفية في ويسكونسن. قلت إني كاتب؛ رجل يعتاش على كتابة الروايات، وإذا أرادا التحققَ من هويتي فيُمكنهما المضيّ قدمًا، لكن ذلك لن يساعدهما في قضيتهما، وإن فعلا ذلك فهُما يضيّعان وقتهما فقط. ربما، قالا، لكن ماذا عن قصاصة الورق في محفظة القتيل؟ إنهما لا يحاولان اتهامي بأي شيء، لكن حقيقة أنه كان يحمل رقمَ هاتفي بدت إثباتًا على وجود اتصالٍ بيننا. كان عليَّ أن أعترف بذلك، أليس كذلك؟ بلى، قلت، بالطبع قلت ذلك، لكن لمجرد أنها بدتْ كذلك فهذا لا يعني وجودَ اتصال بيننا. هناك آلاف الطرق التي كان يمكن أن يحصل بها الرجل على رقمي. لديَّ أصدقاء منتشرون في جميع أنحاء العالم، ويمكن لأيٍّ منهم أن يمرره إلى أجنبي، ويعطيه الأجنبي إلى أجنبي آخر، والذي بدوره سينقله إلى أجنبي ثالث. قالا، جائز، ولكن لماذا يحمل أيُّ شخص رقمَ هاتف شخص لا يعرفه؟ قلت لأنني كاتب. أوه؟ قالا، وما الفرق في ذلك؟ قلت لأن كتبي منشورة، يقرؤها الناس، وليس لديَّ أي فكرة عمّن هم، فأدخُل دونَ أن أدري حياة الغرباء؛ وطالما كان كتابي بين أيديهم فإنَّ كلماتي هي الحقيقة الوحيدة الموجودة بالنسبة لهم. قالا إن هذا طبيعي، هذه هي الحال مع الكتب. نعم، قلت، هذه هي الحال، ولكن في بعض الأحيان يتضح أن بعض هؤلاء الناس مجانين. يقرؤون كتابك، فيضرب شيء ما فيه وترًا عميقًا في أرواحهم، فجأة، يتخيلون أنك تنتمي إليهم، وأنك الصديق الوحيد لهم في هذا العالم. لتوضيح وجهة نظري، أعطيتهم عدة أمثلة- جميعها صحيحة- وكلها مأخوذة مباشرة من تجربتي الخاصة؛ الرسائل غير المتزنة، المكالمات الهاتفية في الساعة الثالثة صباحًا، التهديدات المجهولة. في العام الماضي فقط

اكتشفت أن محتالًا كان ينتحل هويتي؛ يجيب على الرسائل باسمي، ويدخل المكتبات ويوقع كتبي، ويحوم مثل ظلٍّ خبيثٍ حول أطراف حياتي. أخبرتهما أن الكتاب شيء غامض، وبمجرد أن يطفو في العالم، يمكن أن يحدث أي شيء. يمكن أن تحدث شتى أنواع الأذى، وليس هناك أي عمل لعين يمكنك فعله حيالَ ذلك. في كل الأحوال، الأمر خارج عن سيطرتك تمامًا.

ملتُ إلى النفي، ولا أعرف ما إذا كانا قد وجدَا إنكاري مقنعًا أم لا، لكن حتى لو لم يصدقَا كلمة قلتُها، يبدو إستراتيجيَّتي منحتني بعض الوقت.

بالنظر إلى أنني لم أتحدث إطلاقًا مع عميل لمكتب التحقيقات الفيدرالي من قبل؛ فأنا لا أشعر بالسوء حيالَ الطريقة التي تصرفت بها أثناء المقابلة. كنت هادئًا، ومهذّبًا، وتمكنت من تقديم المزيج المناسب من المساعدة والحيرة، وهذا بالنسبة لي بمثابة انتصار. بشكل عام، ليس لدي الكثير من المواهب في الخداع، وعلى الرغم من جهودي على مرِّ السنين، فنادرًا ما تمكنت من خداع أي شخص بأي شيء. لو قدَّمت أداءً جديرًا بالثقة أول أمس؛ فرجُلا مكتب التحقيقات الفيدرالي كانا مسئولَيْن جزئيًّا على الأقل عن ذلك. لم يكنْ للأمر علاقة بما قالاه قدرَ علاقته بهيأتهما، والطريقة التي استعدَّا بها لدوريهما بمثل هذا الكمال، التي تؤكد في تفاصيلها الهيئة التي ما كنت أتخيل بها رجالَ مكتب التحقيقات الفيدرالي: البدلات الصيفية الخفيفة، والأحذية الجلدية القوية، والقمصان التي لا تحتاج إلى كيّ، ونظارات الطيارين الشمسية. كانت هذه النظارات الشمسية إلزامية، إذا جاز التعبير، وأضفت جودةً مصطنعةً على المشهد، كما لو أن الرجال الذين ارتدوها مجرد ممثلين ثانويين، استُخدموا للعب دور هامشي في فيلم منخفض الميزانية. كل هذا كان يريحني بشكل غريب، وعندما أنظر إليه الآن، أفهم كيف عمل هذا الإحساسُ بالزيف لصالحي. لقد سمح لي أن أفكر في نفسي كممثل أيضًا، ولأنني أصبحت شخصًا آخرَ فقد أصبح لي الحق في خداعهما، والكذب دون أدنى وخز من ضمير.

لكنهما لم يكونَا من صنف الأغبياء.

كان أحدهما في أوائل الأربعينيات من عمره، والآخر كان أصغر منه كثيرًا- ربما لا يزيد عمرُه عن خمسة وعشرين أو ستة وعشرين عامًا- ولكليهما نظرةٌ معينة في عينيه أبقتني على حذر طوالَ الوقت الذي أمضياه هنا. من الصعب أن نحدد ما الذي يُهدد في تلك النظرة، لكنني أعتقد أن له علاقة بكونها فارغة، ورفضها الالتزام بحدود نفسها؛ كما لو كانت تراقب كل شيء ولا تلاحظ شيئًا في نفس الوقت. لم تفضح تلك النظرة سوى القليل، ولم أستطع أبدًا التأكد مما كان يفكر فيه أيٌّ من هذين الرجلين. كانت عيناهما متأنية للغاية، بطريقة ما، ماهرة في إظهار اللامبالاة، ولكنهما رغم كل ذلك كانا يقظين؛ يقظين بلا هوادة في الواقع، كما لو كانا قد دُرِّبا على جعلك تشعر بعدم الارتياح؛ لجعلك مدركًا لعيوبك وتجاوزاتك، لجعلك تتلوى في جلدك. كانت أسماؤهم وورثي وهاريس، لكنني نسيت أيهما كان وورثي وأيهما هاريس. كانا متشابهيْن بشكل مزعج، مساطر جسدية، كما لو كانا نسخًا أصغر وأقدم من نفس الشخص: طويل القامة، ولكن ليس مجوفًا، متين البنية، لكن ليس مفتولًا، شعر أشقر، عينان زرقاوان، يدان سميكتان، وأظافر نظيفة لا تشوبها شائبة. صحيح أنهما مختلفان في أسلوب المحادثة، لكنني لا أريد أن أقطع بالكثير من الانطباعات الأولى. على حد علمي، كانا يتناوبان، ويتبادلان الأدوار جيئةً وذهابًا متى ما أرادا. أثناء الزيارة التي جرت قبل يومين لعب الشاب دورَ القاسي. كانت أسئلته فظَّة للغاية، وبدَا أنه يأخذ وظيفته على محمل الجد؛ نادرًا ما كان يبتسم- على سبيل المثال- ويعاملني بتكلّف يصلُ أحيانًا إلى السخرية والاستفزاز. أما المتقدمُ في العمر فكان أكثرَ أريحيّةً ودماثة، ولديه استعداد للسماح بأن تأخذ المحادثة مجراها الطبيعي. بدا لي أنه أكثرُ خطورة بسبب ذلك، لكن عليَّ الاعتراف أن التحدث إليه لم يكن مزعجًا تمامًا. عندما بدأت أخبره عن بعض ردود الفعل المجنونة على كتبي، استطعت أن أرى أنَّ الموضوع أثار اهتمامه، وسمح لي بمواصلة استطرادي

لفترة أطول مما كنت أتوقع. أفترض أنه كان يتفحَّصني، ويشجِّعني على الإسهاب حتى يتمكن من التعرف على مَن أكون وكيف يعمل عقلي، ولكن عندما عرجتُ على قضية المحتال عرضَ بالفعل بدء تحقيقٍ في المسألة من أجلي. ربما كانت هذه خدعة بالطبع، لكنني أشك في ذلك. لا أحتاج إلى إضافة أنني رفضت عرضَه. لكن لو كانتِ الظروف مختلفة فلربما فكرتُ في قبول مساعدته؛ فذلك أمر أزعجني لأمدٍ طويل، وأودُّ بشدة الوقوف على حقيقته.

قال العميل: أنا لا أقرأ الكثير من الروايات. يبدو أن لا وقت كافٍ لدي.

قلت: لا، كثير من الناس لا يفعلون.

- لكن رواياتك لا بدَّ أن تكون جيدة. لو لم تكن كذلك لما أزعجوك بهذا القدر.
- لعلّي أتعرض للإزعاج لأنها سيئة. الجميع ناقد أدبي هذه الأيام. إن كنت لا تحب الكتاب فقمْ بتهديد المؤلف. هناك منطق معين لهذا النهج: اجعل النذلَ يدفع ثمن ما فعله بك.
- أتصوَّر أن عليَّ أن أقرأ واحدًا منها لأحكم بنفسي، وأكتشف سبب كل هذا العناء. لن تمانع، أليس ذلك؟
- بالطبع، لا أمانع. هذا هو سبب وجودها في المكتبات؛ حتى يتمكن الناس من قراءتها.

كانت طريقة غريبة في إنهاء الزيارة بتدوين عناوين كتبي لعميل مكتب التحقيقات الفيدرالي. لغاية الآن، أشعر بفضول شديدٍ لمعرفة ما كان وراءه؛ ربما اعتقد أنه سيجد بعضَ الأدلة فيها، أو ربما كانت مجرد طريقة خفية لإخباري بأنه سيعود، وأنه لم ينتهِ منّي بعد؛ فمازلت خيطهم الوحيد. وفي النهاية، إذا استمرَّا في افتراض أنني كذبت عليهما فلن ينسياني قريبًا. عدَا عن ذلك، ليس لديَّ فكرة عما يفكران فيه. يبدو من غير المحتمل أنهما يعُداني إرهابيًّا. لكنني أقول ذلك فقط لأني أعرف أنني لست كذلك. هما لا يعرفان

شيئًا، وبالتالي يمكنهما العملُ على هذه الفرضية، ويبحثان بشدَّة عن شيء من شأنه أن يربطني بالقنبلة التي انفجرت في ويسكونسن الأسبوع الماضي. وحتى لو لم يكونا كذلك، يجبُ أن أقبل حقيقة أنهم سيظلان يلاحقاني لفترة طويلة قادمة؛ سيطرحان أسئلة، وينقّبان في حياتي، وسيكتشفان مَن هم أصدقائي، وعاجلًا أم آجلًا سيظهر اسمُ ساكس. بعبارة أخرى، طوال الوقت الذي سأمضيه هنا، في ڤيرمونت، أكتب هذه القصة، سيكونان منشغلين بكتابة قصتهما الخاصة عنّي، وما إن ينتهيان منها سيعرفانني كما أعرف نفسي.

عادت زوجتي وابنتي إلى المنزل بعد حوالي ساعتين من مغادرة رجُلي مكتب التحقيقات الفيدرالي. كانتا في صباح ذلك اليوم تقضيان النهار مع الأصدقاء، وكنت سعيدًا لأنهما لم تكونا موجودتيْن خلال زيارة وورثي وهاريس. نتشارك أنا وزوجتي كلَّ شيء تقريبًا، لكن في هذه الحالة لا أعتقد أن عليَّ إخبارها بما حدث. لطالما كانت آيريس مولعة للغاية بساكس، لكني تقدمت إليها أولًا، وإذا اكتشفتْ أنني على وشك الدخول في مشكلة مع مكتب التحقيقات الفيدرالي بسببه؛ فستفعل كل ما في وسعها لتجعلني أتوقف. لا يمكنني تحمل هذه المخاطرة الآن. حتى لو تمكنتُ من إقناعها بأنني أفعل الشيءَ الصحيح، فسيستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإخضاعها، ولا أمتلك هذه الرفاهية. لا بد لي من قضاء كل دقيقة في المهمة التي حددتها لنفسي. علاوةً على ذلك، حتى لو استسلمَتْ فسيتناهبها القلق؛ وذلك ليس الشيء النافع. في نهاية الأمر سوف تعلم بالحقيقة. فعندما يحين الوقت، ستكون كلُّ المعلومات مرْمية في العراء. ليس في نيتي خداعها؛ أنا ببساطة أريد أن أعفيها لأطول فترةٍ ممكنة. في الواقع، لا أعتقد أن ذلك سيكون صعبًا للغاية؛ فأنا هنا- أساسًا- لأكتب، وإذا ظنت آيريس أنني مازلت أتقن حيلي القديمة التي أمارسها في كوخي الصغير كلَّ يوم، فما الضرر الذي يمكن أن يحدث من ذلك؟ ستفترض أنني أخربش روايتي الجديدة، وعندما ترى كمَّ

الوقت الذي أخصصه لها، ومقدارَ التقدم الذي أحرزه من ساعات العمل الطويلة تلك؛ ستملؤها السعادة.

آيريس جزءٌ من المعادلة أيضًا، وبدون سعادتها لا أعتقد أنني سأمتلك الشجاعة للبدء.

هذا هو الصيف الثاني الذي نقضيه في هذا المكان. في الأيام الخوالي، عندما اعتاد ساكس وزوجته القدومَ إلى هنا كل شهريْ تموز وآب، قاما بدعوتي أحيانًا للزيارة، لكنها كانت رحلات قصيرة دومًا، ونادرًا ما بقيتُ لأكثر من ثلاث أو أربع ليال. بعد أن تزوجنا أنا وآيريس قبل تسع سنوات، قمنا بالرحلة معًا عدة مرات، حتى إننا في إحدى المرات ساعدنا فاني وبن في طلاء الجزء الخارجي من المنزل. ابتاع والدَا فاني قطعة الأرض خلال فترة الكساد، في وقت كان من الممكن فيه امتلاك مزرعة مثل هذه بقليلٍ من المال. جاء مع المنزل أكثر من مائة فدان وبركة ماء، وعلى الرغم من أن المنزل كان متهالكًا إلا أنَّه كان فسيحًا وجيدَ التهوية من الداخل، ولم تكن هناك حاجة إلّا إلى تحسينات طفيفة لجعله صالحًا للسكن. كان آل غودمان معلِّمَيْن في مدينة نيويورك، ولم يكن بمقدورهما أبدًا القيام بالكثير من الإصلاحات بعد شرائه؛ لذا حافظ المنزل طوال هذه السنوات على شكله البدائي المجرد: أعمدة الأسرَّة الحديدية، والموقد البطين في المطبخ، تشققات الأسقف والجدران، والأرضيات المطلية باللون الرمادي. ومع ذلك، هناك شيء حميمي في هذا الخراب، هو أن أي شخص سيشعر فيه وكأنه في بيته. بالنسبة لي، فإن الإغراء العظيم للمنزل هو بُعْده؛ إذ يقع على قمة جبل صغير، على مبعدة ستة كيلومترات من أقرب قرية عبر طريق ترابي ضيق. لا بد أن الشتاء قاسٍ على هذا الجبل، ولكن خلال الصيف يكون كل شيء أخضر، حيث تغرد الطيور من حولك، والمروج مليئة بعدد لا يحصى من الزهور البرية: عشبة الصقر البرتقالية، والبرسيم الأحمر، والبتول الوردية، والحوذان. على

بعد حوالي مائة قدم من المنزل الرئيسي، يوجد مبنى خارجي بسيط يستخدمه ساكس كأستوديو للعمل الخاص به كلما كان هنا. بالكاد أكثر من مقصورة، مكونة من ثلاث غرف ليست واسعة، ومطبخ صغير، وحمام ضيق، ومنذ تعرضت للتخريب، قبل اثني عشر أو ثلاثة عشر شتاءً، وهي في حالة سيئة؛ إذ تشققت الأنابيب، وانقطعتِ الكهرباء، وتقشر المشمَّع عن الأرض. أذكر هذه الأشياء لأن هذا هو المكان الذي أجلس فيه الآن على طاولة خضراء في منتصف أكبر غرفة، ممسكًا بقلمٍ في يدي.

طوال معرفتي بساكس وهو يقضي كلَّ صيف يكتب على هذه الطاولة نفسها، وهذه هي الغرفة التي رأيته فيها للمرة الأخيرة، حيث أفرغ قلبَه وأطلعني على سرِّه الرهيب. إذا ركزت بالدقة الكافية على ذكرى تلك الليلة، أوشك أخادع نفسي أنه لا يزال هنا؛ وكما لو أن كلماته مازالت معلَّقة في الهواء من حولي، كما لو أستطيع مدَّ يدي ولمسه. كانت محادثة طويلة ومرهقة، وعندما وصلنا أخيرًا إلى نهايتها- في الخامسة أو السادسة صباحًا- جعلني أعدُه بعدم السماح لسرِّه بتجاوز جدران هذه الغرفة. كانت تلك كلماته بالضبط: لا ينبغي لشيء مما قاله أن يهرب من هذه الغرفة. في الوقت الحالي، سأظل قادرًا على الوفاء بوعدي. وإلى أن تحينَ اللحظة لعرض ما كتبته هنا يمكنني أن أريح نفسي بفكرة أنني لن أكسرَ وعدي.

في المرَّة الأولى التي التقينا فيها، كان الثلج ينهمر. لقد مر أكثرُ من خمسة عشر عامًا على ذلك اليوم، لكن لا يزال بإمكاني تذكرُه متى أردت. لقد نسيت الكثيرَ من الأمور الأخرى، لكنني أتذكر لقاءَ ساكس ذاك بوضوح كأي حدثٍ خاص في حياتي.

كان ذلك بعد ظهر يوم سبتٍ في شباط أو آذار، حيث دُعينا لعقد قراءة مشتركة لأعمالنا في حانة في ويست فيليدج. لم أسمع من قبل عن ساكس، لكن المرأة التي اتصلت بي كانت متعجلة للغاية في الإجابة عن أسئلتي عبرَ

الهاتف. قالت: «إنه روائي، صدر كتابُه الأول منذ عامين». أتت مكالمتها ليلة الأربعاء، قبل ثلاثة أيام فقط من موعد القراءة، وكان هناك شيء قريب من الذعْر في صوتها. مايكل بالمر، الشاعر الذي كان يفترض به أن يشارك يومَ السبت، ألغى للتَّو رحلته إلى نيويورك، وتساءَلَتْ عما إذا كنتُ على استعدادٍ لأنْ أحل محله. لقد كان طلبًا أخرقَ إلى حدٍّ بعيد، لكنني أخبرتها أنني سأفعل ذلك على أي حال. لم أنشر الكثيرَ من الأعمال في تلك المرحلة من حياتي؛ ست أو سبع قصص في مجلات صغيرة، وحفنة من المقالات ومراجعات الكتب، لم يكنِ الأمر كما لو أن الناس يتزاحمون لشرف سماعي أقرأ لهم بصوتٍ عالٍ؛ لذا قبلتُ عرض المرأة المنهكة. خلال اليومين التاليين، دخلتُ في نوبة ذعر، أفتِّش بهياج في عالمي الصغير من القصص التي كتبتها عن شيء لا يحرجني، وعن قصاصةٍ من كتابة جيدة بما يكفي لتُلقى في غرفةٍ مليئةٍ بالغرباء. بعد ظهر يوم الجمعة، مررت بالعديد من المكتبات وسألت عن رواية ساكس. بدا لي أنه من السديد أن أعرف شيئًا عن عمله قبل أن ألتقي به، لكن الكتاب كان عمره عامَيْن بالفعل، ولم يكن أحد يحتفظ به.

شاء سوءُ الحظ أن تأتي عاصفة من الغرب الأوسط مساءَ الجمعة، وبحلول صباح يوم السبت سقطت ثلوج بارتفاع قدم ونصف على المدينة. كان من البديهي أن أتواصل مع المرأة التي اتصلت بي، لَكنني نسيت أن أسأل عن رقمها، وعندما لم أسمعْ منها حتى الساعة الواحدة ظهرًا، افترضت أن عليَّ أن أحمل نفسي إلى وسط المدينة في أسرع وقت ممكن. بادرت بارتداء معطفي وحذائي المطاطي، ووضعت مخطوطة أحدث قصصي في أحد جيوبي، ثمَّ اندفعت إلى طريق ريفرسايد، نحو محطة مترو الأنفاق في تقاطع شارع 116 وبرودواي. كانت السماء قد بدأت تصفو بحلول ذلك الوقت، لكن الشوارع والأرصفة كانت ما تزال مسدودة بالثلوج، وبالكاد كان هناك شيء من حركة السيارات. بضع سيارات وشاحنات هجرَها أصحابها في الانجرافات المرتفعة عند حافة الرصيف، وبين الحين والآخر تنزل سيارة

وحيدة ببطء إلى الشارع، وتتزحلق خارجةً عن السيطرة كلما حاول السائق التوقف عند إشارة حمراء. كنت سأستمتع عادةً بهذه الفوضى، لكن الطقس كان قارسًا في ذلك اليوم لدرجة أنني لم أرفع أنفي من وشاحي. بدأت درجةُ الحرارة بالانخفاض بشكل مطّرد منذ شروق الشمس، والآن صارَ الهواء ثقيل الوطأة، مع رياح جامحة تهبُّ من جهة نهر هدسون، موجات هائلة تدفع جسدي إلى الشارع. كنت شبهَ مخدَّر بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى محطة مترو الأنفاق، لكن على الرغم من كل شيء، فاجأني أن القطارات ما تزال تعمل. وبينما كنت أسير على الدرج وبعد أن اشتريت الكوبون الخاص بي، افترضت أن هذا يعني أن موعدَ القراءة مازال قائمًا رغم كل شيء.

وصلت إلى حانة ناش في الساعة الثانية وعشْر دقائق. كان المكان مفتوحًا، لكن بمجرد أن تكيّفتْ عيناي مع الظلام في الداخل رأيت أنه ليس هناك أحد. نادلٌ بإزارٍ أبيض يقف خلف البار، يجفف بشكل آلي كؤوسَ الشراب الصغيرة بمنشفة حمراء. تفحَّصني رجلٌ سمينٌ في الأربعين تقريبًا، عندما دنوت، كأنّه تحسّر على هذا الإخلال بخلوته.

- أليس من المفترض أن تكون هناك قراءة هنا في غضون عشرين دقيقة؟

سألتُه، وفي اللحظة التي غادرت فيها الكلماتُ فمي، شعرت بأنني أحمق.

أجابَ النادل: ألغي، مع هذا الطقس القارس. الشعرُ جميل، ولكنه لا يستحق أن يتجمَّد ظهرُك من أجله.

جلست على أحد مقاعد البار وطلبت كأسَ بوربون. كنت ما أزال أرتعش من البرد، وأردتُّ تدفئة أحشائي قبل التجاسر على الخروج مرة أخرى. أنهيت الكأس في دفعتين، ثمَّ طلبت إعادة ملئه؛ فالأول كان طعمُه طيبًا، وبينما كنت في منتصف الكأس الثاني، دخل زبون آخر إلى البار. كان شابًّا طويل القامة نحيفًا للغاية بوجه هزيل ولحية بنية كاملة، يعطي انطباعًا

بالغرابة. راقبته وهو يضرب بحذائه الأرض عدةَ مرات، ويصفق قفازيه ببعضهما، ويزفر بصوت عالٍ من أثر البرد. شاهقًا بمعطفه الذي أتلفَه العث، وقبعة بيسبول لفريق نيويورك نيكس تطبق على رأسه، ووشاح أزرق داكن ملفوف حول القبعة لحماية أذنيه. تخيلت أنه إما شخص يعاني من ألم شديدٍ في الأسنان، أو جندي روسي تقطعتْ به السبل وهو يتضور جوعًا في ضواحي ستالينغراد. دهمتني هاتان الصورتان مترادفتين؛ الأولى هزلية والثانية بائسة. على الرغم من هندامه المثير للسخرية، كان هناك شيء عنيف في عينيه؛ شدّة قتلت أي رغبةٍ في السخرية منه. ربما كان يشبه إيكابود كرين[1]، لكنه في الوقت نفسه جون براون[2]، وما إن تتجاوز زيَّه وجسدَ مهاجم كرة السلة المبسوط، سترى نوعًا مختلفًا من الأشخاص: رجلًا لم يفوت أي شيء، رجلًا بألف ترس يدور في رأسه.

وقفَ في المدخل للحظات يتفحَّص الغرفة الفارغة، ثمَّ تقدم إلى النادل وسأل ذات السؤال الذي طرحته قبل عشْر دقائق، وأعطى النادل الإجابة ذاتها التي زوّدني بها تقريبًا، لكنه هذه المرة أشار بإبهامه في اتجاهي، مشيرًا إلى المكان الذي كنت أجلس فيه في نهاية البار، قائلًا: «هذا أيضًا جاء إلى القراءة. على الأغلب أنَّ لديكما ما يكفي من الجنون لمغادرة المنزل اليوم».

«لقد نسيت أن تعدَّ نفسك معنا» قال الرجل الذي لفَّ وشاحه «فأنت هنا الآن».

---

(1) (Ichabod Crane) شخصيةٌ خيالية، وبطلٌ في قصة واشنطن إيرفينغ (1783 - 1859) القصيرة «أسطورة سليبي هولو» يتمُّ تصوير كرين في العمل الأصلي ، وفي معظم الاقتباسات، كفردٍ طويل نحيف. يعمل ناظرَ مدرسة محلي، ويؤمن إيمانًا راسخًا بالخوارق، بما في ذلك أسطورة الفارس بلا رأس. (المترجم)

(2) (John Brown) (1800-1859) مناضلٌ أميركي في سبيل تحرير العبيد ومكافحة التمييز العنصري. ألقيَ القبض عليه بعد غارة على مخازن السلاح في فيرجينيا ليعدم شنقًا. (المترجم)

«لم أنس». ردَّ النادل: «الأمر فقط أنني يجب أن أكون هنا، هذا عملي كما ترى، لكن أنت ليس عليك ذلك، هذا ما أتحدث عنه. إذا لم أحضرْ أفقد وظيفتي».

«لكنني جئت إلى هنا لأقوم بعمل أيضًا. أخبروني أنني سأكسب خمسين دولارًا. الآن قاموا بإلغاء القراءة، وقد فقدت أجرةَ مترو الأنفاق للعودة».

«حسنًا، هذا مختلف، إذًا. إذا كنت من المفترض أن تقرأ، فأعتقد أنك لا تُحسب أيضًا. هذا يعني أن هناك شخصًا واحدًا فقط في المدينة بأكملها خرجَ من دون أن يكون مضطرًّا لذلك».

وأخيرًا دخلتُ إلى المحادثة: «إن كنتما تتحدثان عني فستنخفض قائمتكما إلى الصفر».

استدارَ الرجل الذي كان يرتدي الوشاح وابتسم يقول: «آه، هذا يعني أنك بيتر آرون، أليس كذلك؟».

«أعتقد أنني هو». أجبته ثمَّ أضفت «وإن كنتُ بيتر آرون فلا بد أنك بنيامين ساكس».

أجاب مطلِقًا ضحكة قصيرةً منتقدةً للذات: «بشحمِه ولحمه». ومشى إلى حيث كنتُ جالسًا ومدَّ يده اليمنى محيِّيًا: «أنا سعيد جدًّا أنك هنا. قرأت بعضًا من نتاجك مؤخرًا وكنت أتطلع إلى مقابلتك».

هكذا بدأت صداقتنا منذ خمسة عشَر عامًا في ذلك البار المهجور، يُضيّف كلٌّ منا المشروبات للآخر حتى ينفدَ المال من كلينا. لا بد وأننا قضينا ثلاث أو أربع ساعات، لأنني أتذكر بوضوح أنه عندما ترنّحنا أخيرًا خارجيْن إلى البرد مجددًا، كان المساءُ قد حل. الآن بعد أن مات ساكس أجدني لا أطيق استحضارَ الكيفية التي كان عليها في ذلك الوقت؛ أن أتذكر ينابيع الكرم والفكاهة والذكاء التي تدفقت منه في لقائنا الأول. يصعب علي تصوُّر أن الشخص الذي جلس معي في الحانة ذلك اليوم هو الشخص نفسه الذي

انتهى به الأمرُ مفجرًا نفسَه في الأسبوع الماضي. لا بدَّ أن الرحلة كانت طويلةً جدًّا عليه، مروِّعةً ومترعةً بالمعاناة، وبالكاد أستطيع التفكير فيها دون الرغبة في البكاء. في غضون خمسة عشَر عامًا، عبر ساكس روحَه من طرف إلى آخر، أظنه، وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى تلك المحطة الأخيرة؛ حتى هو ما عاد يعرف نفسَه. في ذلك الوقت، كان قد نأى بعيدًا، وبات من العسير عليه أن يتذكر من أين بدأ.

«عادةً أتمكن من مواكبة ما يحدث». بادرني وهو يفكُّ الوشاح من تحت ذقنه ويخلعه مع قبعة البيسبول ومعطفه البني الطويل. ويكوِّمها جميعًا على كرسي البار المجاور له، ثمَّ جلس: «إلى قبل أسبوعين، لم أكن قد سمعت عنك أبدًا. الآن، وفجأة، صرتَ تنبثق في كل مكان. بادئ ذي بدء، مررت بمقالتك عن مذكرات هيوغو بول. مقال صغير ممتاز، هكذا أراه؛ حاذق، يناقش بدقة، تصدٍّ مثير للإعجاب للقضايا المطروحة. لم أتفق مع كل آرائك، لكنك عرضت رأيك باتقان، وأحترمُ جدية موقفك».

حدّثتُ نفسي: هذا الرجل يؤمن بالفن كثيرًا، لكنه على الأقل يعرف أين يقف، ولديه الحصافة للإقرار بوجود آراء أخرى راجحة.

وتابع: «ثم، بعد ثلاثة أو أربعة أيام، وصلت مجلة عبرَ البريد، وكان أولُ شيء فتحت عليه هو قصةً تحمل اسمك. «الأبجدية السرية»؛ تلك التي تتحدث عنِ الطالب الذي يواصل العثور على رسائل مكتوبة على جدران المباني. أحببتها. أحببتها كثيرًا لدرجة أنني قرأتها ثلاثَ مرات. تساءلت: مَن هو بيتر آرون هذا؟ وأين كان يختبئ؟ عندما اتصلت كاثي- أو أيًّا يكن اسمها- لتبلغني أنَّ بالمر تراجع عن القراءة، اقترحتُ عليها الاتصال بك».

«إذًا، أنت المسئول عن جرّي إلى هنا». قلت، وأنا مذهول من مجاملاته الفخمة إلى حدِّ عدم القدرة على الإتيان بأكثر من هذا الرَّد الركيك.

«حسنًا، من المسلَّم به أن الأمر لم ينجح بالطريقة التي تخيَّلناها».

«لعلَّ الوضع ليس سيئًا بذلك القدر. على الأقل لن أضطرَّ للوقوف في الظلام والاستماع إلى ركبتيّ تطقطقان. هذا شيء يستحق التنويه».

«الطبيعة الأم تحمينا».

«بالضبط. الحظُّ أنقذني».

«أنا سعيد بنجاتك من العذاب. لا أودُّ حمل ذنبك على عاتقي».

«ولكني أشكرك على دعوتي. لقد عنَى ذلك الكثيرَ بالنسبة لي، والحقيقة أنني ممتنٌّ لك بشدة».

«لم أفعل ذلك بُغية امتنانك. كنت فضوليًّا. عاجلًا أم آجلًا كنت سأتواصل معك بنفسي، ولكن لاحقًا جاءتِ الفرصة، وتوقعت أنها ستكون طريقًا لبلوغ الغاية».

«وهأنذا أجلس في القطب الشمالي مع الأدميرال بيري شخصيًّا. أقل ما يمكنني فعله هو طلب كأس لك».

«أقبلُ عرضك بشرط واحد: الإجابة على سؤالي أولًا».

«سأكون سعيدًا إن أخبرتني ما هو، لا أذكر أنك سألتني أي سؤال».

«سألتك أين كنتَ تخفي نفسك. لعلني مخطئًا، لكني أعتقد أنك لم تكن في نيويورك منذ زمن».

«كنتُ مقيمًا هنا، لكنني بعد ذلك غادرت. لقد عدتُّ للتَّو منذ خمسة أو ستة أشهر».

«وأين كنت؟».

«في فرنسا. لما يقرب من خمس سنوات».

«هذا يفسر الأمر إذًا. ولكن لماذا، بحق السماء، تريد العيش في فرنسا؟».

«لا سبب محدَّد. أردتُّ فقط أن أكون في مكان آخر عدَا هنا».

«لم تذهب للدراسة؟ لم تكن تعمل في اليونسكو، أو شركة محاماة دولية شهيرة؟».

«لا، لا شيء من هذا القبيل. كنت إلى حدٍّ كبير أعيش على الكفاف».

«مغامرة المغتربين القديمة، هل كانت كذلك؟ كاتب أميركي شاب يذهب إلى باريس لاكتشاف الثقافة والنساء الجميلات، ويجرِّب متعة الجلوس في المقاهي، وتدخين السجائر بشراهة».

«ولا أظنها كانت كذلك أيضًا. شعرت أنني بحاجة إلى متنفَّس، هذا كل ما في الأمر. اخترت فرنسا لأنني كنت قادرًا على التحدث بالفرنسية. لو كنت أتقن اللغة الصربية- الكرواتية، فلربَّما كنت توجهت إلى يوغوسلافيا».

«إذًا، ذهبت بعيدًا. دون سببٍ محدد، على حدٍّ تعبيرك. أهناك سبب معين لعودتك؟».

«استيقظتُ ذات صباح في الصيف الماضي، وأخبرت نفسي أنَّ الوقت قد حان للعودة إلى المنزل. هكذا دون سبب. شعرت فجأة أنني قضيت هناك زمنًا كافيًا. يبدو أني تُقت للعبة البيسبول. إن لم تنلْ نصيبك من الجولات الثنائية والدورات الكاملة، تبدأ معنوياتك بالذبول».

«ولا تخطط للرحيل مجددًا؟».

«لا، لا أظن. كلُّ ما كنت أحاول إثباته بالذهاب إلى هناك يبدو أنه لم يعد مهمًّا بالنسبة لي الآن».

«وقد تكون أثبتّه بالفعل».

«جائز. أو أنَّ السؤال يجب أن يُطرح بعبارات مختلفة. ربما كنت أستخدم المصطلحات الخاطئة طيلة الوقت».

فجأة صفع يده على طاولة البار، قائلًا: «حسنًا. سأشرب الآن. بدأت أشعر بالرضا، وهذا دائمًا ما يشعرني بالظمأ».

«ماذا تحب أن تشرب؟».

«مثلما تشرب». قال، ولم يكلف نفسَه عناء سؤالي عن شرابي: «وإذا أتى النادل أخبره أن يسكبَ لك نخبًا آخر. النخب مُستحق. إنها عودتك إلى الوطن في النهاية، وواجبنا أن نرحِّب بك مجددًا في أميركا بلباقة».

لا أعتقد أن هناك مَن تمكن مِن نزع أسلحتي تمامًا كما فعل ساكس بعد ظهر ذلك اليوم. لقد عمل منذ اللحظة الأولى كمختصّي مكافحة العصابات؛ مقتحمًا أشدَّ أبراجي تحصينًا ومخابئي الأكثر سرية، مشرِعًا بابًا مؤصدًا إثرَ آخر. كما علمت لاحقًا، كان ذاك أداءه النمطي، ويكاد يكون مثالًا نموذجيًّا لكيفية إقحامه لنفسه في العالم؛ يخوض في الموضوع مباشرة دون لفٍّ أو دوران. لا يقف موقف المتفرج، يشمِّر عن ساعديْه ويبدأ الحديث من فوره. إطلاق المحادثات مع الغرباء أمرٌ يسيرٌ عليه. ويغوص ليسأل عن أمور لا يجرؤ أحدٌ سواه على طرحها، وينجح في غالب الأحيان في الإفلات من العواقب. ستشعر معه أنه لم يتعلم القواعد مطلقًا، ولأنه يفتقر تمامًا إلى الوعي الذاتي، كان يتوقع أن يكون الآخرون منفتحين مثله. ومع ذلك، كان هناك على الدوام شيء غيرُ شخصي في تحقيقاته، كما لو أنه لم يكن يحاول إنشاء اتصالٍ بشريٍّ معك بقدْر ما يحل مشكلة فكرية خاصة به؛ فيُضفي على ملاحظاته صبغةً تجريدية، وهذا مبعثُ ثقة، ما يضعك على استعدادٍ لإخباره بأشياء لم تصارح بها نفسك في بعض الحالات. لم يحكم أبدًا على شخص قابله، ولم يعامل أحدًا على أنه أدنى مرتبة قط، ولم يميز بين الناس إطلاقًا بسبب منزلتهم الاجتماعية. يكترث بنادلٍ بالقدر نفسه الذي يهتمُّ لكاتب، ولو لم أحضر في ذلك اليوم، فمِن المحتمل أنه كان سيقضي ساعتين في الحديث إلى الرجل نفسه الذي لم أبالِ بتبادل عشْر كلماتٍ معه. ساكس كان يفترض تلقائيًّا ذكاءً كبيرًا في الشخص الذي يتحدث إليه، وبالتالي يستثمر في الآخر شعورَه بكرامته وأهميته. أعتقد أن هذه أكثر صفةٍ أعجبتني فيه؛ تلك المهارة الفطرية في استخلاص أفضل ما في الآخرين. مَن التقاه سيحسبه غريبَ الأطوار، أخرقَ، نزقًا معتدًّا بنفسه. مبلبلٌ دومًا بأفكار

وانشغالات غامضة، إلا أنَّه- مرةً تلو أخرى- يفاجئك بمئات العلامات الصغيرة على نَباهته. ومثل أي إنسان آخر في هذا العالم- وربما فاقهم- تمكَّن من الجمع بين العديد من المتناقضات في حضورٍ واحدٍ متكامل. بغضِّ النظر عن مكان وجوده، بدَا دائمًا كأنه في منزله وبيئته، ومع ذلك، نادرًا ما التقيت بأحدٍ أخرقَ للغاية، وغيرِ كفء جسديًّا، وعاجزٍ جدًّا في التفاوض بشأن أبسط التداولات.

طوالَ حديثنا بعد ظهر ذلك اليوم، استمرَّ في دفع معطفه عن المقعد إلى الأرضية. حدث ذلك ستًّا أو سبع مرات، وعندما انحنى لالتقاطه مرَّة ارتطم رأسه بقاع طاولة البار. لكن ساكس- كما اكتشفت لاحقًا- رياضي ممتاز. لقد كان هدّاف فريق كرة السلة في المدرسة الثانوية، وفي جميع المباريات الفردية التي لعبناها ضد بعضنا البعض على مر السنين، لا أعتقد أنني هزمته أكثر من مرة أو مرتين. كان ثرثارًا، وغالبًا ما يكون غير متقن في أسلوب حديثه، ومع ذلك تميزت كتابته بالدقة العالية والاقتصاد، يمتلك موهبة حقيقية للصياغة الموائمة.

كان مُقبلًا على الدنيا، سعيدًا بالاختلاط مع الحشود قياسًا لَمن يعمل في هذه المهنة التي تتَّسم بالعزلة. لكن العزلة نادرًا ما أزعجته؛ حيث داومَ خلالها بانضباطٍ وحماسٍ صارميْن، وأحيانًا كان يعتزل لأسابيع متتالية من أجل إكمال مشروع. بالنظر إلى ما كان منه، والطريقة الفريدة التي أبقى بها هذه الجوانب المختلفة لشخصيته في حركة دائبة؛ لم يكن ساكس شخصًا تتوقع أن يكون متزوجًا. بدَا غير صالح للحياة العائلية، ديمقراطيًّا في عواطفه بحيث لا يستطيع الحفاظَ على علاقة حميمة مع شخص واحد. لكنَّه- ومع هذا كله- تزوَّج في سن صغيرة، أصغر بكثير من أيِّ شخص آخر أعرفه، وأبقى هذا الزواج حيًّا لما يقرب من عشرين عامًا. ولم تبدُ فاني من نوع الزوجة الملائمة له بشكل خاص. باختصار، يمكنني تخيُّله مع واحدة من تلك الزوجات

اللائي يقفنَ قانعات في ظلال أزواجهن، تكرّسُ حياتَها لحماية رجلها من الممارسات الجافة في الحياة اليومية. لكنْ فاني لم تكن كذلك. شريكة ساكس كانت نظيرته؛ امرأة مثقفة وفي غاية الذكاء، قادت حياتَها الخاصة مستقلةً، وما سرُّ تمكُّنه من الاحتفاظ بها إلى جانبه طوال تلك السنوات سوى عمله الجادّ على ذلك؛ فقد كان لديه موهبة هائلة في فهمها والحفاظ على اتِّزانها النفسي. لا شكَّ أن مزاجه اللطيف ساعد في الانسجام مع الزواج، لكنني لا أريد المبالغة في التركيز على هذا الجانب من شخصيته؛ فعلى الرغم من لطفهِ كان بوسْع ساكس أن يكون متزمتًا في أفكاره، وكانت هناك أوقات أطلق فيها نوبات غضب وحشية، ثورات حنق مرعبة حقًّا. لم تكن تلك الثورات موجَّهة إلى الناس الذين كان يهتم بهم بقدْر ما كانت موجهة إلى العالم بأسْره. روَّعته حماقات العالم، وتحت لطفه وروح الدعابة التي يتمتع بهما، تتلمَّس أحيانًا خزانًا عميقًا من التعصب والاستخفاف. كل ما كتبه تقريبًا كان له سمةٌ متبرمة ومشحونة، ومع مرور السنين طوَّر من سمعته كمشاغب. أعتقد أنه كان يستحقها، ولكنها كانت جزءًا صغيرًا مما كان عليه. تأتي الصعوبة من محاولة تقييده بأي سمة قاطعة؛ لذا كان من العسير التكهُّن بساكس؛ داهية مُفعم بالحيوية، ممتلئ بالأفكار المتجددة فلا يقف على رأي لفترة طويلة. أحيانًا وجدت قربه مرهقًا، إنما لا يمكنني الزعم أنه كان مملًّا أبدًا. أبقاني ساكس على حذرٍ لمدة خمسة عشَر عامًا، يتحداني ويستفزّني باستمرار، وبينما أجلس هنا الآن محاولًا أن أفهمَ مَن هو، بالكاد أستطيع تقبُّل حياتي بدونه.

« لقد وضعتني في خانة التقصير». قلت، وأنا أرتشف من كأس البوربون المُعاد ملؤه: «ها أنت قرأت كلَّ كلمة سطّرتها تقريبًا، ولم أرَ سطرًا واحدًا من كتابتك. كان للعيش في فرنسا فوائده، لكن مواكبة الإصدارات الأميركية الجديدة لم تكن منها».

ردَّ ساكس: «لم يفُتك الكثير. أعدك».

«ومعَ ذلك، أجد ذلك محرجًا بعضَ الشيء. فبخلاف العنوان، لا أعرف شيئًا عن روايتك».

«سأعطيك نسخة. ولن يبقى لديك عذر لعدم قراءتها».

«لقد بحثت عنها في عدد قليل من المتاجر أمس».

«لا بأس عليك. وفّرْ أموالك. لديَّ حوالي مائة نسخة، ويسعدني التخلص منها».

«إذا لم أكن ثملًا سأبدأ في قراءتها الليلة».

«لا داعي للعجلة. إنها مجردُ رواية، في النهاية، وليس عليك أخذها على محمل الجد».

«أنا دائمًا ما آخذ الروايات على محَمل الجد. خاصة عندما يقدمُها لي المؤلف».

«هذا المؤلف كان صغيرًا عندما كتبها. ربما كان صغيرًا جدًّا، في الحقيقة. ويشعر أحيانًا بالأسف لنشرها على الإطلاق».

«لكنك كنت تخطط للقراءة منها بعدَ ظهر اليوم؛ فلا يمكنك أن تراها بهذا السوء».

«أنا لا أقول إنها سيئة؛ بل صغيرة السِّن، هذا كل ما هنالك. متفاصحة، ومتخايلة بذكائها. لم أكن حتى لأحلم بكتابة شيء كهذا اليوم. إن كان لديَّ أي اهتمام بها الآن، فهو فقط بسبب مكان كتابتها. الرواية نفسها لا تعني لي الكثير، لكني أظنُّ أنني مازلت مرتبطًا بالمكان الذي وُلِدَت فيه».

«وأيّ مكان هو؟».

«السجن. بدأت في كتابة الرواية في السجن».

«هل تقصد سجنًا حقيقيًّا؟ بزنازين موصدة وقضبان؟ بأرقام مرسومة على مقدمة قميصك؟».

«نعم، سجن حقيقي. السجن الفيدرالي في دانبري، بولاية كونيكتيكت. كنت ضيفًا في ذلك الفندق لمدة سبعة عشَر شهرًا».

«يا إلهي! وكيف انتهى بك المطاف هناك؟».

«حقيقةً، كان الأمر بسيطًا جدًّا. رفضتُ الالتحاق بالجيش عندما استدعوني».

«هل كنتَ مستنكفًا ضميريًّا؟».

«أردتُ أن أكون، لكنهم رفضوا طلبي. أنا متأكد من أنك تعرف القصة. إذا كنت تنتمي إلى دينٍ يدعو إلى السلام ويعارض جميعَ الحروب، فهناك احتمال أن ينظروا في قضيتك. لكنني لست من طائفة الكويكرز أو السبتيين، والحقيقة أنني لا أعارض كل الحروب. فقط تلك الحرب. ولسوء الحظ، كانت هي التي يطلبون منّي القتال فيها».

«لكن لماذا تذهب إلى السجن؟ كانت هناك خيارات أخرى؛ كندا، السويد، وحتى فرنسا. آلاف الأشخاص غادروا إلى تلك الأماكن».

«لأنني ابنُ عاهرة عنيد، هذا هو السبب. لم أرغب في الهرب. شعرت أن لديَّ مسئوليةَ مواجهتهم وإخبارهم بما كنت أفكر فيه. ولا أستطيع القيام بذلك إلا إذا كنت على استعداد لوضع نفسي على المحك».

«وهكذا استمعوا إلى خطابك النبيل، ثمَّ سجنوك على أي حال».

«طبعًا. لكن الأمر كان يستحق».

«أفترضُ ذلك. لكن لا بدَّ أن تلك الأشهر السبعة عشَر كانت مروِّعة».

«لم تكن بالسوء الذي تظن. لا موجب للقلق بشأن أي شيء هناك؛ يقدمون لك ثلاث وجبات في اليوم، وليس عليك غسل ملابسك. يُدبّرون لك معيشتك بالكامل مقدمًا. ستذهل من قدر الحرية التي يمنحك إياها ذلك».

«تسرُّني قدرتك على المزاح بهذا الخصوص».

«أنا لا أمزح. حسنًا، ربما قليلًا. لكنني لم أعانِ بأيٍّ من الطرق التي قد تتخيلها. دانبري ليس سجنًا مرعبًا مثل أتيكا أو سان كوينتين. معظم السجناء هناك بسبب جرائم ذوي الياقات البيضاء؛ الاحتيال، التهرب الضريبي، كتابة شيكات دون رصيد، مثل تلك القضايا. كنت محظوظًا لإرسالي إلى هناك، لكنَّ الميزة الرئيسية أنني كنت على استعداد. تواصلت قضيتي لأشهر، ولمّا كنتُ على يقين بأني سأخسر، توفر لديَّ الوقت لأتأقلم مع فكرة السجن. لم أكن من أولئك المُحبطين الذين ينتحبون حول عدِّ الأيام، أو شطب مربع جديد في التقويم في كل مرَّة أذهب فيها إلى الفراش. ذهبت إلى هناك، وقلت لنفسي هذا هو المكان الذي تعيش فيه الآن، أيها العجوز. تقلصت حدودُ عالمي، ولكنني مازلت على قيد الحياة، وطالما يمكنني التنفسُ وإطلاق الريح والتفكير بحريّة؛ فما الفرقُ الذي يحدثه أين صرت؟».

«غريب».

«ليس غريبًا ألبتة. إنه مثل تلك النكتة القديمة: يعود الزوج إلى بيته، ويدخل غرفة المعيشة؛ فيرى سيجارًا مشتعلًا في منفضة سجائر. يسأل زوجته عما يحدث، لكنها تتظاهر بالجهل. وبدافع من الشك، يبدأ الزوج في تفتيش المنزل، وعندما يصل إلى غرفة النوم، يفتح الخزانة ليجد شخصًا غريبًا بداخلها، يسأل الزوج: (ماذا تفعل في خزانة ملابسي؟). يتلعثم الرجل، قائلًا: (لا أعرف) وهو يرتجف ويتصبَّب عرقًا، ويضيف: (كل إنسان ينبغي أن يكون في مكان ما)».

«حسنًا، فهمت الفكرة. ولكن مع ذلك، لا يخلو الأمرُ من وجود بعض الشخصيات العنيفة معك في تلك الزنزانة. من المستحيل كوْن الأمر ممتعًا على الدوام».

«كانت هناك بعض اللحظات الصعبة، أعترف بذلك. لكنني تعلمت التكيّف جيدًا. تلك كانت المرّة الوحيدة في حياتي التي أثبت فيها مظهري المضحك فائدته. لم يعرف أحد كيف يصنفني، وبعد فترة تمكنت من إقناع معظم السجناء بأنني مجنون. ستذهلك معرفة كيف يدعك الناس وشأنك على نحْو تامٍّ عندما يعتقدون أنك مجنون. بمجرد رسمك تلك النظرة في عينيك؛ ستحصّنك من المتاعب».

«وكلّ ذلك لأنك أردتَّ الدفاع عن مبادئك».

«لم يكنِ الأمر عسيرًا. على الأقل كنت أعرف دائمًا سببَ وجودي هناك؛ فلم يكن عليَّ أن أعذب نفسي بالندم».

«لقد كنت محظوظًا مقارنة بك؛ فقد رسبت في الفحص الجسدي بسبب الربو، ولم أضطرّ للتفكير في الأمر مرة أخرى».

«إذًا، ذهبتَ إلى فرنسا، وذهبتُ إلى السجن. كلانا ذهبَ إلى مكان ما، وعاد كلانا. وحسب ما أرى، كلانا يجلس في المكان نفسه الآن».

«هذه طريقةٌ للنظر في المسألة».

«إنها الطريقة الوحيدة للنَّظر إليها. أساليبنا مختلفة، لكن النتائج متطابقة تمامًا».

طلبنا جولة أخرى من الشراب. أدَّى ذلك إلى جولة، ثمَّ أخرى، ثمَّ أيضًا أخرى بعد ذلك. وقدَّم لنا النادل كأسيْن على حساب المحل، وهو عمل طيِّب سددناه على الفور بتشجيعه على سكب كأسٍ لنفسه. ثمَّ بدأتِ الحانة تمتلئ بالزبائن؛ فقمنا للجلوس على طاولة في الزاوية البعيدة من المكان. لا أستطيع تذكرَ كل ما تحدثنا عنه، لكن بداية تلك المحادثة كانت أوضحَ بكثير من النهاية. بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى آخر نصفِ ساعة أو خمسٍ وأربعين دقيقة، كان هناك الكثيرُ من البوربون في دمي لدرجة أنني صرتُ أرى الأشياء مزدوجة بالفعل. لم يحدث هذا لي من قبل، ولم يكن لديَّ أي

فكرة عن كيفية إعادة العالم إلى بؤرة التركيز. كلما نظرتُ إلى ساكس، كان هناك اثنان منه. لم يساعد رمش عينيّ، وهزُّ رأسي جعلني أشعر بالدوار فقط. تحوَّل ساكس إلى رجلٍ برأسين وفمين، وعندما وقفت أخيرًا للمغادرة، يمكنني أن أتذكر كيف أمسك بي بين ذراعيه الأربعة بينما كنتُ على وشك السقوط. ربما كان من الجيد أن يكون هناك الكثير منها في عصر ذلك اليوم. كنت عبئًا، وأشك في أن رجلًا واحدًا كان سيقوى على حملي.

يمكنني الحديثُ عنِ الأشياء التي أعرفها فقط، والأشياء التي رأيتها بأم عيني وسمعتها بأذني. وباستثناء فاني، من المحتمل أنني كنت أقربَ إلى ساكس من أي شخص آخر، لكن هذا لا يجعلني خبيرًا في تفاصيل حياته. لقد كان يغادر الثلاثين عندما التقيت به، ولم يقضِ أيٌّ منّا الكثير من الوقت في الحديث عن ماضيه. طفولته هي إلى حدٍّ كبير لغزٌ بالنسبة لي، وبخلاف بعض الملاحظات العابرة التي أدلى بها عنْ والديه وأخواته على مرِّ السنين، فأنا لا أعرف شيئًا عن عائلته. لو كانتِ الظروف مختلفة الآن، لحاولت التحدثَ إلى بعضهم، وسأبذل جهدي لملء أكبر عددٍ ممكن من الفراغات. لكنني لست في وضْع يسمح لي بإطلاق حملة تقصٍّ عن مُعلمي ساكس في الابتدائية وأصدقاء المدرسة الثانوية، أو إجراء مقابلات مع أبناء عمومته وزملائه في الكلية ورفاق السجن. لا وقت كافٍ لذلك، ولأنني مجبر على العمل بسرعة، ليس لديَّ ما أعتمد عليه سوى ذكرياتي الخاصة. أنا لا أقول إنَّ هذه الذكريات موضع شك، أو إنَّ بها زيفًا أو تشويشًا فيما يخصُّ ما أعرف عن ساكس، لكنني لا أريد أن أقدم هذا الكتابَ خلاف حقيقته. لا شيء قطعيٌّ فيما يخصه. إنها ليست سيرة ذاتية أو صورة نفسية شاملة، ومع أن ساكس قد أسرَّ لي كثيرًا على مدار سنوات صداقتنا، إلا إنَّني لا أدَّعي امتلاك أكثر من فهمٍ جزئي لمَن كان. أريد أن أقول الحقيقة عنه، وأن أضعَ هذه الذكريات بأمانةٍ قدر المستطاع، لكن لا يمكنني استبعاد احتمال كوني مخطئًا، وأن الحقيقة مختلفةٌ تمامًا عما أتخيله.

وُلِد في 6 آب 1945 أتذكر التاريخَ لأنه كان حريصًا دائمًا على تركيز فكرة عند ذكره؛ مشيرًا إلى نفسه في العديد من المحادثات على أنه «أول مواليد هيروشيما في أميركا»، «طفل القنبلة الأصلي»، «أول رجل أبيض يتنسَّم الأنفاس في العصر النووي».

اعتادَ أن يزعم أن الطبيب ساعدَ في ولادته في اللحظة التي خرجت قنبلة «الرجل البدين» من أحشاء الطائرة «إينولا جاي»[1]، إلا إنيّ دائماً ما كنت أعدُّ هذا الحديث مبالغة. في المرَّة الأولى التي قابلت فيها والدة ساكس، لم تكنْ قادرة على تذكر موعد الولادة. قالت إن لديها أربعة أطفال، وولاداتهم كلها مختلطة في ذهنها. لكنها على الأقل أكّدت التاريخ، مضيفةً أنها تتذكر بوضوحٍ أنهم أخبروها عن هيروشيما عقبَ ولادة ابنها. لو أن ساكس اخترع القصة، فلم تكن تلك أكثرَ من مجرد أسطورة بريئة من جانبه. كان ماهرًا في تحويل الحقائق إلى استعارات، ولأنَّ لديه وفرةً من الحقائق تحت تصرفه، كان بوسْعه أن يقصفك بذخيرة لا تنتهي من الروابط التاريخية العجيبة، فيقرن أكثرَ الأشخاص المختلفين والأحداث المتباينة معًا. على سبيل المثال، أخبرني ذاتَ مرَّة أنه خلال زيارة بيتر كروبوتكين الأولى للولايات المتحدة في تسعينيات القرن التاسع عشَر طلبتِ السيدة جيفرسون ديفيس أرملةُ رئيس الولايات الكونفدرالية لقاءَ الأمير الفوضوي الشهير. قال ساكس إن ذلك كان غريبًا بما فيه الكفاية، ولكن بعد دقائق فقط مِن وصول كروبوتكين إلى منزل السيدة ديفيس، مَن يمكن أن يحضر سوى بوكر تي. واشنطن؟ أبلغ واشنطن أنه كان يبحث عن صديق مشترك هو مرافق كروبوتكين، وعندما علمتِ السيدة ديفيس أنه كان يقف في الباب أرسلت رسالةً تدعوه

---

(1) الوقائع التاريخية تقول إنَّ الاسم المشفّر للقنبلة النووية التي ألقتها طائرة إينولا غاي على مدينة هيروشيما في 6 آب 1945 كان «الولد الصغير». بينما أطلق اسمُ «الرجل البدين» على القنبلة التي أُلقيت على ناغازاكي في التاسع من آب من نفس العام، وألقتها المقاتلة بوكسكار الأميركية. (المترجم)

لأن يدخل وينضمَّ إليهم. وهكذا جلسَ هذا الثلاثي غير المتوقع لساعة قادمة، شربوا الشاي معًا وأجروا محادثة مهذبة: النبيل الروسي الذي سعى لإسقاط كل حكومة منظمة، والعبد السابق الذي تحوَّل إلى كاتب ومعلم، وزوجة الرجل الذي قادَ أميركا في حربها الأكثر دموية دفاعًا عن مؤسسة العبودية. ساكس وحدَه يمكن أن يعرف شيئًا كهذا. ساكس وحده كان بإمكانه إبلاغُك أنه بينما نشأتِ الممثلة السينمائية لويز بروكس في بلدةٍ صغيرة في كانساس في بداية القرن، كانت صديقتها في المنزل المجاور هي فيفيان فانس، المرأة التي لعبت دورَ البطولة لاحقًا في المسلسل التلفزيوني I Love Lucy. كان يشعر بسعادة غامرة لاكتشافه هذا: أنَّ طرفي النسوية الأميركية- المغوية والمحافظة، شيطانة الجنس الغَلِمة وربّة المنزل العتيدة- خرجتا من المكان نفسه، من الشارع المترب نفسِه في وسط أميركا. أحبَّ ساكس هذه المفارقات، والحماقات، والتناقضات الهائلة في التاريخ، والطريقة التي كانت تنقلب بها الحقائق على رأسها باستمرار. بإتخام نفسه بهذه الحقائق، كان قادرًا على قراءة العالم كما لو كان أثرًا شعريًّا، وتَحويل الأحداث الموثقة إلى رموز أدبية، واستعاراتٍ تشير إلى بعض الأنماط المظلمة والمعقدة المُضمَّنة في الواقع. لا أستطيع القطع بمدى أخذه هذه اللعبة على محمل الجد، لكنه لعبها مرارًا، وفي بعض الأحيان كان الأمر كما لو أنه غير قادرٍ على كبح جماحه. قصة ولادته جزء من هذا الإرغام. من ناحية، كان ذلك شكلًا من روح الدعابة السوداء، ولكنه أيضًا محاولة منه لتحديد هويته، وطريقته لإقحام نفسه في أهوال زمانه. تحدث ساكس بغزارة عن «القنبلة»، كان يعدُّها حقيقةً مركزيةً للعالم، وتمييزًا نهائيًّا للروح، في رأيه أنها ميزتنا عن جميع الأجيال السابقة في التاريخ. بمجرد أنِ اكتسبنا القدرة على تدمير أنفسنا تغيرَ مفهومُ الحياة البشرية ذاته؛ حتى الهواء الذي نستنشقه، ملوثٌ بنتانة الموت. ساكس لم يكن أولَ مَن أتى بهذه الفكرة، ولكن بالنظر إلى ما حدث له قبل تسعة أيام،

هناك قدرٌ من الرعب في هذا الاستحواذ، كما لو أنه نوعٌ من التورية القاتلة، كلمةٌ ملتبسةٌ تجذّرت بداخله ثمَّ تبرعمت خارجةً عن سيطرته.

والدُه يهودي من أوروبا الشرقية، ووالدته كاثوليكية أيرلندية. كما هو الحال مع معظم العائلات الأميركية، جلبتهم الكوارث إلى هنا (مجاعة البطاطس في أربعينيات القرن التاسع عشر، والمذابح في ثمانينياته(، ولكن بخلاف هذه التفاصيل الأولية، ليس لديَّ أي معلومات عن أسلاف ساكس. كان مولعًا بالقول إن شاعرًا هو المسئول عن إحضار أسرة والدته إلى بوسطن، لكن هذه ليست سوى إشارة إلى السير والتر رالي، الرجل الذي جلب البطاطس إلى أيرلندا، وبالتالي تسبَّبت في الآفة التي حدثت بعد ثلاثمائة عام. أما بالنسبة لأسرة والده، فقد أخبرني ذات مرةٍ أنهم جاؤوا إلى نيويورك بسبب يسوع. كانت هذه أيضًا واحدةً من تلميحات ساكس الغامضة، وإلى أن تنْفَدَ إلى منطق أناشيد الأطفال الذي يقف خلفها، ستبدو لك خاليةً من المعنى. قصدُهُ أن المذابح بدأت بعد اغتيال القيصر ألكساندر الثاني- ألكساندر قُتل على يد العدميين الروس؛ العدميون كانوا عدميين لأنهم لا يؤمنون بوجود إله- هي معادلةٌ بسيطة في النهاية، ولكنها غيرُ مفهومة حتى استعيدت الحدود الوسطى إلى المعادلة. كانت ملاحظة ساكس أشبه بإخبارك أن المملكة ضاعت بسبب عدم وجود «مسمار». إذا كنت تعرف القصيدة، فقد فهمتها. إذا كنت لا تعرفها فلن تعرف[1].

(1) لعدم وجود مسمار؛ خُسرت حدوة فرس.
لعدم وجود حدوة؛ خُسرت فرس.
لعدم وجود فرس؛ خُسر فارس.
لعدم وجود فارس؛ خُسرت معركة.
لخسارة معركة؛ خُسرت مملكة.
كلُّ ذلك بسبب خسارة مسمار حدوة. (وهناك صياغات أخرى للقصيدة تطول أو تقصر. المترجم)

متى وأين التقى والداه بعضهما، وما كانوا عليه في بواكير حياتهما، وكيف تفاعلت عائلاتهما مع احتمال الزواج المختلط، وفي أيِّ نقطة انتقلوا إلى ولاية كونيكتيكت. كل هذا يقع خارج نطاق ما يُمكنني مناقشته. على حدِّ علمي، كان لساكس نشأة علمانية. كان يهوديًّا وكاثوليكيًّا في الوقت نفسه، ما يعني أنه لم يكنْ هذا ولا ذاك. لا أذكر أنه تحدثَ عن الذهاب إلى مدرسة دينية، وعلى حدِّ علمي لم يُمنح سرّ التثبيت المسيحي ولم يجرِ له حفل بلوغٍ يهودي. حقيقة ختانه لم تكن أكثرَ من مجرد تفصيل طبي. ومع ذلك، فإنه في عدَّة مناسبات، ألمحَ إلى أزمة دينية حدثت في منتصف سِني مراهقته، ولكن من الواضح أنها استُنفدت ذاتيًّا بسرعة كبيرة. لطالما تأثرتْ بمعرفته للكتاب المقدس (كلّ من العهدين القديم والجديد)، ولعله بدأ في قراءته حينها، خلال فترة الصراع الداخلي تلك. ساكس كان مهتمًّا بالسياسة والتاريخ أكثرَ من اهتمامه بالأسئلة ذات الطابع الديني، لكن سياسته كانت مع ذلك مشوبةً بما يمكن أن أُسمّيه صفةً دينية، كما لو أن المشاركة السياسية كانت أكثرَ من مجرد وسيلة لمواجهة مشاكل الحاضر، ولكنها أيضًا وسيلةٌ للخلاص الفردي. أعتقد أن هذه نقطة مهمة. آراء ساكس السياسية لم تندرج في أيٍّ من الفئات التقليدية. كان يتحفظ على الأنظمة والأيديولوجيات، وعلى الرغم من أنه يمكن أن يتحدث عنها بقدرٍ كبير من التفهم والحذلقة؛ فإنَّ العمل السياسي بالنسبة له يتلخَّص في كونه قضية ضمير. هذا ما جعله يقرر الذهابَ إلى السجن في عام «1968» لا لظنه أنه يمكن أن ينجز أيَّ شيء هناك، ولكن لأنه يعلم أنه يصعب عليه العيشُ مع نفسه إذا لم يذهب. إذا كان لا بدَّ لي من تلخيصٍ لموقفه تجاهَ معتقداته الخاصة، فسأبدأ بذكر أساتذة الفلسفة المتعالية في القرن التاسع عشر: «ثورو» كان قدوته، وبدون مسألة» العصيان المدني»، أشك أن مصيرَ ساكس كان سيؤول إلى ما انتهى إليه. أنا لا أتحدثُ فقط عن السجن الآن، ولكن عن نهج كامل للحياة، موقفٌ من اليقظة الداخلية القاسية. ذاتَ مرة، عندما ورد ذكرُ كتاب «والدن» في محادثة، اعترفَ لي ساكس بأنه كان

يضع لحية لأنَّ هنري ديفيد كان يضع واحدة؛ ما لفتَ نظري فجأة إلى مدى عمق إعجابه به.

بينما أكتب هذه الكلمات الآن، يعرض لي أنهما عاشَا نفس العدد من السنوات. توفيَ ثورو في الرابعة والأربعين من عمره، ولن يكبره ساكس حتى الشهر المقبل. لا أفترض أن هناك أيَّ شيء يمكن استخلاصُه من هذه المصادفة، لكنها من نوع المصادفات الذي يميل إليه ساكس دائمًا؛ تفصيل صغير يضاف إلى السجل.

عملَ والده مديرَ مستشفًى في نوروك، وممّا تمكنت من معرفته، لم تكنِ الأسرةُ ميسورة الحال ولا غارقةً في الديون بشكل واضح. وُلدت ابنتان أولًا، ثمَّ ولد بن، ثمَّ جاءت ابنة ثالثة، وُلد أربعتهم في غضون ستٍّ أو سبع سنوات. يبدو أنَّ ساكس كان أقربَ إلى والدته من والده (مازالت على قيد الحياة، وهو ليس كذلك)، لكنني لم أشعر أبدًا بوجود أي صراعات كبيرة بين الأب والابن. وكمثال على غبائه كطفلٍ صغير، ذكر لي ساكس ذاتَ مرة مدى انزعاجَه عندما علم أن والده لم يقاتل في الحرب العالمية الثانية. في ضوء موقف ساكس اللاحق، تصبح هذه الاستجابة هزليةً تقريبًا، ولكن مَن يدري إلى أيِّ مدى أثّرت به خيبة أمله في ذلك العمر؟ اعتاد كافة أصدقائه التباهي بمآثر آبائهم الجنود، وكان يحسدهم على جوائز المعركة التي كانوا يهرّبونها من أجل الألعاب الحربية التي لعبوها في ساحات الضواحي الخلفية: الخوذات وأحزمة الخراطيش وقراب المسدسات والزمزميات وبطاقات التعريف المعدنية والقبعات والميداليات. لكن سبب امتناع والده عن الخدمة في الجيش لم يُشرح لي. من ناحية أخرى، تحدث ساكس دائمًا بفخرٍ عن السياسة الاشتراكية لوالده في الثلاثينيات، والتي تضمَّنت على ما يبدو تنظيم النقابات أو بعض الوظائف الأخرى المرتبطة بالحركة العمالية. إذا كان ساكس ينجذب نحو والدته أكثر من والده؛ فأعتقدُ أن السبب في

ذلك هو أن تشابه شخصيَّتيهما إلى حدٍّ بعيد، فكلاهما ثرثارٌ وفظ، ويتمتع بموهبة خارقة في جعل الآخرين يتحدثون عن أنفسهم. بحسب ما روت فاني (التي أخبرتني كثيرًا عن هذه الأشياء مثلما فعل بن على الدوام(، كان والدُ ساكس أكثر هدوءًا ومواربةً من والدته، وأكثرَ انغلاقًا على نفسه، وأقلَّ ميلًا لإعلامك بما يفكر فيه. ومع ذلك، فإن رابطًا قويًّا كان بينهما لا ريب. يأتي الدليل الأكثر تأكيدًا، وأستطيع تذكُّره، من قصة أخبرتني بها فاني ذاتَ مرة. بعد فترة وجيزة من اعتقال بن، زارَ مراسل محلّي المنزل ليقابل حماها بشأن المحاكمة. من الواضح أنَّ الصحافي كان يتطلع إلى كتابة قصةٍ عن الصراع بين الأجيال (موضوع كبير في تلك الأيام(، ولكن بمجرد أن أدرك السيد ساكس نواياه، قام هذا الرجل الخفيف والصامت بضرب قبضته على ذراع الكرسي، وقال للصحافي مباشرة في عينه: «بن طفلٌ رائع. لقد علمناه دائمًا أن يدافع عما يؤمن به، وسأكون مجنونًا ألّا أفخر بما يفعله الآن. لو كان هناك مزيد من الشباب مثل ابني في هذا البلد، فسيكون مكانًا أفضل بكثير».

لم أقابلْ والده قط، لكنني أتذكر عيدَ الشكر الذي قضيته في منزل والدته جيدًا. كانت الزيارة بعد أسابيع قليلة من انتخاب رونالد ريغان رئيسًا، ما يعني أنها كانت في تشرين الثاني من عام «1980»، قبل عشْر سنوات من الآن. لقد كان فترةً سيئةً من حياتي. كان زواجي الأول قد انفضَّ قبل عامين، ولم يكن مقدرًا أن أقابل آيريس حتى نهاية شباط، بعد ثلاثة أشهر. كان ابني ديفيد قد تجاوز الثالثة بقليل، وقد رتبتُ وأمّه لقضائه العطلة معي، لكن الخطط التي وضعتُها باءت بالفشل في اللحظة الأخيرة. بدت البدائل إلى حدٍّ ما مقيتة: إما الخروج إلى مطعمٍ ما أو تناول عشاء الديك الرومي المجمد في شقتي الصغيرة في بروكلين. وعندما بدأت أشعر بالأسى على نفسي (في وقت متأخر من يوم الاثنين أو الثلاثاء)، أنقذت فاني الموقف بدعوتنا إلى منزل والدة بن في كونيكتيكت. قالت إن جميع بنات وأبناء الأخوة سيكونون هناك، ومن المؤكد أن يكون ذلك ممتعًا لديفيد.

انتقلتِ السيدة ساكس بعد ذلك إلى دار للمسنين، لكنها في ذلك الوقت كانت لا تزال تعيش في المنزل في بلدة كنعان الجديدة حيث نشأ بن وأخواته. كان منزلًا كبيرًا خارج البلدة بدا أنه قد بُنيَ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واحدة من تلك المتاهات ذات الجملون الفيكتوري؛ بمخازن للمؤن، وسلالم خلفية، وممرات صغيرة غريبة في الطابق الثاني. المساحات الداخلية مظلمة، وغرفة المعيشة معبأة بأكوام الكتب والصحف والمجلات. لا بد أن السيدة ساكس كانت في منتصف الستينيات من عمرها في حينها، ولكن لم يكن بها شيء كبير في السن أو يتصف بسلوك الجدات. لسنوات مديدة كانت عاملة اجتماعية في أحياء مدينة بريدجبورت الفقيرة، ولم يكن من الصعب أن ترى أنها كانت جيدة في وظيفتها: امرأة مفوّهة، ذات رأي، وميل طائش للمزاح. يتراءى أنها تستمتع بالحياة؛ فهي امرأة لا تتأثر تصرفاتها بفرط العاطفة ولا للمزاج السيئ، ولكن كلما انتقل الحديث إلى السياسة (كما حصل كثيرًا ذاك اليوم(، أثبتت أن لسانها لاذع بطريقة خبيثة. بعض أقوالها بذيئة كليًّا، وفي إحداها، عندما وصفت شركاء نيكسون المدانين بأنهم: من نوع الرجال الذين يطوون ملابسهم الداخلية قبل الذهاب إلى الفراش في الليل. التفتت إحدى بناتها صوبي بسيماء محرجةٍ على وجهها، كما لو أنها تعتذر عن سلوك والدتها غير اللائق بسيدةٍ. لم يكن عليها القلق؛ فقد أعجبتني السيدة ساكس للغاية ذلك اليوم. لقد كانت أمًّا حاكمةً هدّامة تستمتع بمصارعة الحياة، وبدا أنها مستعدة للضحك على نفسها وعلى أيِّ شخص آخرَ بمَن فيهم أطفالها وأحفادها. وبعد فترةٍ وجيزة من وصولي إلى هناك، اعترفتْ لي أنها كانت طباخة فظيعة، وهذا هو السبب في أنها فوّضت مسئوليةَ تحضير العشاء لبناتها. لكنها أضافت (وهنا اقتربت منّي وهمست في أذني)، وقالت إنَّ الفتيات الثلاث لسْن بارعاتٍ في المطبخ أيضًا؛ فهي مَن علَّمَتهنّ كل ما يعرفنه، وإذا كان المعلم أبلهَ شاردَ الذهن؛ فماذا تتوقع من التلاميذ؟

صحيح أنَّ الوجبة كانت مروِّعة، لكننا بالكاد حظينا بوقتٍ لملاحظة ذلك. مع منزل معبأ بالناس في ذلك اليوم، والجلبة المتواصلة لخمسة أطفال دون سنِّ العاشرة، كانت أفواهنا مشغولة بالحديث أكثرَ من الطعام. عائلة ساكس كانت مجموعة صاخبة. قدِمت شقيقاته وأزواجهنَّ من مناطق مختلفة من البلاد، وبما أن معظمهم لم يروا بعضَهم البعض منذ فترة طويلة، سرعانَ ما أصبحت محادثة العشاء مفتوحةً للجميع، الجميع تحدّثوا في وقت واحد. في أي لحظة، كانت هناك أربعة أو خمسةُ حوارات منفصلة تجري عبرَ الطاولة، ولكن نظرًا لأن الناس لم يكونوا بالضرورة يتحدثون إلى الشخص المجاور لهم؛ استمرَّت هذه الحوارات في التقاطع مع بعضها البعض، ما تسبَّب في حدوث تحوُّلات مفاجئة في أزواج المتحدثين، بحيث بدا أنَّ الجميع يُشاركون في كافة المحادثات في الوقت نفسه، ويتحدثون معًا بعيدًا عن حياته أو حياتها وفي الوقت نفسه يتنصّتون على الآخرين. أضف إلى ذلك المقاطعات المتكررة من الأطفال، وتقديم ورفع الأطباق المختلفة، وسكب النبيذ، وسقوط الأطباق، وقلب الأكواب، ووضع البهارات، بدأ العشاء يشبه استعراضًا مسرحيًّا هزليًّا ضعيفًا مرتجلًا أُعدَّ على عجل.

رأيتها عائلة مكتنزة؛ مجموعة من الأفراد المشاكسين، المنقسمين، الذين يهتمون ببعضهم البعض، لكنهم لا يتشبثون بالحياة التي تشاركوها في الماضي. كان من المنعش بالنسبة لي أن أرى مدى ضآلة المِحَن بينهم، وندرة المنافسات القديمة والأحقاد التي ظهرت على السطح، ولكن في الوقت نفسه لم يكن هناك كثير من الحميمية، لم يبدو متصلين ببعضهم البعض كأعضاء في أكثر العائلات نجاحًا. أعلم أنَّ ساكس كان محبًّا لأخواته، ولكن فقط بطريقةٍ تلقائيةٍ وبعيدةٍ نوعًا ما، ولا أظنه معنيًّا بشكل خاص بأيٍّ منهن خلال سنِّ البلوغ. ربما للأمر علاقة بكوْنه الصبي الوحيد، لكني كلما ألقيت نظرةً خاطفة عليه خلال تلك الفترة الممتدة من الظهيرة إلى المساء، كان إمّا يتحدث إلى والدته أو إلى فاني، وربما أظهر اهتمامًا بابني ديفيد أكثر من اهتمامه

بأيٍّ من أبناء وبنات أخواته. أشكُّ في أنني أُثبت نقطة محددة حول هذا الموضوع؛ فهذه الأنواعُ من الملاحظات الجزئية تخضعُ لجملةٍ من الهفوات وسوء القراءة، ولكن الحقيقة هي أن ساكس تصرَّفَ كأنه شخصٌ منعزلٌ ضمن عائلته، وشخصية تقف على مبعدةٍ من البقية. هذا لا يعني أنه يتجنَّب أي شخص، ولكن هناك لحظات أحسست أنه يشعر بالضيق، ويوشك أن يشعرَ بالملل لاضطراره إلى الوجود هناك.

يبدو أنَّ طفولته كانت عادية، بناءً على القليل الذي أعرفه عن ذلك. لم يبلِ بلاءً حسنًا في المدرسة بشكل خاص، وإن حصل على مرتبة الشرف لنفسه بأي شكل من الأشكال، فلأنه برع في المقالب. يبدو أنه لا يخشى مواجهةَ السلطة، ونقلًا عن لسانه، فقد أمضى السنوات من السادسة إلى الثانية عشرة في حالة تخميرٍ مستمرةٍ من التخريب الإبداعي. كان هو مَن صمم الشِّراك، وألصق قصاصات «اركلني» على ظهر المعلم، والذي أشعل المفرقعاتِ النارية في صناديق القمامة في الكافتيريا. قضى مئات الساعات جالسًا في مكتب المدير خلال تلك السنوات، لكن العقوبة كانت ثمنًا زهيدًا يدفعه لقاءَ الرضا الذي منحتْه إياه هذه الانتصارات. احترمهُ الأولاد الآخرون لجرأته وإبداعه، ولعل هذا ما ألهمَه لخوض مثل هذه المخاطر في المقام الأول. لقد رأيتُ بعضَ صور ساكس المبكرة، وليس هناك شك في أنه كان قبيحًا، وشاذًّا عمّا حوله: نحيلًا كبادرات الفاصولياء ذات الأذنين الكبيرتين، أسنان بشعة، وابتسامة بلهاء مائلة. لا ريبَ أن احتمالات السخرية بدتْ هائلة، لا بدَّ أنه كان هدفًا متحركًا لكافة أنواع النكات والمناكفات اللاذعة. إنْ تمكّن من تجنب ذاك المصير، فلأنه قَسَرَ نفسه على أن يغدو أكثر وحشيةً ممن سواه. ليس الدور الأكثر متعةً، لكنه عمل بجدٍّ لإتقانه، وبعد فترة غدَا سلطانَ المنطقة بلا منازع.

التقويم أصلح أسنانه المعوجَّة، جسده امتلأ، أطرافه تعلّمت تدريجيًّا إطاعته؛ وما إن وصل إلى سنِّ المراهقة، حتى بدأ يشبه الشخصَ الذي سيكونه فيما بعد. ونَفَعَهُ طوله في الألعاب الرياضية، وعندما بدأ لعب كرة السلة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، سرعان ما تطور ليصبح لاعبًا واعدًا. تلاشت المقالب والمجانة المارقة في ذلك الوقت، وبينما كان أداؤه الأكاديمي في المدرسة الثانوية بالكاد لافتًا للنظر (وَصَفَ نفسه على الدوام بالطالب الكسول، مع أدنى قدر من الاهتمام بالحصول على درجات جيدة)، قرأ الكتب باستمرار، وبدأ يرى جديًّا نفسه كاتبًا في المستقبل. باعترافه الشخصي، كانت أعماله الأولى مروعة» رومانسيات عبثية وبحث مشتت عن الذات»، كما دعاها ذات مرة، وقصصًا صغيرة بائسة وقصائد كان يخفيها لنفسه سرًّا خالصًا عن العيون، لكنه تمسك بحلمه، وكدليل على جديته المتزايدة، ذهب واشترى لنفسه غليونًا في سنِّ السابعة عشرة. كان يعتقد أن هذه كانت شارة كل كاتبٍ حقيقي، وخلال السنة الأخيرة من دراسته الثانوية كان يقضي كل مساء جالسًا إلى مكتبه، بقلمٍ في يد، وغليون في الأخرى، معبّئًا حجرته بالدخان الكثيف.

هذه القصص سمعتها من فم ساكس نفسه. وساعدتْ على رسم تصوُّري عما كان عليه قبل أن أقابله، لكن بينما أستعيد تعليقاته الآن، أُدرك أنها من الجائز أن تكون خاطئةً تمامًا؛ فاستنكار الذات عنصر مهمٌّ في شخصيته، وغالبًا ما استخدم نفسه مرمًى لنكاته الخاصة. خاصة عندما يتحدث عن الماضي، كان يحب أن يصور نفسه بأكثر العبارات سوءًا؛ هو دائمًا الفتى الجاهل، الأحمق المتكبر، صانع الأذى، المخادع. ربما كانت هذه هي الطريقة التي رغب أن أراه بها، أو ربما وجد بعض المتعة المنحرفة في شدِّ رجلي. فالحقيقة هي أن الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس حتى يسخر الشخص من نفسه، ونادرًا ما يكون مَن يتمتّع بهذا النوع من الثقة بالنفس أحمق أو فاشلًا.

هناك قصة واحدة فقط من تلك الفترة المبكرة أركن إليها. سمعتها في نهاية زيارتي إلى ولاية كونيكتيكت في عام 1980، وبما أنها صدرت من والدته مثلما وردت على لسانه، فإنها تقع في فئة مختلفة عن البقية. هذه الحكاية في حد ذاتها أقل دراماتيكية من القصص التي رواها لي ساكس، ولكن بالنظر إليها الآن من منظور حياته كلها فإنها تبرز في جلاءٍ خاصٍّ؛ كما لو كانت إعلانًا عن فكرةٍ رئيسية، البيان الأوليّ من جملة موسيقية، ستستمر في مطاردته حتى لحظاته الأخيرة على الأرض.

بمجرد تنظيف الطاولة، كُلِّف الأشخاص الذين لم يساعدوا في العشاء بواجب الغسيل في المطبخ. كنا أربعة فقط: ساكس ووالدته وفاني وأنا. تلك كانت مهمة كبيرة؛ حيث كانت الفوضى والأواني الفخارية متكدسةً على كل منضدة، وبينما كنا نتناوب في الكشط وإرغاء الصابون والشطف والتجفيف، تجاذبنا أطراف الحديث حول هذا وذاك، وانجرفنا دون هدف من موضوع إلى آخر. بعد فترة، وجدنا أنفسنا نتحدث عن عيد الشكر، مما أدى إلى مناقشةٍ حول الأعياد الأميركية الأخرى، ما أدَّى بدوره إلى بعض الملاحظات الخاطفة حول الرموز الوطنية. ثمَّ ذُكِر تمثال الحرية، وبعد ذلك، كما لو أن الذكرى قد عادت إلى كليهما في الوقت نفسه، بدأ ساكس وأمه في استذكار رحلةٍ قاما بها إلى جزيرة بيدلوس في أوائل الخمسينيات. لم تسمع فاني القصة من قبل؛ لذلك صرت أنا وهي جمهورًا نقف هناك مع مناشف الصحون في أيدينا بينما كان الاثنان يديران عرضهما الوجيز.

بدأت السيدة ساكس بالقول: هل تتذكر ذلك اليوم، يا بنجي؟

ردّ ساكس: بالطبع أتذكر. كانت تلك واحدة من منعطفات طفولتي.

- ما كنتَ إلا شابًّا صغيرًا في ذلك الوقت. ستة أو سبعة أعوام.

- كان الصيف الذي بلغتُ فيه السادسة من عمري، عام 1950.

- أما أنا فكنت أكبر من ذلك بسنوات قليلة، ولم أزرْ تمثال الحرية قط. اعتقدت أن الوقت قد حان، لذا ذات يوم دفعتك إلى السيارة، وتوجهنا إلى نيويورك. لا أتذكر أين كانت الفتاتان في ذلك الصباح، لكنني واثقة من أننا كنا نحن الاثنين فقط.
- فقط نحن الاثنين. والسيدة شتاين، لا أذكر اسمها بدقة، وابنيها. التقينا بهم عندما وصلنا إلى هناك.
- دوريس سابرشتاين، صديقتي القديمة من برونكس. كان لديها ولدان بمثل عُمرك. صعلوكان صغيران وفقَ الأصول، زوج من الهنود الحمر.
- مجرد طفلين عاديين. وهما اللذان تسبَّبا في الخلاف.
- أيُّ خلاف؟
- أنتِ لا تتذكرين هذا الجزء، أليس كذلك؟
- بلى. أتذكر فقط ما حدث لاحقًا. كل شيء آخر.
- لقد جعلتِني أرتدي ذاك البنطال القصير المريع مع جوارب الركبة البيضاء. كنتِ تختارين ملابسي دومًا كلما خرجنا، وقد كرهت ذلك. أحسستُ وكأنني شاذ في تلك الملابس، لورد صغير في زيِّه الكامل. كانت سيئةً بما فيه الكفاية على النزهات العائلية، لكن فكرة الظهور بهذه الطريقة أمام ابني السيدة سابرشتاين كانت لا تحتمل بالنسبة لي.
- لكنك بدوت مثل ملاك في هذا الزي.
- ربما، لكنني لم أرغب في أن أبْدو مثل الملاك. أردتُّ أن أبدو مثل صبي أميركي عادي. لقد توسَّلت لارتداء شيء آخرَ لكنكِ رفضتِّ التزحزح. قلتِ: «زيارة تمثال الحرية ليست مثل اللعب في الفناء الخلفي. إنه رمز بلدنا، وعلينا أن نظهر له الاحترام المناسب». وحتى في ذلك الوقت، لم تفلتني المُفارقة الساخرة للموقف. ها نحن على

وشك تكريم مفهوم الحرية، وأنا مقيدٌ بالسلاسل. لقد عشتُ في ظل ديكتاتورية مطلقة، ما حييتُ أتذكر أن حقوقي تعرَّضت للدهْس بالأقدام. حاولت توضيح أمر الولدين الآخرين، لكنك لم تنصتي لي. «هذا هراء»، قلتِ، «سوف يرتدون أفخر ثيابهم أيضًا». لقد كنتِ واثقةً جدًّا من نفسك، وأخيرًا استجمعت شجاعتي وعرضت عقد صفقة معكِ. قلتُ: حسنًا، سأرتدي الملابس اليوم، ولكن إذا كان الأولاد الآخرون يرتدون سراويل بحمالتين وأحذية رياضية، فهي المرَّة الأخيرة التي سأفعلها. من الآن فصاعدًا، ستعطيني الإذن لارتداء ما أريد.

- وهل وافقتُ على ذلك؟ هل سمحتُ لنفسي بالمساومة مع ذي ست سنوات؟

- كنتِ تضحكين عليّ فقط. لم يخطر حتى ببالك احتمال خسارة الرهان. ولكن يا للعجب! عندما وصلت السيدة سابرشتاين مع ولديها إلى تمثال الحرية، كانت ملابس الأولاد كما توقعت تمامًا. وبهذه الطريقة، أصبحتُ سيد خزانة ملابسي. كان ذلك أول انتصار كبير في حياتي. شعرت كما لو أنني سجلت نقطةً لصالح الديموقراطية، كما لو كنت قد نهضت باسْم الشعوب المظلومة في كافة أنحاء العالم.

قالت فاني: «الآن أعرف لِمَ أنتَ متحيز للجينز الأزرق. لقد اكتشفتَ مبدأ تقرير المصير، ومنذ تلك المرحلة عقدتَّ العزم على أن تكون خزانة ملابس سيئة لبقية حياتك».

قال ساكس: «بالضبط، لقد فزتُ بالحق بأن أكون القذِر، وهأنذا أحمل الوسام بفخر منذ ذلك الحين».

واصلتِ السيدة ساكس، بفارغ صبرٍ لمواصلة القصة: «وبعد ذلك، بدأنا في الصعود».

أضاف ابنها: «السلم الحلزوني. وجدنا الدرجات وبدأنا في الصعود».

قالت السيدة ساكس: «لم يكنِ الأمر سيئًا في البداية. تركت ودوريس الأولاد يمضون قبلنا، وصعدنا السلالم على رسْلنا، ممسكتين بالدرابزين. وصلنا إلى التاج، وتطلعنا إلى المرفأ لبضع دقائق، وكل شيء كان على ما يُرام نوعًا ما. ظننتُ المسألة ستنتهي هنا، وأننا سنبدأ حينها طريقَ النزول ونذهب لشراء الآيس كريم من مكان ما. بيْدَ أنهم مازالوا يسمحون بالدخول إلى الشعلة في تلك الأيام، ما يعني صعود درج آخرَ عبر ذراع الآنسة باتل آكس[1]. كان الأولاد مهووسين بالصعود إلى هناك. ظلوا يصرخون ويتأفَّفون بشأن رغبتهم في رؤية كل شيء؛ لذا استسلمنا أنا ودوريس لهم. وكما تبيّن، لم يكنْ لهذا الدرج درابزين كالآخر؛ كان الأضيق، أضيق مجموعة صغيرة من الدرجات الحديدية التي رأيتها على الإطلاق وأكثرها التواءً، يشبه العمودَ الذي ينحدر عليه الإطفائيون ولكن بنتوءاتٍ تغطيه، وعندما تنظر عبر الذراع، شعُرْتَ بأنك على ارتفاع خمسمائة كيلومترٍ في السماء. الفراغ المحْض يحيط بك، خواء سماوي عظيم. اندفع الأولاد إلى الشعلة بأنفسهم، ولكنني ما إن قطعت ثلثي الطريق صعودًا أدركت أنني لن أنجح. لطالما رأيتُ نفسي صلبة. لم أكن من أولئك النساء المهسترات اللائي يصرخن كلما رأين فأرًا. كنت امرأة قوية ومتواضعة ذات خبرة بالأمور، لكن ما إن وقفت على تلك السلالم في ذلك اليوم، صرت ضعيفةً تمامًا، خفت، صرت أتفصَّد عرقًا، وتخيلت أني سوف أتقيأ. حينها، لم تكن دوريس في حالة جيدة أيضًا؛ لذا جلس كلٌّ منّا على إحدى العتبات، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تهدئة أعصابنا. ساعدنا ذلك نوعًا ما، ليس كثيرًا، فمع أن مؤخرتي مزروعة على شيء صلب، مازلت أشعر أنني على وشك أن أهوي، أن أجدَ نفسي في أي لحظة مندفعةً يسبقني رأسي إلى القاع. تلك كانت أسوأ نوبة ذعرٍ شعرت بها في

(1) تشبيهٌ للتمثال بشخصية كارتونية مريعة. (المترجم)

حياتي. لقد أعيدت تسويتي بالكامل؛ صارَ قلبي في حلقي، ورأسي في يدي، ومعدتي في قدمي. شعرت بالخوف الشديد على بنيامين لدرجة أنني بدأت أصرخ عليه لينزل. كان الوضع بشعًا. صدى صوتي يتردَّد في تمثال الحرية مثل صيحات الأرواح المعذبة. أخيرًا غادر الأولاد الشعلة، ثمَّ نزلنا جميعًا في وضع الجلوس، خطوة واحدة في كل مرَّة. حاولت أنا ودوريس صنعَ لعبة للأولاد، متظاهرين أنها طريقة ممتعة للتنقل. لا شيء سيجعلني أقف على تلك السلالم مرة أخرى. أؤثر القفزَ على السماح لنفسي بفعل ذلك. لا بد أنَّ الأمر استغرقنا نصف ساعة للوصول إلى الأرض مرة أخرى، وبحلول ذلك الوقت كنت حطامًا، لطخة من اللحم والعظم. قضيتُ وبنجي تلك الليلة مع عائلة سابرشتاين في جراند كونكورس، ومنذ ذلك الحين صار لديَّ خوف مميت من الأماكن المرتفعة. أفضِّل أن أموت على أن تطأ قدماي طائرة، وما إن أتخطى الطابق الثالث أو الرابع من أي مبنى يتحول جوفي إلى جيلو. هل يسرُّكم ذلك؟ كل شيء بدأ في ذلك اليوم عندما كان بنيامين صبيًّا صغيرًا، يتسلق شعلة تمثال الحرية».

«كان هذا أولَ درس لي في النظرية السياسية» قال ساكس، وهو يوجه عينيه بعيدًا عن والدته لينظر إليّ وإلى فاني: «تعلمت أن الحرية يمكن أن تكون خطيرة. إذا لم تنتبه، قد تقتلك».

لا أنوي صنعَ الكثير من هذه القصة، لكن في نفس الوقت لا أعتقد أنه ينبغي إهمالها تمامًا. فهي بحدِّ ذاتها ليست أكثرَ من حادثٍ عرضي بسيط، شيء من الفولكلور العائلي، وقد روتها السيدةُ ساكس بما يكفي من الفكاهة والسخرية من الذات للتخلص- إلى حد ما- من آثارها المرعبة. ضحكنا جميعًا عندما انتهت، ثمَّ انتقل الحديث إلى شيء آخر.

لولا روايةُ ساكس (الكتاب نفسه الذي حمله عبر الثلج إلى جلسة قراءتنا الملغاة في عام 1975) لكنتُ نسيت كل شيء عنها. لكن نظرًا لأن هذا الكتاب

معبّأ بالإشارات لتمثال الحرية، فمن الصعب تجاهلُ احتمال وجود علاقة، كما لو أنَّ تجربة الطفولة المتمثلة في مشاهدة ذعر والدته كمنت بطريقةٍ ما في صميم ما كتبه كرجل ناضج بعدَ عشرين عامًا. سألته عن ذلك أثناء عودتنا إلى المدينة في تلك الليلة، لكن ساكس لم يزدْ على الضحك جوابًا لسؤالي. قال إنه لم يتذكر ذلك الجزءَ من القصة أصلًا. بعد ذلك، نفى الموضوع بشكل حاسم، وانطلق في نقد هزليٍّ لمَعايب التحليل النفسي. في النهاية، لا شيء من ذلك يهم. فقط لأن ساكس أنكر العلاقة لا يعني أنها لم تكن موجودة. لا أحد يستطيع أن يقول من أين تأتي مادة الكتاب، لا سيما الشخص الذي يكتبه. تولد الكتبُ من الجهل، وإذا استمرت في العيش بعد كتابتها فذلك عائد إلى درجة صعوبة فهمها.

«التمثال الجديد» هي الروايةُ الوحيدة التي نشرها ساكس على الإطلاق. وهي أيضًا أولُ قطعة أدبية قرأتها له، ولا شك في أنها لعبت دورًا مهمًّا في إطلاق صداقتنا على أرض الواقع. الإعجاب بساكس شخصيًّا سبب أساس، ولكن عندما اكتشفت أني معجَب بنتاجه أيضًا أصبحت أكثرَ حرصًا على معرفته، وأكثرَ استعدادًا لرؤيته والتحدث إليه مرة أخرى. هذا يميزه على الفور عن جميع الأشخاص الآخرين الذين قابلتهم منذ عودتي إلى أميركا. اكتشفت أنه كان أكثر من مجرَّد رفيق محتمَل للشرب، أكثر من مجرد أحد معارفي العابرين. بعد ساعة من فتح رواية ساكس قبل خمسة عشَر عامًا، أدركت أنه من الممكن أن نصبح أصدقاء.

لقد أمضيت الصباح للتَّو في تقليبها مجددًا(توجد عدةُ نسخ هنا في الكوخ)، وأنا مندهش من ندرة التغير في مشاعري تجاهَها. لا أظن أن عليَّ قولَ المزيد. الرواية لا تزال حية، إنها متوفرة في المكتبات ومتاجر بيع الكتب، وكل مَن يرغب بقراءتها يمكنه القيامُ بذلك دون عناء. صدرت في غلاف ورقي بعد شهرين من لقائي بساكس لأول مرَّة، ومنذ ذلك الحين ظلت

تطبَع في الغالب، وتتمتَّع بحياة هادئة ولكنها صحية على هوامش الأدب الحديث، كراسة مجنونة تتمسّك ببقعة صغيرة على الرَّف. في المرة الأولى التي قرأتها فيه مضيت فيها ببرود، على أي حال، بعد الاستماع إلى ساكس في الحانة، افترضتُ أنه كتب روايةً أولى تقليدية، واحدة من تلك المحاولات المبطَّنة لوضع قصة حياته الخاصة في إطار متخيل. لم أكن لأتحامل عليه لهذا السبب، لكنه تحدث باستخفاف شديدٍ عن الرواية لدرجة أني ظننتُ أن عليَّ الاستعداد لنوعٍ من الخيبة. أهداني نسخة موقعة في ذلك اليوم في الحانة، الأمرُ الوحيد الذي لاحظته حينها أنها كانت كبيرة؛ كتاب يتجاوز أربعمائة صفحة. بدأت في قراءتها بعد ظهر اليوم التالي، ممددًا على السرير بعد شرب ستة فناجين من القهوة لقتل أثر الإسراف في الشراب في يوم السبت. كما حذَّرني ساكس، كان كتابًا لشاب، ولكن ليس بأيٍّ من الطرق التي كنت أتوقعها. لم يكن للتمثال الجديد أيُّ علاقة بالستينيات، ولا صلة بفيتنام أو بالحركة المناهضة للحرب، ولا لإشارة بها عن الأشهر السبعة عشَر التي قضاها في السجن. بحثي عن هذه الأمور نابعٌ من إفلاس الخيال من جانبي. كانت فكرة السجن مروعةً بالنسبة لي، لم أستطع أن أتخيل كيف لشخص كان هناك ألّا يتمكن من الكتابة عنها. مكتبة سُر مَن قرأ

كما يعرف كل قارئ، فإنَّ «التمثال الجديد» رواية تاريخية، وهي كتاب جرى بحث مادته بدقة، وأحداثُه تقع في أميركا بين عامي 1876 و 1890، وتستند إلى حقائق موثقة يمكن التحققُ منها. معظم الشخصيات هم أشخاص عاشوا بالفعل في ذلك الوقت، وحتى عندما تكون الشخصيات خيالية فهي ليست اختراعات بقدر ما هي استعارات، وشخصيات مسروقة من صفحات روايات أخرى. خلاف ذلك، فإن جميع الأحداث صحيحة؛ بمعنى أنها تتبع السجل التاريخي، وفي تلك الأماكن التي لا يكون فيها السجل واضحًا لا يوجد أيُّ تلاعب بقوانين الاحتمالات. صُنع كل شيء ليبدو معقولًا، وفي واقع الأمر، يكاد يكون مبتذلًا في دقة تصويره. ومع

ذلك، فإنَّ ساكس يفاجئ القارئ باستمرار، ويمزج بين العديد من الأنواع الأدبية والأساليب ليخبر قصته، بحيث تبدو الرواية أشبه بآلة «بينبول»، بدعة خلابة بأضواء وامضة وثمانية وتسعين مؤثرًا صوتيًّا مختلفًا. من فصل إلى فصل، ينتقل من السرد التقليدي بضمير الغائب إلى إدخالات مذكرات الشخص المتكلم والرسائل، من المخططات الزمنية إلى الحكايات الصغيرة، ومن المواد الصحافية إلى المقالات إلى الحوارات الدرامية. إنه أداء عاصف، سباق ماراثون من السطر الأول إلى الأخير، ومهما كان رأيك في الرواية ككل، من المستحيل عدمُ احترام طاقة المؤلف، والجهد غير المحدود لهمَّته.

من بين الشخصيات التي ظهرت في الرواية إيما لازاروس، وسيتنج بول، ورالف والدو إيمرسون، وجوزيف بوليتزر، وبوفالو بيل كودي، وأوغست بارتولدي، وكاثرين ويلدون، وروز هوثورن (ابنة ناثانييل)، وإليري تشانينج، ووالت ويتمان، ووليام تيكومسيه شيرمان. (راسكالنيكوف موجود أيضًا مباشرة من خاتمة «الجريمة والعقاب»؛ أُطلق سراحه من السجن ووصل حديثًا مهاجرًا إلى الولايات المتحدة، حيث غيّر اسمه إلى روسكين)، وكذلك هاكلبيري فين هائمٌ على وجهه في منتصف العمر ليصادق روسكين، وإسماعيل من «موبي دك» الذي كان له دورٌ قصير كنادلٍ في نيويورك.

تبدأ «التمثال الجديد» في الذكرى المئوية لأميركا وتشق طريقها عبر الأحداث الكبرى في العقد ونصف العقد التاليين: هزيمة كستر في معركة ليتل بيقهورن، وبناء تمثال الحرية، والإضراب العام لعام 1877، ونزوح اليهود الروس إلى أميركا في عام 1881، واختراع الهاتف، وأعمال الشغب في هايماركت في شيكاغو، وانتشار ديانة رقصة الأشباح في محمية سيوكس، ومذبحة إقليم الركبة الجريحة. لكن الأحداث الصغيرة جرى تسجيلها أيضًا، وهي أخيرًا ما تعطي الرواية حبكتها، وتحوِّلها إلى شيء أكثر من مجرد

أحجية من الحقائق التاريخية. الفصل الافتتاحي خيرُ مثال على ذلك. تذهب إيما لازاروس إلى مدينة كونكورد، في ماساتشوستس، وتحل ضيفةً في منزل إيمرسون. أثناء وجودها هناك، تتعرف على إليري تشانينج، الذي يرافقها في زيارة إلى بحيرة والدن ويتحدث عن صداقته مع ثورو (في ذلك الوقت يكون قد مضى على وفاته أربعة عشر عامًا) ينجذب الاثنان إلى بعضهما البعض ويصبحان صديقين، وهو نوع آخرُ من تلك المقارنات الغريبة التي كان ساكس مغرمًا بها: أشيب من نيو إنجلند وشاعرة يهودية شابة قادمة من شارع أصحاب الملايين في نيويورك. في لقائهما الأخير، سلَّمها تشانينج هدية، أخبرها ألا تفتحها حتى تركب قطار العودة إلى موطنها. عندما تفك غلافَ الطرد تجد نسخة من كتاب تشانينج عن ثورو، إلى جانب إحدى القطع الأثرية التي كان الرجل العجوز يدّخرها منذ وفاة صديقه: بوصلة جيب تخص ثورو. تلك لحظة جميلة، تعامل معها ساكس بحساسية شديدة، وهي تزرع صورة رئيسة في ذهن القارئ تتكرر بعدة أشكال في أنحاء الرواية. على الرغم من أن الرسالة لا تُقال في كثير من الكلمات، لا يسعها أن تكون أكثر سطوعًا: أميركا ضلّت طريقها. وثورو هو الرجل الوحيد الذي يمكنه قراءة البوصلة لنا، والآن بعد أن رحلَ ليس لدينا أملٌ في العثور على أنفسنا مرة أخرى.

ثمة قصةٌ غريبة لكاثرين ويلدون؛ المرأة التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى من بروكلين، ثمَّ تنتقل إلى الغرب لتصبح واحدةً من زوجات سيتنج بول. هناك حكاية مضحكة تتعلق بجولة الدوق الروسي الكبير أليكسيس في الولايات المتحدة بغرض صيد الجاموس مع بيل كودي، حيث كان يسافر عبرَ نهر المسيسيبي مع الجنرال جورج أرمسترونج كستر وزوجته. هناك الجنرال شيرمان، الذي يكرم اسمه الأوسط محاربًا هنديًّا، يحصل على موعد في عام 1876 (بعد شهر واحد فقط من معركة كستر الأخير (لتولي السيطرة العسكرية على جميع المحميات في إقليم سيوكس ومعاملة الهنود هناك كأسرى حرب، وبعد ذلك بعام، تلقى تعيينًا آخر من اللجنة الأمريكية لتمثال الحرية؛

لتقرير ما إذا كان التمثال يجب أن يقام في جزيرة جوفرنر أو جزيرة بيدلو. ثمَّ هناك إيما لازاروس، التي تحتضر بسبب السرطان في سن السابعة والثلاثين، وتعتني بها صديقتها روز هوثورن، التي تغيرت بسبب التجربة إلى حد أنها تحولت إلى الكاثوليكية، وانضمت إلى رهبنة دير سانت دومينيك تحت اسم الأخت ألفونسا، وكرست السنوات الثلاثين الأخيرة من حياتها لرعاية المرضى الميئوس من شفائهم. هناك العشرات من هذه الأحداث في الرواية. كلها صحيحة، وكلها متجذرة في الواقع، ومع ذلك فإن ساكس يُوائمهم معًا بطريقة تجعلهم أكثر أسطورية بشكل مطرد، كما لو كان يصوّر كابوسًا أو هلوسة. مع تقدم الرواية، تكتسب سمة غير مستقرة أكثر فأكثر، مليئة بالارتباطات والانفصالات غير المتوقعة، والتي تتميز بالتحولات السريعة بشكل متزايد في النغمة، حتى تصل إلى نقطة تشعر فيها أن كل شيء يبدأ في السخونة، والارتفاع بشكل كبير عن الأرض مثل بعض بالون الطقس العملاق. بحلول الفصل الأخير، تكون قد ارتفعت عاليًا في الهواء، لتدرك أنه لا يمكنك النزول مرة أخرى دون أن تسقط، دون أن تسحق.

مع ذلك، هناك عيوب واضحة. على الرغم من أن ساكس يعمل بجدٍّ لإخفائها، هناك أوقات تشعر فيها بأن الرواية تبالغ في حبكتها، وميكانيكية للغاية في تنسيقها للأحداث، ونادرًا ما تبعث الحياة في أي من الشخصيات بشكل كامل. في منتصف قراءتي الأولى لها، أتذكر أنني قلت لنفسي إن ساكس مفكرٌ أكثر منه فنانًا، وغالبًا ما أزعجني هذا الافتقار للبراعة؛ للطريقة التي ظل يرسخ بها آراءه، ويتلاعب بشخصياته للتأكيد على أفكاره بدلًا من السماح لها بإدارة الأحداث بأنفسها. ومع ذلك، على الرغم من حقيقة أنه لم يكن يكتب عن نفسه، فقد فهمت إلى أي مدًى كان الكتاب شخصيًّا بالنسبة له. العاطفة السائدة هي الغضب؛ الغضب الشامل الممزِّق الذي يتصاعد في كل صفحة تقريبًا: الغضب ضد أميركا، الغضب ضد النفاق السياسي، الغضب كسلاح لتدمير الأساطير الوطنية. لكن بالنظر إلى أن الحرب في

فيتنام كانت لا تزال تدور رحاها في ذلك الوقت، وبالنظر إلى أن ساكس قد ذهب إلى السجن بسبب تلك الحرب، لم يكن من الصعب أن نفهم من أين أتى غضبه. لقد أعطت الكتاب نبرة جدلية حادة، لكنني أرى أيضًا أنها كانت سرَّ قوته؛ المحرك الذي دفع الكتاب إلى الأمام وجعلك ترغب في الاستمرار في قراءته. كان ساكس في الثالثة والعشرين من عمره فقط عندما شرع في «التمثال الجديد»، وتمسك بالمشروع لمدة خمس سنوات، كتب خلالها سبع أو ثماني مسوّدات. بلغت النسخة المنشورة أربعمائة وستة وثلاثين صفحة، قرأتُها جميعًا بحلول الوقت الذي نمت فيه ليلة الثلاثاء. مهما كانت تحفظاتي فقد تقزّمت أمام إعجابي بما أنجزه. عندما عدتُّ إلى المنزل من العمل بعد ظهر الأربعاء، جلستُ على الفور وكتبت له رسالة. قلت له إنه كتب رواية رائعة. في أي وقت يريد فيه مشاركة زجاجة أخرى من البوربون معي، يشرفني أن أقابله كأسًا بكأس.

***

بدأنا في لقاء بعضنا البعض بانتظام بعد ذلك. لم يكن لدى ساكس وظيفة، وهذا جعله متاحًا أكثر من معظم الأشخاص الذين أعرفهم، وأكثر مرونة في روتينه. تميل الحياة الاجتماعية في نيويورك إلى الجمود. يمكن أن يستغرق عشاء بسيطٌ أسابيع من التخطيط المسبق، ويمكن أن يمضي أفضل الأصدقاء أحيانًا شهورًا دون أي اتصال على الإطلاق. لكن مع ساكس، كانت الاجتماعات المرتجلة هي القاعدة. كان يعمل عندما تحركه الروحية (غالبًا في وقت متأخر من الليل)، ويقضي بقية الوقت بالتجول بحرّية. يجوب شوارع المدينة مثل متبطلي القرن التاسع عشر، إلى أينما تقوده قدماه: إلى المتاحف والمعارض الفنية، يشاهد الأفلام في منتصف النهار، يقرأ الكتب على مقاعد المنتزه. لم يكن مدينًا للساعة كما هو الحال مع الآخرين، ونتيجة لذلك لم يشعر أبدًا كما لو كان يضيع وقته. هذا لا يعني أنه لم يكن منتجًا،

لكن الجدار الفاصل بين العمل والكسل قد تهاوى لديه إلى درجة أنه لم يعد يلحظ وجوده. هذا ما ساعده ككاتب، كما أظنُّ لأنَّ أفضل أفكاره كانت تأتي إليه دومًا وهو بعيدٌ عن مكتبه. بهذا المعنى- إذًا- فكل شيء يفعله يقع في خانة العمل بالنسبة له؛ الأكل كان عملًا، ومشاهدة مباريات كرة السلة كان عملًا، والجلوس مع صديق في حانة في منتصف الليل كان عملًا. على الرغم من المظاهر، بالكاد هناك لحظة لم يكن فيها في العمل.

لم تعد أوقات فراغي متاحةً كما كانت عليه. كنت قد عدتُّ من باريس في الصيف الماضي بتسعة دولارات في جيبي، وبدلًا من أن أطلب قرضًا من والدي (والذي ربما لن يُقدِم على منحي إياه على أي حال)، اقتنصتُ أول وظيفة عُرضت عليّ. بحلول الوقت الذي التقيت فيه بساكس، كنت أعمل لدى تاجر كتبٍ نادرة في شمال الجانب الشرقي، جالسًا أغلب الوقت في الغرفة الخلفية من المتجر أكتب القراءات وأردُّ على الرسائل. كنت أذهب كل صباح في التاسعة وأخرج في الساعة الواحدة. في فترة ما بعد الظهيرة، مارستُ الترجمة في المنزل على عمل عن تاريخ الصين الحديثة لصحفي فرنسي كان متمركزًا في بكين؛ كتاب رديء يتطلب جهدًا أكبرَ مما يستحق. كان أملي أن أترك العمل مع تاجر الكتب وأبدأ في كسب لقمة عيشي كمترجم، لكن مازال من غير الواضح ما إذا كانت خطتي ستنجح. في غضون ذلك، كنت أقوم- أيضًا- بكتابة القصص وإجراء مراجعات للكتب من حين لآخر، وفي هذا الخضم، لم أكن أحصلُ على قدرٍ كاف من النوم. ومع ذلك، فقد رأيت ساكس أكثر مما هو ممكنٌ في الوقت الراهن، إذا أخذنا الظروف بعين الاعتبار. إحدى المزايا عيشُنا في نفس الحي، وشُققنا على مسافة قريبة؛ أدَّى ذلك إلى عدد غير قليل من الاجتماعات، في وقت متأخر من الليل في الحانات على طول برودواي، وبعد ذلك، بعد أن اكتشفنا شغفًا متبادلًا بالرياضة، بعد الظهر في عطلات نهاية الأسبوع أيضًا، نظرًا لأن المباريات الكرة كانت دائمًا

في تلك الأماكن، ولأن أيًّا منّا لا يمتلك جهاز تلفاز. وما هي إلا أن بدأتُ أرى ساكس مرتين في الأسبوع في المتوسط، أكثر مما كنت أرى سواه.

بعد فترة وجيزة من بدْء هذه اللقاءات، عرّفني إلى زوجته. آنذاك كانت فاني طالبة دراسات عليا في قسم تاريخ الفن في جامعة كولومبيا، تقدّم دورات في الدراسات العامة، وتُعدُّ أطروحتها حول رسومات المناظر الطبيعية الأميركية في القرن التاسع عشر. التقت بساكس في جامعة ويسكونسن قبل ذلك بعشر سنوات، اصطدما ببعضهما البعض حرفيًّا في مسيرة سلام جرى تنظيمُها في الحرم الجامعي. بحلول الوقت الذي قبض فيه على ساكس في ربيع عام 1967، كان قد مضى على زواجهما ما يقرب من عام. كانا يعيشان في منزل والدي بن في كنعان الجديدة خلال فترة المحاكمة، وبمجرد صدور الحكم وإرسال بن إلى السجن أوائل عام 1968، عادت فاني إلى شقة والديها في بروكلين. في مرحلة ما خلال هذا كله، تقدمتْ بطلب إلى برنامج الدراسات العليا في كولومبيا وجرى قبولها بزمالة أعضاء هيئة التدريس التي تضمنت تدريبًا مجانيًّا، وراتبَ معيشة يبلغ عدة آلاف من الدولارات، ومسئولية تدريس فصلين دراسيَّين. أمضت بقية ذلك الصيف تعمل مؤقتًا في مكتبٍ في مانهاتن، ووجدت شقة صغيرة في شارع 112 غرب مانهاتن في أواخر آب، ثمَّ بدأت الدراسة في أيلول، وطوال الوقت تسافر إلى دانبري كلَّ يوم أحد في القطار لزيارة بن. أنوّه بهذه الأشياء الآن لأنني صادفتها عدة مرات خلال تلك السنة دون أن يكون لدي أدنى فكرة عن هويتها. كنت لا أزال طالبًا جامعيًّا في كولومبيا آنذاك، وكانت شقتي على بعد خمسة شوارع فقط من منزلها، في شارع 107 غرب. ولحسن الحظ، كان اثنان من أصدقائي المقربين يعيشان في بنايتها، وفي العديد من زياراتي صادفتُها بالفعل في المصعد أو في ردهة الطابق السفلي. أبعد من ذلك، كانت هناك أوقات رأيتها فيها تمشي على طول برودواي، ووجدتها أحيانًا تقف أمامي عند منضدة متجر السجائر المخفضة، وعندما ألمحها عند دخولها مبنًى في الحرم الجامعي.

حتى أننا في الربيع، كنا في فصل دراسي معًا؛ في محاضرة كبيرة حول تاريخ الجماليات ألقاها أستاذ في قسم الفلسفة. لاحظتها في كل هذه الأماكن لأني وجدتها جذابة، لكنني لم أستطع أبدًا حشد الشجاعة للتحدث معها.

أناقتها مهيبة، جودةٌ تمنع الغرباء من الاقتراب منها. يتراءى لي أنَّ خاتم الزواج على يدها اليسرى مسئولٌ جزئيًّا، ولكن حتى لو كانت عزباء، لست متأكدًا من وجود أي فرق. ومع ذلك، بذلت مجهودًا واعيًا للجلوس خلفها في فصل الفلسفة ذاك، حتى أتمكن من قضاء ساعة كل أسبوع في مشاهدتها من زاوية عيني. ابتسمنا لبعضنا البعض مرة أو مرتين أثناء مغادرتنا قاعة المحاضرات، لكنني كنت خجولًا لدرجة أنني لم أتمكن من دفعها إلى أبعد من ذلك. عندما قدمني ساكس أخيرًا إليها في عام 1975، تعرفنا على بعضنا البعض على الفور. لقد كانت تجربة مقلقة، واستغرقني الأمر عدةَ دقائق لاستعادة رباطة جأشي. فجأةً حُلّ لغزٌ من الماضي. ساكس هو الزوج المفقود للمرأة التي تطلعت إليها باهتمام شديد قبل ست أو سبع سنوات. لو أنّي بقيت في الحي، فمن شبه المؤكد أنني كنت سأراه بعد إطلاق سراحه من السجن، لكنني تخرجت من الكلية في حزيران، ولم يعد ساكس إلى نيويورك حتى آب. بحلول ذلك الوقت، كنت قد غادرت بالفعل شقتي ومضيتُ في طريقي إلى أوروبا.

ما من شكٍّ أنه كان زواجًا غريبًا. بكل الطرق التي يمكنني التفكير فيها تقريبًا، بدَا أنَّ بن وفاني موجودان في عوالم خاصَّة غير متقاطعة. بن طويلُ الذراعين والساقين، مجموعة منتصبة من الزوايا الحادَّة والنتوءات العظمية، بينما فاني قصيرةٌ ومكتنزة، ولها وجه ناعم وبشرة زيتية. بالمقارنة كان بن ضاربًا إلى الحُمرة، بشعرٍ مجعد أشعث وبشرة تلتهب بسهولة تحت الشمس. شَغَل مساحة كبيرة، وبدا أنه يتحرك باستمرار، ويغير تعابيرَ وجهه كلَّ خمس أو ست ثوان، في حين كانت فاني متَّزنة، كثيرة الجلوس، شبيهة بالقطط التي عَمَرت

بها جسدها. لم أرها جميلة بقدر ما رأيتها غريبة. لديها القدرة على الإبهار .. نفحةٌ من الاكتفاء الذاتي تجعلك راغبًا في مشاهدتها، حتى عندما تجلس دون أن تفعل شيئًا. لم تكن ذاتَ دعابة بالطريقة التي يمكن أن يكون بها بن، لم تكن سريعة في الحديث، ولم تثرثر؛ ومع ذلك، شعرتُ دائمًا أنها الأكثر فصاحة بين الاثنين، والأشد ذكاءً، ومَن تحظى بالقدرات التحليلية الأكبر. كان عقل بن يقوم على الحدس، يمتاز بالجرأة ولكنه ليس أريبًا بشكل خاص، ذهنًا يحب المجازفة، والقفز إلى الإظلام، ولإجراء روابط غير محتملة. على النقيض، كانت فاني متعمقة وموضوعية، متجلدةً في تأنّيها، ولا تميل إلى إطلاق أحكام سريعة أو ملاحظات لا أساس لها. كانت باحثة، وكان رجلًا حكيمًا. كانت أبا الهول، وكان جرحًا مفتوحًا. فاني أرستقراطية وساكس الشعب. كان الوجودُ معهما أشبه بمشاهدة زواج بين نمر وكنغر. فاني- التي ترتدي دائمًا ملابس رائعة وأنيقة- تمشي جنبًا إلى جنب مع رجُل أطولَ منها بثلاثين سنتيمترًا تقريبًا؛ طفل كبير الحجم يرتدي حذاء كونفيرس رياضيًّا أسود، وبنطالَ جينز أزرق، وكنزة رمادية بقلنسوة. النظرة العابرة تشي أنَّ علاقتهما غير منطقية. قد تراهما معًا فيكون ردُّ فعلك الأول الاعتقاد بأنهما غرباء.

إلا إنَّ ذلك ظاهريٌّ فقط. تحت حماقته البادية، كان لدى ساكس فهمٌ استثنائيٌّ للنساء. لا فاني فقط؛ بل كافة النساء اللواتي قابلهنَّ تقريبًا، ومرة بعد أخرى فوجئت بمدى انجذابهنَّ إليه بشكل طبيعي. لعل النشأة مع ثلاثِ أخوات علاقة ما بالأمر، كما لو أنَّ العلاقات الحميمة التي تعلمها في الطفولة قد أشربتْه ببعض المعرفة الخفية، بطريقٍ إلى الأسرار الأنثوية يقضي الرجال الآخرون حياتهم كلها في محاولة اكتشافه. مرّت فاني بلحظات صعبة، ولا أتصور أنها كانت شخصًا يسهل العيش معه. غالبًا ما كان هدوؤها الخارجي قناعًا للاضطراب الداخلي، وفي عدة مناسبات رأيت بنفسي مدى السرعة التي يمكن أن تسقط بها في حالة مزاجية كئيبة ومظلمة، ليغلب عليها بعض الكرْب الذي لا يمكن تحديده، والذي من شأنه أن يدفعها فجأة إلى البكاء.

قام ساكس بحمايتها في تلك الأوقات، فتعامل معها بحنان وتقدير يمكن أن يكونا مؤثرين للغاية، وأعتقدُ أن فاني اعتادتِ التعويل عليه في أنه لا يوجد أحد قادر على فهمها بعمق كما فعل. في كثير من الأحيان، جرى التعبير عن هذا التعاطف بشكل غيرِ مباشر، بلغةٍ لا يستطيع الغرباء اختراقَها. في المرة الأولى التي زرت فيها شقتهما، على سبيل المثال، كانت محادثة العشاء تدور حول موضوع الأطفال؛ ما إذا كان لديهم أطفال أم لا، وعن الوقت المناسب للإنجاب في حال الرغبة في ذلك، وطبيعة التغييرات التي يجلبونها معهم، وما إلى ذلك. أتذكر أنني تحدثت بقوة لصالح وجودهم. من ناحية أخرى، دخل ساكس في حديثٍ سخيف حول سبب اعتراضه. كانت الحجج التي استخدمها تقليدية إلى حد ما)العالم مكان فظيع للغاية، وتعداد السكان أكبر من اللازم، وسيضيع قدر كبير من الحرية(، لكنه ألقى هذه الحجج بقوة وقناعة لدرجة أنني افترضت أنه كان يتحدث باسْم فاني أيضًا، وأنّ كليهما يعارضان بشدة فكرة الإنجاب. بعد سنوات، اكتشفت أن العكس هو الصحيح؛ لقد أرادا بشدة إنجاب الأطفال، لكن فاني لم تكن قادرة على الحمل. بعد محاولات عديدة لحملها، استشارَا الأطباء، وجرّبَا أدوية الخصوبة، وعددًا من العلاجات العشبية، لكن لم ينجح معهما شيء. قبل أيام قليلة من ذلك العشاء في عام 1975، أُعطيا رأيًا قاطعًا مَفاده أن ما فعلاه لن يساعد أبدًا. كانت تلك ضربة ساحقة لفاني. اعترفت لي لاحقًا، بأن ذلك شرُّ أحزانها، خسارة ستتحسر عليها لبقية حياتها. عوضًا عن دفعها للحديث عن الأمر أمامي في ذلك المساء، طبخ ساكس مزيجًا من الأكاذيب العفوية، غلى إبريقًا من البخار والهواء الساخن لإخفاء القضية المطروحة على الطاولة. لم أسمع سوى جزء مما قاله بالفعل، ولكن هذا لأنني اعتقدت أنه كان يخاطبني بملاحظاته، إلا أنَّه كان يتحدث مع فاني طوال الوقت، كما فهمت لاحقًا. كان يخبرها أنه ليسَ عليها أن تمنحه طفلًا حتى يستمر في حبها.

رأيت بن أكثرَ ممّا رأيت فاني، وفي الأوقات التي رأيتها فيها كان بن دائمًا هناك، لكننا شيئًا فشيئًا تمكنّا من تكوين صداقة بمفردنا. بشكلٍ من الأشكال، جعل افتتاني القديم هذا التقارب يبدو حتميًّا، لكنه وقف أيضًا كحاجز بيننا، ومرت عدة أشهر قبل أن أتمكن من النظر إليها دون الشعور بالحرج. كانت فاني من أحلام اليقظة القديمة؛ شبحًا للرغبة السرية المدفونة في ماضيّ، والآن بعد أن تجسدت بشكل غير متوقع في دور جديد؛ امرأة من لحم ودم، وزوجة لصديقي، أعترفُ أنني فقدت التوازن. قادني ذلك لقول بعض الأشياء الغبية عندما قابلتها لأول مرة، وهذه الأخطاء الفادحة زادت من شعوري بالذنب والارتباك. خلال إحدى الأمسيات المبكرة التي قضيتها في شقتهما، أخبرتها أنني لم أنصت إلى كلمة واحدة في الفصل الذي أخذناه معًا.

قلت: «كل أسبوع، كنت أقضي ساعة كاملة أحدق فيك. الممارسة أكثر أهمية من النظرية على أي حال، وقدّرتُ، لماذا أضيع وقتي في الاستماع إلى محاضرات حول الجماليات عندما يكون الجمال جالسًا أمامي مباشرة».

كانت تلك محاولة للاعتذار عن سلوكي السابق، على ما أعتقد، لكن الأمر بدا فظيعًا. لا ينبغي أبدًا قول مثل هذه الأشياء تحت أي ظرف من الظروف، على الأقل بنبرة صوت متقلبة؛ فهي تضع عبئًا ثقيلًا على الشخص الذي تُوجَّه إليه، ولا ينجم عنها أي خير. في اللحظة التي تفوَّهت فيها بتلك الكلمات، استطعت أن أرى فاني تجفل من فظاظتي. اصطنعتِ ابتسامةً صغيرةً قائلةً: «نعم، أتذكر ذاك الفصل. كان جافًا للغاية».

قلت، غيرَ قادرٍ على إيقاف نفسي: «الرجال وحوش، مستثارون على الدوام، ورؤوسهم مكتظة بالقذارة. خصوصًا وهُم صغار السن».

- ليست قذارة؛ إنها الهرمونات.

- تلك أيضًا. ولكن في بعض الأحيان يصعب تمييز الفرق.

- دائمًا ما كانت لك سيماء جادة على وجهك. أتذكّر التفكير بأنك شخص جاد للغاية، أحد أولئك الشباب الذين كانوا إما سيقتلون أنفسهم أو يغيّرون العالم.
- حتى الآن، لم أفعل أيًّا منهما. أخمن أن هذا يعني أنني تخليت عن طموحاتي السالفة.
- وهذا أمر جيد أيضًا. لن تود أن تغرق في الماضي. الحياة ممتعة أكثر من ذلك.

بطريقتها المشفّرة، كانت فاني تحرِّرُني من الخطاف، وتعطيني تحذيرًا في الوقت نفسه. طالما أحسنتُ التصرف، فلن تحاسبني على أخطائي السالفة. لقد جعلتني أشعر كما لو كنت في محاكمة، لكن الحقيقة هي أن لديها كل الأسباب لتكون حذرة من صديق زوجها الجديد، وأنا لا ألومها على إبقائي بعيدًا. عندما تعرفنا على بعضنا البعض بشكل أفضل، بدأ الإحراج يتلاشى. من بين أمور أخرى، اكتشفنا أن لدينا تاريخ الميلاد نفسه، ومع انعدام معرفة أي منا بعلم التنجيم، إلا إنَّ هذا التزامن ساعد في إنشاء رابط بيننا. كانت فاني أكبرَ منّي بسنة، وقد سمح لي ذلك أن أعاملَها باحترام زائف كلما أثير الموضوع، وهي نكتة لم تفشل أبدًا في انتزاع ضحكة من بين شفتيها. ونظرًا لأنها لم تكن شخصًا يضحك بسهولة، فقد اعتبرت ذلك من جانبي علامة تقدُّم. وأهم من ذلك كان عملها؛ حيث أدت مناقشاتي معها حول اللوحات الأميركية المبكرة إلى شغف دائم بفنانين مثل رايدر، وتشيرش، وبليكلوك، وكول؛ الذين بالكاد كنت أعرفهم قبلَ لقاء فاني. قدمتْ أطروحتها بجامعة كولومبيا في خريف عام 1975 (واحدة من أولى الدراسات التي نُشرت عن ألبرت بينكهام رايدر) ثمَّ عُينتْ مساعد قيِّم للفن الأمريكي في متحف بروكلين، حيث واصلت العمل منذ ذلك الحين. بينما أكتب هذه الكلمات الآن (11 تموز)، مازالت لا تعرف ما حدث لـ بن. سافرت في رحلة إلى

أوروبا الشهر الماضي وليس من المقرر أن تعود إلا بعد عيد العمال. أفترض أنه يمكنني الاتصال بها، لكنني لا أرى أي فائدة من ذلك. لا شيء يمكنها فعلُه من أجله في هذه المرحلة بكل معنى الكلمة، وما لم يأت مكتب التحقيقات الفيدرالي بإجابة قبل عودتها فمِن الأفضل أن أحتفظ بها لنفسي. في البداية، فكّرت أنه قد يكون من واجبي الاتصال بها، ولكن الآن بعد أن صار لدي الوقت للتفكير في الأمر، قررت عدم إفساد إجازتها. لقد مرت بما يكفي إلى حد الآن، والهاتف ليس وسيلة مناسبة لإذاعة هذا النوع من الأخبار. سأمتنع حتى تعود، ثمَّ أجلسها وأخبرها بما أعرفه وجهًا لوجه.

بينما أتذكر الأيامَ الأولى للصداقة الآن، يدهشني إعجابي بهما، على حدَةٍ وكزوجيْن. لقد تركت رواية ساكس انطباعًا عميقًا لدي، وبعيدًا عن مجرد الإعجاب به لما هو عليه شعرتُ بالإطراء من الاهتمام الذي أبداه بعملي. كان أكبرَ منّي بسنتين فقط، ومع ذلك، مقارنةً بما أنجزه حتى الآن، شعرت بأني مبتدئ. لقد فاتتني مراجعات «التمثال الجديد»، ولكن بإجماع الآراء، أثارت الرواية قدرًا طيبًا من الحماس. هاجمها بعضُ النقاد، إلى حد كبير، على أسس سياسية، وأدانوا ساكس لما اعتبروه «معاداةً لأميركا» بشكل سافر. لكن كان هناك آخرون أفرطوا في مديحها، ووصفوه بأنه أبرزُ الروائيين الشباب الواعدين الذين ظهروا منذ سنوات. لم يحدث الكثير على الصعيد التجاري (كانت المبيعات متواضعة، فقد استغرق الأمر عامين قبل نشر النسخة الورقية)، ولكن اسمُ ساكس وُضع على الخريطة الأدبية. قد يظن امرؤ أنه كان قرير عينٍ بكل هذا، لكن مما عُرف عنه، ساكس زاهد بشكل ساخط عندما يتعلق الأمر بمثل هذه الأشياء. نادرًا ما تحدَّث عن نفسه بالطريقة التي يتحدث بها الكتاب الآخرون عن أنفسهم، وكان إحساسي أنه ليس لديه اهتمام بمواصلة ما يصفه الناس بأنه «مهنة أدبية». لم يكن دافعه تنافسيًّا، ولم يقلق بشأن سمعته، ولم ينتفخ بخصوص موهبته. من أكثر الأشياء التي جذبتني إليه نقاء طموحاته، والبساطة المطلقة التي تعاطى بها مع عمله؛ التي

وإن جعلته أحيانًا عنيدًا ومشاكسًا؛ لكنها أيضًا منحته الشجاعةَ على فعل ما أراد بالضبط فعله. بعد نجاح روايته الأولى، بدأ على الفور في كتابة رواية جديدة، ولكن بمجرد أن وصل إلى الصفحة المائة، مزَّق المخطوطة وحرقها. قال إن ابتكار القصص خديعة، وعلى نحوٍ غير متوقع قرر التخلي عن الكتابة الخيالية. كان هذا في وقت ما في أواخر عام 1973 أو أوائل عام 1974، قبل حوالي عام من لقائي به. بدأ بعد ذلك في كتابة المقالات، وجميع أنواع الأخبار والمقالات حول مجموعة متنوِّعة لا حصر لها من الموضوعات: السياسة، والأدب، والرياضة، والتاريخ، والثقافة الشعبية، والطعام، وكل ما شعر أنه يرغب في الكتابة عنه في ذلك الأسبوع أو ذلك اليوم. كان عمله مطلوبًا؛ لذا لم يواجه أبدًا صعوبة في العثور على مجلات تنشر أعماله، ولكن كان هناك عشوائية في الطريقة التي تعاطى بها. كتب بنفس الحماس للمجلات الوطنية والنشرات الأدبية الخاملة، وبالكاد لاحظ أن بعض الناشرين دفعوا مبالغ كبيرة من المال مقابل المقالات، والبعض الآخر لم يدفع شيئًا على الإطلاق. لقد رفض العملَ مع وكيلٍ لأنه شعر أن ذلك قد يفسد العمل، وبالتالي كان يكسب أقل بكثير مما ينبغي أن يحصل عليه. جادلتُه حول هذه النقطة لسنواتٍ عديدة، لكن لم يخضع إلا في أوائل الثمانينيات فقام بتوظيف شخص ما للقيام بمفاوضاته نيابةً عنه.

كنتُ دائمًا مندهشًا من السرعة التي يعمل بها، وقدرته على كتابة المقالات تحت ضغط المواعيد النهائية، وإنتاج الكثير دون أن يبدو أنه يَستنفدُ نفسه. كان من اليسير على ساكس أن يكتب عشرَ صفحاتٍ أو اثنتي عشرة صفحة في جلسة واحدة، أن يبدأ وينهي مقالًا كاملًا دون النهوض لمرَّة واحدة عن آلته الكاتبة. كان العمل بالنسبة له بمثابة مسابقة رياضية، وسباق تحمُّلٍ بين جسده وعقله، ولكن نظرًا لأنه كان قادرًا على دفع أفكاره بمثل هذا التركيز، وأن يفكر بوحدةِ هدفٍ كهذه؛ فقد بدتِ الكلمات وكأنها حاضرة دومًا لأجله، كأنه وجد ممرًّا سريًّا يمتدُّ مباشرة من رأسه إلى أطراف أصابعه. كان يطلق

عليها أحيانًا «الكتابة مقابل دولارات»، لكن ذلك لم يكن إلا لأنه لم يستطع مقاومةَ السخرية من نفسه. عمله- برأيي- لم يكن أبدًا أقلَّ من الجيد، وفي كثيرٍ من الأحيان كان رائعًا. كلما تعرفتُ عليه بشكل أفضل تزيدني إنتاجيتُه رهبة. لطالما كنتُ شخصًا كادحًا؛ شخصًا يتألم ويكافح من أجل كل جملة، وحتى في أفضل أيام حياتي، لا أنجز أكثرَ من سنتيمترات قليلة، وأزحف على بطني مثل رجل تائه في الصحراء. أصغرُ كلمةٍ محاطةٌ بمساحاتٍ وافرةٍ من الصمت بالنسبة لي، وحتى بعد أن أتمكن من وضع كلمةٍ على الصفحة يبدو أنها تجلس هناك كالسراب؛ ذرّةُ شكٍّ تلمع في الرمال. لم يكنِ الولوج إلى اللغة متاحًا لي أبدًا بالطريقة التي كان بها مع ساكس. أنا حبيسٌ عن أفكاري الخاصة، محاصرٌ في خواءٍ بين الشعور والتعبير، وبغضِّ النظر عن جدية محاولتي التعبير عن نفسي، نادرًا ما أمكنني الإتيان بأكثر من تأتأة مرتبكة. لم يواجه ساكس أيًّا من هذه الصعوبات. تتطابق الأسماء والمسمَّيات من أجله، في حين أنها تتفكك معي باستمرار، وتطير في مائة اتجاه مختلف؛ فأقضي معظمَ وقتي في التقاط القطع ولصقها معًا مرة أخرى. لكن ساكس لم يضطر أبدًا إلى التعثر بهذه الطريقة، والتنقيب عن مكبّات النفايات وصناديق القمامة، متسائلًا عمّا إذا كان قد واءم القطع الخطأ بجانب بعضها البعض. كانت شكوكه من نمط مختلف، وأيًّا يكن مدى صعوبة الحياة بالنسبة له في جوانب أخرى فإنَّ الكلمات لم تكن مشكلته أبدًا. كان فعلُ الكتابة خاليًا من العناء بشكل ملحوظ، وعندما يشتغل بتدفقٍ، يمكنه وضعُ الكلمات على الصفحة بالسرعة التي يتكلم بها. تلك موهبة نادرة، ولأن ساكس نفسه لم يكن يدرك ذلك؛ بدَا أنه يعيش في حالة من البراءة الكاملة. وأتخيله أحيانًا مثل طفلٍ كبير يلهو بألعابه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

2

دامتِ المرحلة الأولى من صداقتنا ما يقرُب من عام ونصف. بعد ذلك، في غضون عدَّة أشهر، رحلنا عن جانب الشمالي الغربي، وبدأ فصل آخر. غادرت فاني وبن أولًا، وانتقلا إلى شقة في ناحية بارك سلوب من بروكلين. وجدَا مسكنًا أرحب، ومريحًا أكثرَ من ثقوب الطلاب التي سكنتها فاني بالقرب من جامعة كولومبيا، بالإضافة إلى أنه وضعها على مسافة قريبة من عملها في المتحف. كان ذلك في خريف عام 1976. في الوقت المنقضي بين العثور على الشقة والانتقال إليها، اكتشفتْ زوجتي ديليا أنها حامل. وبدأنا نحن أيضًا في وضع خططٍ للانتقال على الفور. كانت شقتنا في رفرسايد درايف أضيق من استيعاب طفل، ومع بداية اندلاع المشاكل بيننا، تصورنا أنه قد تكون لدينا فرصة أفضل إذا غادرنا المدينة بأسرها. كنتُ أترجم الكتبَ بدوام كامل حينئذ، وبقدر ما يتعلق الأمر بالعمل، لم يُحدِث المكان الذي نقطن فيه أيَّ فرق.

لا أزعم أن لديَّ أيَّ رغبة في الحديث عن زواجي الأول الآن. ومع ذلك، بقدر ما يمس قصة ساكس، لا أرى كيف يمكنني تجنبُ الموضوع تمامًا. أمرٌ يؤدي إلى آخر، وسواء رغبتُ أم لا، فأنا جزءٌ ممّا حدث كأي شخص آخر. لولا فضُّ زواجي من ديليا بوند لما قابلتُ ماريا تيرنر أبدًا، ولو لم أقابل ماريا تيرنر لما علمت شيئًا عن ليليان شتيرن، ولو لم أعرف شيئًا عن ليليان شتيرن لما كنت أجلسُ هنا لأكتب هذا الكتاب. كلٌّ منّا مرتبط بموت ساكس بطريقة ما، ولن أتمكن من رواية قصته دون سرْد كلِّ واحدة من قصصنا أثناء ذلك. كل شيء مرتبط بكل شيء آخر، كلُّ قصة تتداخل مع كل قصة أخرى. يقشعرُّ بدني حين أقول ذلك، ولكنني أفهم الآن أني الشخص الذي جمعنا ببعض. بقدر ما فعل ساكس نفسه، أنا المكان الذي يبدأ فيه كل شيء.

يتلخص التسلسلُ على النحو التالي: طاردتُّ ديليا حثيثًا لمدة سبع سنوات 1967-1974، وأقنعتُها بالزواج منّي 1975، وانتقلنا إلى الريف آذار 1977، ولد ابننا ديفيد حزيران 1977، وانفصلنا تشرين الثاني من 1978. بقيتُ على اتصالٍ وثيقٍ بساكس خلال الثمانية عشر شهرًا التي كنت فيها خارج نيويورك، لكنْ وتيرة لقاءاتنا غدتْ أقلَّ من ذي قبل. حلّت البطاقات البريدية والرسائل محلَّ المحادثات في وقت متأخر من الليل في الحانات، وصارت اتصالاتنا بالضرورة أكثر تقييدًا ورسمية. في بعض الأحيان سافرتْ فاني وبن لقضاء عطلات نهاية الأسبوع معنا في الريف، وزرتُ أنا وديليا منزلهما في ڤيرمونت لفترة قصيرة ذات صيف، لكن هذه اللقاءات افتقرت إلى الخواص الفوضوية والارتجالية التي وسمتِ اجتماعاتِنا في الماضي. بيدَ أن ذلك لم يعنِ أنَّ الصداقة تأثرت. بين الحين والآخر، توجهتُ إلى نيويورك بداعي العمل: تسليم مخطوطات، توقيع عقود، تسلّم عمل جديد، مناقشة المشاريع مع المحررين. حصل هذا مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، وكلما كنت هناك قضيت الليلة في منزل فاني وبن في بروكلين. كان لاستقرار زواجهما تأثيرٌ مهدئٌ عليّ، وإن كنتُ قد تمكنت من الحفاظ على بعض مظاهر الصحة العقلية خلال تلك الفترة، فأظنهما مسئولَيْن عن ذلك جزئيًّا على الأقل. ومع ذلك، كان من العسير العودة إلى ديليا في صباح اليوم التالي. لقد جعلني عرضُ السعادة الأسرية الذي شاهدته للتَّو أدركُ أي عملٍ سقيم فعلته بيديّ. بتُّ أرهب الانغماس مجددًا في معمعتي، وغابة الفوضى الكثيفة التي نمت من حولي.

لا أنوي التنظير عمن كانت له يد في ذلك. عانى كلانا نقصًا في الأموال خلال العامين الماضيين، لكنني لا أريد الاحتجاج بذلك كسببٍ مباشر. يمكن للزواج السليم أن يتحمل أيَّ قدر من الضغوط الخارجية، بينما يتصدع الزواج السيئ. في حالتنا، لم يتأخر الكابوس أكثر من ساعات بعد مغادرتنا للمدينة، وأيًّا يكن ذاك الشيء الهشُّ الذي كان يجمعنا معًا فقد انفصمَ إلى الأبد.

نظرًا لشحِّ المال بين أيدينا، كانت خطتنا الأصلية حذرةً تمامًا: استئجار منزل في مكان ما، ومعرفة ما إذا كان العيش في الريف يناسبنا أم لا. إذا كان الأمر كذلك فسنبقى، وإذا لم يحدث ذلك فسنرجع إلى نيويورك بعد انقضاء عقد الإيجار. ولكن بعد ذلك تدخّل والد ديليا وعرَض علينا دفعَ عشرة آلاف دولار كمقدَّم لمنزل خاص بنا، ولأنَّ المنازل الريفية تباع لقاء ما لا يزيد عن ثلاثين أو أربعين ألفًا في ذلك الوقت؛ فقيمة المبلغ تمثل أكثر بكثير مما هي عليه الآن. ذاك كرم بالغ من السيد بوند، إلا إنَّه في النهاية لم يكن في صالحنا، وحَبَسَنا في وضعٍ لم يكن أحدٌ منا مستعدًّا للتعامل معه. بعد بحثٍ لشهرين، وجدنا منزلًا معقول الثمن في مقاطعة دوتشيس، وهو منزلٌ قديمٌ ومترهلٌ إلى حدٍّ ما مع مساحة كبيرة بالداخل ومجموعة رائعة من شجيرات الليلك في الفناء. في اليوم التالي لانتقالنا، اجتاحت المدينة عاصفة رعدية شديدة. ضرب البرق فرعَ شجرة بجوار المنزل، واشتعلت النيران في الفرع، وامتد الحريق إلى خط كهربائي يمرُّ عبر الشجرة، فانقطعت الكهرباء. ومن لحظتها، انطفأت مضخة التصريف، وفي أقل من ساعة غمرتِ المياه القبو. أمضيتُ الجزء الأكبر من الليل تحت المطر البارد، أعمل تحت ضوء مصباحٍ يدويٍّ أنضحُ الماء بالدلاء. عندما وصل الكهربائي بعد ظهر اليوم التالي لتقييم الضرر، علمنا أن علينا استبدالَ دائرة الكهرباء بالكامل. كلّف ذلك عدة مئات من الدولارات، وعندما طفح خزان الصرف الصحي في الشهر التالي، كلفنا أكثرَ من ألف دولار لإزالة رائحة البراز من الفناء الخلفي لمنزلنا. لم نتمكن من تحمل أيٍّ من هذه الإصلاحات، هذا العدوان على ميزانيتنا خلَّفنا مدوّخيْن بالقلق. سرّعتُ وتيرة عملي في الترجمة، وقبلتُ أي عمل متاح، وبحلول منتصف الربيع تخليتُ عن الرواية التي كنت أكتبها طوال السنوات الثلاث الماضية. كانت ديليا متقدمةً في حملها بحلول ذلك الوقت، لكنها واصلتِ العمل في وظيفتها الخاصة: (تحرير النصوص كعمل حر)، وقبل دخولها المَخاض بأسبوع، جلستْ على مكتبها من الصباح إلى المساء

لتصحيح مخطوطةٍ من أكثر من تسعمائة صفحة. وحين وضعت ديفيد، ازداد الوضع سوءًا. أصبح المال هو هاجسي الوحيد، وفي العام التالي عشتُ حالة من الذعر المستمر؛ نظرًا لأن ديليا لم تعد قادرة على المساهمة كثيرًا في طريقة العمل. انخفض دخلنا في نفس اللحظة التي بدأت فيها نفقاتنا في الارتفاع. أخذتُ مسئوليات الأبوَّة على محمل الجد، وملأتني فكرةُ عدم القدرة على إعالة زوجتي وابني بالشعور بالخزي. ذات مرة، عندما كان الناشر بطيئًا في دفع أجري مقابل العمل الذي سلمتُه، توجهت إلى نيويورك واقتحمت مكتبه، وهددتُه بالعنف الجسدي ما لم يكتب لي شيكًا على الفور. في لحظة ما، أطبقتُ على ياقته ودفعته باتجاه الحائط. صدور هذا السلوك عني غير قابل للتصديق، وخيانةٌ لكل ما أؤمن به. لم أتشاجر مع أحد منذ كنت طفلًا، وإن كنتُ تركتُ مشاعري تفلت منّي في مكتب ذلك الرجل، فهذا يثبت فقط مبلغَ اضطرابي. كتبتُ أكبر عدد ممكن من المقالات، وقبلتُ كل عملٍ ترجمةٍ عُرض عليّ، لكن ذلك لم يكن كافيًا. وعلى فرض موت روايتي، وأن أحلامي في أن أصبح كاتبًا قد بُترت؛ خرجت للبحث عن وظيفة دائمة، لكنَّ الأوضاع كانت سيئة في ذلك الوقت، والفرص في الريف شحيحة. حتى الكلية المحلية؛ التي أعلنت عن شاغرٍ واحدٍ لتدريس مجموعة كبيرة من دورات تأسيس الطلاب المستجدين بأجرٍ زهيد يبلغ ثمانية آلاف دولار سنويًّا، تلقّتْ أكثر من ثلاثمائة طلب للوظيفة. ولانعدام أيّ خبرةٍ تعليميةٍ سابقةٍ لديّ، رُفض طلبي دون إجراء مقابلة. بعد ذلك، حاولت الانضمام إلى طواقم بعض المجلات التي كنتُ أكتبُ لها، مُقدّرًا أنه يمكنني الانتقال إلى المدينة إذا اضطررت لذلك، لكنَّ المحررين سخروا منّي وعاملوا رسائلي كمزحة. أجابوا أنها ليست وظيفة كاتب، وأني أضيع وقتي فقط. لكنني لم أعُد كاتبًا، كنتُ رجلًا يغرق، وبلغ به الجهد أن يستسلم للغرق.

أنا وديليا كنا مستنزفيْن، ومع مرور الوقت غدا الخلاف بيننا آليًّا، ردُّ فعلٍ لا يستطيع أيٌّ منا التحكم فيه؛ هي تنقّ وأنا أتجهّم، هي توبّخ وأنا أحتضن

كآبتي. أمضينا أيامًا دون أن نتحلى بالشجاعة للتحدث إلى بعضنا البعض. بدَا أن ديفيد هو الشيء الوحيد الذي مازال يجلب لنا السعادة، وتحدثنا عنه كما لو لم يكن هناك أي موضوع آخر، قلقيْن من تجاوز حدود تلك المنطقة المحايدة. وما إن فعلنا ذلك، تقافز القناصة إلى خنادقهم مرة أخرى، وانهمرَ الرصاص المتبادل، وانطلقت حربُ الاستنزاف مجددًا. بدتْ حربًا تمتد دون نهاية. صراعٌ خفيّ دون هدفٍ محدد، يُخاض بالصمت، وسوء الفهم، والأذى، والوجوه الذاهلة. لكل ذلك، لا أعتقد أن أيًّا منّا كان على استعداد للاستسلام. لقد حفرنا خنادقنا عميقًا، ولم تخطر ببالنا فكرة التنازل أبدًا.

تغيّر كل ذلك فجأة في خريف عام 1978.

ذات مساءٍ، بينما كنا نجلس في غرفة المعيشة مع ديفيد، طلبت ديليا منّي إحضار نظارتها من رفٍّ في مكتبها في الطابق العلوي، وعندما دخلت الغرفة رأيت دفتر يومياتها مستلقيًا على المنضدة. كانت ديليا تحتفظ بدفتر يوميات منذ سنِّ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، حتى بلغت الآن عشرات المجلدات، مفكرةٌ تلو أخرى ملأى بالملحمة المتواصلة لنوازعها الداخلية. غالبًا ما كانت تقرأ لي مقاطع منها، لكنني لم أجرؤ أبدًا حتى ذلك المساء على النظر إليها دون إذنها. لكنني توقفت هناك في تلك اللحظة، ووجدتُّ نفسي محاصرًا برغبةٍ عارمةٍ في قراءة تلك الصفحات. وأنا أسترجع الأحداث الآن، أُدركُ أن ذلك يعني أن حياتنا معًا قد انتهت بالفعل، وأن رغبتي في كسر هذه الثقة أثبتت أني فقدت أيَّ أمل في زواجنا، لكنني لم أكن على علم بذلك حينها. في ذلك الوقت، كان كل ما شعرت به هو الفضول. ها هي الصفحات مفتوحة على المنضدة، وديليا طلبت منّي للتّو أن أذهب إلى الغرفة من أجلها. لا بد أنها تدرك أنني سألاحظها. وبافتراض صحة ذلك، بدا الأمر كما لو كانت تدعوني لقراءة ما كتبَتْه. على أي حال، هذا هو العذر الذي منحتُه لنفسي في تلك الليلة، وحتى الآن لست متأكدًا من أنني كنت مخطئًا. كان من طبعها العمل

بالواسطة، وإثارة أزمة لن تضطر أبدًا إلى إعلان المسئولية عنها. تلك هي موهبتها الخاصة: تتولى زمامَ الأمور بنفسها، وتقنع نفسها بأن يديها نظيفتان.

لذا نظرتُ إلى الصفحة المفتوحة، وما إن تجاوزت هذه العتبة لم أتمكن من العودة. رأيتُ أنني كنت موضوعَ تدوينةِ ذلك اليوم. وجدتُّ لائحةً مستفيضةً بالشكاوى والمظالم، وثيقة صغيرة قاتمة مكتوبة بلغة تحليل مخبري. تناولت ديليا كل شيء، من هندامي إلى الأطعمة التي أتناولها إلى فقري الراسخ في التعاطف البشري. كنت سقيمًا وأنانيًّا، أهوج ومتسلطًا، حقودًا وكسولًا ومشتتًا. حتى لو كانت كل هذه الأشياء صحيحة فإنَّ تصويرها لي كان نذلًا للغاية، وخسيسًا في نبرته، إلى حدٍّ أني لم أتمكن من دفع نفسي إلى الغضب. شعرت بالأسى والفراغ والدوار. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الفقرة الأخيرة، كان استنتاجها واضحًا مسبقًا، ولم يعد بحاجة إلى التصريح به. كتبتْ «لم أحبّ بيتر قط. كان من الخطأ الاعتقاد أنني سأتمكن يومًا من ذلك. حياتنا معًا محضُ احتيال، وكلما استدام بقاؤنا على هذا النحو اقتربنا من تدمير بعضنا البعض. لم ينبغِ لنا أبدًا أن نتزوج. لقد تركتُ بيتر يقنعني بذلك، وها أنا أدفع الثمن منذ ذلك الحين. لم أحبّه حينها، ولا أحبه الآن. بغضِّ النظر عنِ المدة التي سأمضيها مع بيتر، ربما لن أحبه أبدًا».

جاء كلُّ ذلك مباغتًا وقطعيًّا لدرجة أنني شعرت تقريبًا بالارتياح. أن تعي أنك محتقَر بهذه الطريقة يزيلُ أيَّ سببٍ لرثاء الذات. لم أعد أشك إلى أين تمضي الأمور، ومهما بلغ قدرُ تزعزعي في اللحظات الأولى تلك فقد علمتُ أنني مَن جلب هذه الكارثة على رأسي. لقد أهدرتُ أحد عشَر عامًا من حياتي بحثًا عن تلفيق. ضحيتُ بكامل شبابي في سبيل وهم. ولكن عوضًا عن الانهيار والحزن على ما فقدته للتوِّ شعرتُ بالحيوية بشكلٍ غريب، وتحررتُ من فظاظة وقسوة كلمات ديليا. كلُّ هذا يفاجئني الآن بأنه غير قابل للتفسير. لكنني في الحقيقة لم أتردد. نزلتُ بنظارات ديليا إلى الطابق السفلي،

وأبلغتها أنني قرأت مذكراتها، وفي صباح اليوم التالي هجرتُ البيت. أتوقع أنها صُدمت بقراري الحاسم، ولكن بالنظر إلى مدى سوء فهمنا لبعضنا البعض؛ ربما كان ذلك متوقعًا. من ناحيتي، لم يعدْ هناك ما يمكن الحديث عنه. ما حصل قد حصل، ولم يكن هناك أي مجال لإعادة التفكير.

***

ساعدتني فاني في العثور على إيجار من الباطن في مانهاتن السفلى، وبحلول عيد الميلاد كنت أسكنُ في نيويورك مرة أخرى. أحد أصدقائها الرسامين كان على وشكِ السفر إلى إيطاليا لمدة عام، وقد أقنعتْهُ ليؤجرَ لي غرفته الاحتياطية لقاء خمسين دولارًا فقط في الشهر، وهو تحديدًا أقصى ما يمكنني تحمّله. تقع الغرفة مباشرة عبرَ الصالة من الدور العلوي)الذي كان يشغله مستأجرون آخرون(، وإلى أنِ انتقلت إليها كانت بمثابة مستودَعِ تخزين ضخم، تكدست كلُّ أنواع الخردة والأنقاض هناك: دراجات محطّمة، ولوحات مهجورة، وغسالة قديمة، وعلب تربنتين فارغة، وصحف، ومجلات، وما يفوق الحصر من الأسلاك النحاسية. دفعتُ هذه الأشياء إلى جانب واحد من الغرفة، ما ترك لي نصفَ المساحة للعيش فيها، ولكن بعد فترة قصيرة من التأقلم، تبيّن أنها سعةٌ كافية. كانت كل مقتنياتي المنزلية في ذلك العام: مرتبة، وطاولة صغيرة، وكرسيّين، وموقد تسخين، ومجموعة صغيرة من أدوات المطبخ، وكرتونة واحدة من الكتب. تجهيزاتُ بقاءٍ أساسية دون ترهات، لكن الحقيقة أني كنت سعيدًا في تلك الغرفة. كما وصفها ساكس في المرة الأولى التي زارني فيها: «ملاذًا للجوهر»؛ غرفةٌ لا تصلح إلا لنشاطٍ وحيدٍ هو: التأمل.

بها مغسلة ومرحاض، لكن لا حمام، الأرضية الخشبية في حالة سيئة إلى حد أنني أشعر بالوخز إذا مشيت عليها حافي القدمين. لكنني عدتُّ للعمل على روايتي مجددًا في تلك الغرفة، وشيئًا فشيئًا تغير حظي. بعد شهر من انتقالي، حصلتُ على منحةٍ بلغت عشرة آلاف دولار. قدّمتُ الطلب منذ

فترة طويلة، ونسيتُ تمامًا أنني مرشح. ثمَّ بعد أسبوعين فقط من ذلك، فزتُ بمنحةٍ ثانية بقيمة سبعة آلاف دولار؛ والتي قدمتُ طلبًا للحصول عليها في موجة اليأس نفسها. فجأةً، أصبحت المعجزاتُ حدثًا شائعًا في حياتي. سلّمتُ نصف المال إلى ديليا، ومازال هناك ما يكفي لإبقائي في حالة من البحبوحة النسبية. كل أسبوع، كنت أنتقل إلى الريف لأقضي يومًا أو يومين مع ديفيد، وأبيت في منزل أحد الجيران على الطريق. استمر هذا النسق لمدة تسعة أشهر تقريبًا، وعندما قمتُ وديليا ببيع منزلنا أخيرًا في أيلول التالي، انتقلتُ إلى شقة في جنوب بروكلين، وتمكنتُ من رؤية ديفيد لفترات أطول في كل زيارة. بحلول ذلك الوقت، وكّلَ كُلٌّ منا محاميًّا، وصارت قضية طلاقنا قيدَ النظر.

أظهرتْ فاني وبن اهتمامًا فعالًا بمَساري الجديد كرجل أعزب. في تلك الفترة، كنت أتحدث إلى أيّ شخص حول ما كنت أنوي القيام به، وهما كانا الأقرب لي؛ أبقيتهما على اطلاعٍ بكل ما يجري معي. كلاهما كانا منزعجيْن من انفصالي عن ديليا، فاني بدرجة أقلّ من بن، كما تراءى لي، على الرغم من أنها بدتْ أكثر قلقًا بشأن ديفيد، حيث ركزتْ على هذا الجانب من المشكلة بمجرَّد أن أدركت أنْ لا أمل لي وديليا بالعودة إلى بعضنا. من ناحيةٍ أخرى، بذل ساكس كلَّ ما في وسْعه لإقناعي ببذل محاولة أخرى. استمرَّ ذلك لعدة أسابيع، ولكن ما إن عدتُّ إلى المدينة وصَفَت مياه حياتي الجديدة، حتى توقفَ عن الاستفاضة في هذه النقطة. أنا وديليا لم نسمح أبدًا بظهور خلافاتنا على الملأ، وكان انفصالنا بمثابة صدمة لمعظم الأشخاص الذين عرفناهم، وخاصة للأصدقاء المقربين مثل ساكس. ومع ذلك، بدا أن فاني تمسكتْ بشكوكها طوال الوقت. عندما أعلنتُ الخبر في شقتها في الليلة الأولى التي قضيتها بعيدًا عن ديليا، صمتتْ هنيهة بعد ختامي قصتي، ثمَّ قالت: «إنها مسألة يصعب استيعابها يا بيتر، ولكن من بعض النواحي ربما يكون ذلك من أجل الأفضل. مع مرور الوقت، أعتقد أنك ستكون أكثر سعادة».

في ذلك العام، أقاما الكثير من حفلات العشاء، ودُعيت إليها جميعها. عرف فاني وبن عددًا مذهلًا من الناس، ومن وقت لآخر بدا أن نصف سكان نيويورك انتهى بهم المطاف بالجلوس على طاولة بيضاوية كبيرة في غرفة طعامهما: فنانون وكتّاب وأساتذة ونقاد ومحررون وأصحاب معارض، انسلّوا جميعًا إلى بروكلين وأتخموا أنفسهم بطعام فاني وشرابها وحديثها المسائي المستطاب. كان ساكس على الدوام سيد الاحتفالات، ومهووسًا متدفقًا بإبقاء المحادثات دائرةً إلى جنب إلقاء النكات في وقتها المناسب والملاحظات المستفزّة، وبِتُّ أعتمد على هذه المناسبات كمصدري الرئيس للترفيه. كان صديقاي يقومان بكل ما في وسعهما ليُظهرا للعالم أنني عدتُّ إلى التداول. لم يتحدثا عن توفيق الزيجات بوضوح، إلا إنَّه ظهر ما يكفي من العازبات في منزلهما في تلك الأمسيات لكي أفهم أنهما يعتنيان بالجانب الأعزب في حياتي.

في أوائل عام 1979، بعد حوالي ثلاثة أو أربعة أشهر من عودتي إلى نيويورك، التقيتُ بشخصٍ هناك لعب دورًا محوريًّا في وفاة ساكس. ماريا تيرنر كانت حينئذ في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمرها، شابة طويلة شديدة المراس ذات شعر أشقر قصير ووجه هزيل بارز العظام، أبعد ما تكون عن الجمال، إلا أنها تملك في عينيها الرماديتين وَهَجًا أسَرَتني به. كما أحببت طريقة تبخترها في ثيابها، بنوع من الأناقة ذات الفتنة الحسية، تحفّظٌ يسفر عن ومضات قصيرة من السلوان المثير؛ كأن تترك طرف تنورتها ينساب أعلى فخذيها وهي تصالب ساقيها أو تحررهما، أو الطريقة التي تلمس بها يدي كلما أشعلت لها سيجارة. هذا لا يعني أنها شقيّة أو تتعمد الإغواء. أدهشتني كفتاةٍ برجوازيةٍ رفيعةٍ تتقن قواعد السلوك الاجتماعي، ومع ذلك، بدا في الوقت نفسه أنها لا تؤمن بضرورة تلك القواعد.

سكنتْ علّيةً في شارع دوان، ليس بعيدًا عن مسكني في فاريك، وبعد أن انفضَّ الحفل في تلك الليلة تشاركنا رحلة العودة إلى مانهاتن في إحدى سيارات خدمة مدينة بروكلين. كانت تلك بداية تحالف جنسي استمرَّ لما يقرب من عامين. أستخدم هذه العبارة كوصفٍ دقيقٍ وسريريّ، لكن هذا لا يعني أن علاقاتنا كانت جسدية فقط، وأنه لم يكن لدينا اهتمام ببعضنا البعض بخلاف ملذات السرير. ومع ذلك، فإن ما حدث بيننا كان خاليًا من البهرجات الرومانسية أو الأوهام العاطفية، ولم تتغير طبيعة تفاهمنا بشكل كبير بعد تلك الليلة الأولى. لم تكن ماريا توّاقة لعديدِ الارتباطات التي يرغبُ بها معظم الناس، وكان الحب بالمعنى التقليدي شيئًا غريبًا عليها، وعاطفةً تقع خارج نطاق قدراتها. نظرًا إلى وضعي النفسي ذلك الحين، كنت على استعدادٍ تام لقبول الشروط التي فرضَتها علي. لم نطالب بعضنا البعض بأي استحقاقات، ولم نرَ بعضنا البعض إلا بشكل متقطع، وأدار كلانا حياة مستقلة تمامًا. ومع ذلك، كان هناك عاطفة قوية بيننا، وهي علاقة حميمة لم أتمكن قط من الفوز بها مع أي شخص آخر. ومع ذلك، فقد استغرق الأمر منّي بعض الوقت لاستيعابها. في البداية، وجدتها منفّرةً بعض الشيء، وربما حتى منحرفة (ممّا جلب بعض الإثارة للقاءاتنا الأولى(، لكن مع مرور الوقت، أدركتُ مجرد شخصٍ غريب الأطوار، شخص غير تقليدي عاش حياته وفقًا لتفاصيل دقيقة لمجموعة من الطقوس الغريبة والخاصة. وضعتْ لكل تجربةٍ نظامها الإجرائي؛ مغامرةٌ قائمة بذاتها تولّد مخاطرها وقيودها الخاصَّة، حيث يقع كل مشروع من مشاريعها في فئةٍ مختلفة، منفصلًا عن باقي المشاريع الأخرى. في حالتي، كنت أنتمي إلى فئة الجنس. فقد عينتني كشريك لها في السرير في تلك الليلة الأولى، وتلك هي الوظيفة التي واصلت الخدمة فيها حتى النهاية. في عالم ماريا الغرائزي، كنت مجرد طقسٍ واحدٍ من بين العديد من الطقوس، لكنني كنت مولعًا بالدور الذي اختارته لي، ولم أجد أبدًا أي سبب للشكوى.

ماريا فنانة، لكن العمل الذي قامت به لم يكن له علاقة بصنع أشياء توصف عادةً بالفن. دعاها بعضهم المصوّرة، بينما أشار إليها آخرون على أنها تصورية، وعدّها سواهم كاتبة، لكن لم يكن أي من هذه الأوصاف دقيقًا، وفي المحصلة النهائية لا أعتقد أنه يمكن تصنيفها بأي صورة. عملها كان أكثر خبالًا من ذلك، ذاتيّ التحسس، وشخصيًّا للغاية بحيث لا يمكن اعتبارُه ينتمي إلى أي بيئة أو حقل معرفي معين. ستستحوذ عليها الأفكار، وتنهمك في مشاريع، وسينتج عن ذلك ثمارٌ ملموسةٌ يمكن وضعُها في صالات العرض، لكن هذا النشاط لم ينبع من الرَّغبة في صنع الفنِّ بقدر ما نتجَ عن الحاجة إلى إرضاء هواجسها، وأن تعيش حياتها بالضبط كما أرادت أن تعيشها. أتتِ الحياةُ على الدوام في المقام الأول، وقد نفّذتْ عددًا من المشاريع التي استغرقت وقتًا جمًّا لنفسها حصرًا ولم تُعرض أبدًا على أحد.

منذ أن كانت في الرابعة عشرة من عمرها، احتفظت بكل هدايا عيد الميلاد التي قدمتُ لها ملفوفةً ومرتبةً بعنايةٍ على الرفوف تبعًا للسنة. وفي سنِّ رشدها، أقامت عشاءَ عيد ميلاد سنوي لها، وَدَعَت دائمًا ضيوفًا بعددِ سنوات عمرها. في بعض الأسابيع، كانت تنغمس فيما أسمته «النظام الغذائي اللوني»، وتقتصر على الأطعمة ذات اللون الواحد في يوم معين. الاثنين البرتقالي: جزر، وشمام، وروبيان مسلوق. الثلاثاء الأحمر: الطماطم، وفاكهة الكاكا، وشريحة لحم بالتارتار. الأربعاء الأبيض: سمك فلاوندر، والبطاطس، وجبن القريش. الخميس الأخضر: الخيار، والبروكلي، والسبانخ، وما إلى ذلك، وصولًا إلى الوجبة الأخيرة يوم الأحد. في أوقات أخرى، كانت تقوم بعمل تقسيمات مماثلة بناءً على أحرف الأبجدية. كانت تقضي أيامًا كاملة تحت تأثير تعويذة حرف b، أو c، أو w، وبعد ذلك، وفجأة تمامًا كما بدأت، ستتخلى عن اللعبة وتنتقل إلى شيء آخر. لم تكن هذه أكثر من نزوات، كما أرى، تجارب صغيرة مع فكرة التصنيف والعادة، إلّا إنَّ ألعابًا مماثلة قد تستمر لسنوات عديدة. كان هناك- على سبيل المثال- مشروعٌ

طويل الأمد لملابس السيد «ل»؛ شخص غريب التقت به ذاتَ مرة في إحدى الحفلات. وجدتْه ماريا من أكثر الرجال الذين رأتهم وسامةً على الإطلاق، لكنها عدّت ملابسَه وصمة عار؛ لذا دون أن تعلن نواياها لأي شخصٍ أخذت على عاتقها تحسين خزانة ملابسه. في كل عام في عيد الميلاد، كانت ترسل له هدية من مجهول؛ ربطة عنق، كنزة، قميصًا أنيقًا، ولأن السيد «ل» موجودٌ تقريبًا في نفس الدوائر الاجتماعية التي توجد فيها، كانت تصادفه بين الحين والآخر، مشيرةً بسرورٍ إلى التغييرات الجذرية في هندامه. وما كان السيد «ل» يرتدي سوى الملابس التي ترسلها إليه ماريا. حتى إنها كانت تدنو منه في هذه التجمعات وتثني على ما يرتديه، وهذا أبعد حدٍّ وصلت إليه، ولم يدرك أبدًا أنها المسئولة عن رُزم عيد الميلاد تلك.

نشأت في مدينة هوليوك، ماساتشوستس، طفلة وحيدة لوالدين انفصلا عندما كانت في السادسة من عمرها. بعد تخرجها من المدرسة الثانوية في عام 1970، توجهت إلى نيويورك مع فكرة الالتحاق بمدرسة الفنون لتصبح رسامة، لكنها فقدت الاهتمام بعد فصل دراسي واحد وانقطعت عن الدراسة. اشترت لنفسها ڤان دودج مستعملًا وانطلقت في جولة في القارة الأمريكية، حيث بقيت لمدة أسبوعين بالضبط في كل ولاية، ووجدت عملًا مؤقتًا على طول الطريق كلما كان ذلك ممكنًا؛ وظيفة نادلة، وظيفة مزارعة مهاجرة، وظائف في المصانع؛ لتجني ما يكفي فقط لجعلها تنتقل من مكان إلى آخر. كان هذا هو أول مشروع من مشاريعها المجنونة والقهرية، وبمعنًى ما يعدُّ أكثر شيء غريب قامت به على الإطلاق. عمل اعتباطي لا معنى له تمامًا كرَّست له ما يقرب من عامين من حياتها. كان طموحها الوحيد هو قضاء أربعة عشر يومًا في كل ولاية، وبعد ذلك كانت حرة في فعل ما تريد. بإصرار وبلا عاطفة، ودون التشكيك في عبثية مهمتها، تمسكت ماريا بها حتى النهاية. كانت في التاسعة عشرة من عمرها فقط عندما بدأت، فتاة صغيرة بمفردها قلبًا وقالبًا، ومع ذلك تمكنت من تدبير أمورها بنفسها،

وتجنُّب الكوارث الكبرى، وعيشَ هذا النوع من المغامرة التي لا يحلم بها إلا الفتيان في مثل سنها. في مرحلة ما من أسفارها، أعطتها زميلةُ عملٍ كاميرا 35 ملم قديمة، ودون أي تدريب أو خبرة سابقة، بدأت في التقاط الصور. عندما رأت والدها في شيكاغو بعد ذلك ببضعة أشهر، أخبرته أنها وجدت أخيرًا شيئًا تحبه. عرضت عليه بعض صورها، وبناءً على إحكام تلك المحاولات الباكرة عرضَ عقدَ صفقةٍ معها. قال إنه إذا استمرت في التقاط الصور، فإنه سيغطي نفقاتها حتى تصبح في وضع يسمح لها بإعالة نفسها. ولا يعنيه كم تستغرق من الوقت، لكن لا يُسمح لها بالتوقف. هذه هي القصة التي روتها لي على أي حال، ولم يكن لدي أي سبب لعدم تصديقها. طوال سنوات علاقتنا، ظهر إيداعٌ بقيمة ألف دولار في حساب ماريا في الأول من كل شهر، مرسلًا مباشرة من بنك في شيكاغو.

حين عادت إلى نيويورك باعت الڤان، وانتقلت إلى العلّية في شارع دوان؛ وهي غرفة فارغة كبيرة تقع في طابق فوق محل لبيع البيض والزبدة بالجملة. كانت الأشهر الأولى لها وحيدة ومربكة. لم يكن لديها أصدقاء، ولا حياة تذكر، وبدتِ المدينة مهدِّدة وغير مألوفة، كما لو أنها لم تقطن هناك من قبل. دون أي دوافع واعية، بدأت في تتبّع الغرباء في الشوارع، واختيار شخص ما بشكل عشوائي عندما تغادر منزلها في الصباح والسماح لهذا الخيار بتحديد المكان الذي تذهب إليه لبقية اليوم. غدت هذه طريقةً لاكتساب أفكار جديدة، لملء الخواء الذي بدا كأنه قد غمرها. مع الوقت، بدأت في الخروج بكاميرتها والتقاط صور للأشخاص الذين تتبعهم. عندما عادت إلى المنزل في المساء، كانت تجلس وتكتب عن أين كانت وماذا فعلت، مستعينة بمسارات الغرباء للتكهن حول حياتهم، وفي بعض الحالات، لتأليف سير ذاتية مختصرة ومتخيلة لهم. كانت هذه- إلى حدّ ما- الكيفيةَ التي تعثرتْ فيها ماريا بحياتها المهنية كفنانة. لحقتْ ذلك أعمالٌ أخرى، كلها مدفوعةٌ بنفس روح التحري، ونفس الشغف لتحمُّل المخاطر. كان موضوعُها هو

العين، ودراما المشاهدة والتعرض للمراقبة، وأظهرت صورها الصفات التي يجدها المرءُ في ماريا نفسها: الاهتمام الدقيق بالتفاصيل، والاعتماد على الهياكل العشوائية، وصبرٌ يتجاوز حدود ما لا يطاق. في أحد الأعمال، استأجرت محققًا خاصًّا لملاحقتها في كافةِ أنحاء المدينة. لعدة أيام، قام هذا الرجل بالتقاط صور لها وهي تقوم بجولاتها، وتسجيل تحركاتها في دفتر صغير، دون حذف أي شيء منها، ولا حتى أكثر الأحداث العادية والعابرة: عبور الشارع، شراء صحيفة، التوقف من أجل كوب من القهوة. لقد كان تمرينًا مصطنعًا بالكامل، ومع ذلك وجدت ماريا أنه من المثير أن يهتمَّ أحدهم بها بمثل هذا الدأب النشط. الأفعال المجهرية غدت مفعمةً بمغزًى جديد، وأجفُّ النمطيات مشبعة بمشاعر غير مألوفة. بعد عدة ساعات، غدت مولعة بالمحقق لدرجة أنها نسيت تقريبًا أنها هي مَن تدفع له. عندما قدم تقريره في نهاية الأسبوع ودرست صورها ودرست التسلسل الزمني الشامل لتحركاتها، شعرت وكأنها أصبحت أجنبية عن المرأة في التقرير، وكأنها تحولت إلى كائن خيالي.

في سبيل مشروعها التالي، حصلت ماريا على وظيفة مؤقتة كعاملة تنظيف في فندق كبير في وسط المدينة. الهدف هو جمع المعلومات عن الضيوف، ولكن ليس بأي طريقة تطفلية أو فاضحة. لقد تجنبتهم عن قصد في الواقع، وقصَرت نفسها على ما يمكن تعلمه من الأشياء المنتشرة في غرفهم. من جديد التقطت صورًا. مرة أخرى ابتكرت قصص حياة لهم بناءً على الأدلة التي كانت مُتاحة لها. إنه علم آثارٍ للحاضر، إذا جاز التعبير؛ محاولة لإعادة تكوين جوهرِ شيءٍ ما من شظايا قليلة: كعب تذكرة، وجورب ممزق، وبقعة دم على ياقة القميص. بعد ذلك بوقت، حاول رجلٌ مغازلة ماريا في الشارع. وجدته غير جذاب بجلاء ورفضته. في ذلك المساء نفسه، وبمحْض الصدفة الخالصة، وجدتْه في افتتاح معرض في سوهو. تحدثا مجددًا، وهذه المرَّة علمت من الرجل أنه سيغادر في صباح اليوم التالي في رحلة إلى نيو أورلينز مع صديقته. قررتْ

ماريا أن تسافر إلى هناك أيضًا، وتلاحقه بكاميرتها طوال فترة زيارته. لم يكن لديها أيُّ اهتمام به بتاتًا، وآخر ما كانت تبحث عنه هو مغامرة عاطفية. كانت نيتُها إخفاءَ نفسها، ومقاومة أي اتصال معه، واستكشاف سلوكه الخارجي وعدم بذل أي جهد لتفسير ما تراه. في صباح اليوم التالي، استقلَّت طائرة من مطار لاغواردیا إلى نيو أورلينز، وحجزت في فندق، وابتاعت لنفسها باروكةً سوداء. استفسرت لمدة ثلاثة أيام في عشرات الفنادق، في محاولة لتعقب مكان الرجل. اكتشفته أخيرًا، وسارت خلفه لبقية الأسبوع مثل ظله، والتقطت مئات الصور، ووثّقتْ كل مكان ذهب إليه. احتفظت بمذكرات مكتوبة أيضًا، وعندما حان وقت عودته إلى نيويورك عادتْ في رحلة سابقة وانتظرت في المطار للحصول على تسلسل أخيرٍ من الصور أثناء نزوله من الطائرة. كانت تجربة معقّدة ومقلقة بالنسبة لها، وخلّفتها مع شعور بأنها تخلت عن حياتها من أجل نوع من العدم، وكأنها كانت تلتقط صورًا لأشياء لم تكن موجودة. لم تعدِ الكاميرا أداةً تسجل الحضور، بل كانت وسيلة لإخفاء العالم، وتقنيةً لمواجهة غير المرئي. في محاولة يائسة للتراجع عن العملية التي بدأتها، أطلقت ماريا مشروعًا جديدًا بعد عدة أيام من عودتها إلى نيويورك. كانت تتجول في ساحة تايمز سكوير بكاميرتها بعد ظهر أحد الأيام، ودخلت في محادثة مع بوّاب حانة تعرٌّ صغيرة. الطقس كان دافئًا، وماريا ارتدت بنطالًا قصيرًا وتي شيرت، وهو زي ضئيل بشكل كاشف بالنسبة لها. لكنها كانت قد خرجت في ذلك اليوم لكي يتم ملاحظتها. أرادت أن تؤكد حقيقة جسدها، وأن تلفت الأنظار، لتثبت لنفسها أنها لا تزال موجودةً في عيون الآخرين. لماري جسدٌ متناسق، ذات ساقين طويلتين وصدر جذاب. ساعدت الصفارات والملاحظات البذيئة التي تلقَّتها في ذلك اليوم على رفع معنوياتها. أخبرها البوابُ أنها فتاة جميلة؛ جميلة مثل الفتيات في الداخل، ومع استمرارِ حديثهما، وجدتْ نفسها فجأة أمامَ عرض عمل. إحدى الراقصات غابت بداعي المرض، وإذا أرادت أن تحلَّ محلها، فسيقوم بتقديمها إلى

صاحب العمل لاكتشاف كيف تمضي الأمور. قبلت ماريا العرض دونما أدنى قدرٍ من التفكير. هذه هي الطريقة التي ظهر بها عملها التالي؛ صورة عُرفت في النهاية باسم «السيدة العارية». طلبت ماريا من صديقة لها أن تأتي معها في تلك الليلة لالتقاط صور لها وهي ترقص، لا لإظهار أي شخص آخر، لها وحدها، لإرضاء فضولها بشأن شكلها. كانت تحوّل نفسها بوعي إلى شيء، وشخصية مرغوبة ومجهولة، وكان من المهم بالنسبة لها أن تفهم بالضبط ماهية هذا الشيء. لقد فعلت ذلك مرة واحدة فقط، حيث عملت في نوبات مدتها عشرين دقيقة من الساعة الثامنة مساءً حتى الثانية صباحًا، لكنها لم تتراجع، وطوال الوقت الذي كانت فيه على خشبة المسرح، جثمت خلف البار ذو الضوء الوامض والأضواء ترتدُّ عن بشرتها العارية، ورقصت من قلبها. كانت ترتدي سروالًا داخليًّا رفيعًا مرصعًا بأحجار الراين، وزوجًا من الكعب العالي بطول بوصتين، تهزّ جسدها على الإيقاع العالي لموسيقى الروك أند رول وتتابع نظرات الرجال وهم يحملقون بها. هزَّت مؤخرتها في وجوههم، ودوّرت لسانها على شفتيها، وغمزت بإغواء وهم يدسّون دولاراتهم لها ويحثونها على الاستمرار. كما هو الحال مع كل شيء آخر جربته، كانت ماريا تتقنه. بمجرد أن انطلقت، لم يعد هناك ما يمكن أن يوقفها.

على حدٍّ علمي، خرجتِ الأمور عن السيطرة مرة واحدة فقط. كان ذلك في ربيع عام 1976، وأثبتتِ الآثار النهائية لسوء تقديرها كارثيته. فقدَ ما لا يقل عن شخصين أرواحهما، مع أن الأمر استغرق سنوات حتى حدث ذلك، فإن الصلة بين الماضي والحاضر لا مفرَّ منها. كانت ماريا هي الرابطَ بين ساكس وليليان شتيرن، ولولا عادة ماريا في مراودة المشاكل بكل صورةٍ ممكنة، لما دخلت ليليان شتيرن إلى الصورة. بعد أن ظهرت ماريا في شقة ساكس في عام 1979، أصبح اللقاء بين ساكس وليليان شتيرن ممكنًا. استغرق الأمر العديد من التقلبات غير المتوقعة قبل أن تتَّضح هذه الاحتمالية، ولكن يمكن تتبُّع كل واحدة منها مباشرة إلى ماريا. قبل معرفة

أي منّا بها بوقت طويل، خرجت ذات صباح لشراء فيلم لكاميرتها، ورأت دفتر عناوين أسود صغيرًا ملقًى على الأرض، والتقطته. كان هذا هو الحدث الذي بدأ القصة البائسة بأكملها. فتحتْ ماريا الدفتر، وخرج منه الشيطان طائرًا، وخرجت ويلات العنف والفوضى والموت.

كان أحد دفاتر العناوين الصغيرة القياسية التي تصنعها شركة شيفر إيتون، بطول حوالي 15 سنتيمتر وعرض 10 سنتيمترات، بغطاء جلد صناعي مرن، وتجليد حلزوني، ودليلُ تقليبِ صفحاتٍ بحسب حروف الأبجدية. كان متهرّئًا لشدة الاستخدام، مليئًا بأكثر من مائتي اسم وعنوان ورقم هاتف. والعديد من الإدخالات جرى شطبها وإعادة كتابتها، وبدا أن مجموعة متنوعة من أقلام الكتابة استُخدمت في كل صفحة تقريبًا (أقلام حبر جاف زرقاء، وأقلام لباد سوداء، وأقلام رصاص خضراء) تؤشر كلها أنها استخدمت فترات طويلة. أول فكرة عرضت لماريا كانت إعادته لصاحبه، ولكن، كما هو الحال غالبًا مع الممتلكات الشخصية، أهمل المالك كتابة اسمه في الدفتر. فتّشتْ في كل الأماكن المحتملة؛ الغلاف الأمامي الداخلي والصفحة الأولى والظهر، ولكنها لم تعثر على اسم. ولمّا احتارت ماذا تفعل به بعد ذلك؛ ألقت الكتاب في حقيبتها وحملته إلى المنزل.

معظم الناس قد ينسون كل شيء بخصوص المسألة، لكن ماريا لم تكن ممَّن يتجنبون الفرص غير المتوقعة، أو يتجاهلون دوافع الصدفة. بحلول الوقت الذي ذهبت فيه إلى الفراش في تلك الليلة، كانت قد توصلت بالفعل إلى خطةٍ لمشروعها التالي. ستكون عمليةً مستفيضة، أكثر صعوبة وتعقيدًا من أي شيء جرّبت فعله من قبل، ونطاقُها الهائل دفعها إلى حالة من الإثارة الشديدة. كانت على يقين من أن صاحب دفتر العناوين رجل؛ خط اليد له لمحة رجولية. وهناك إدخالات لرجال أكثر من النساء؛ والدفتر في حالة رثة وكأنه عومل بقسوة. وفي واحدة من تلك الومضات المفاجئة السخيفة التي

يقع الجميع فريسة لها؛ تخيلت أنه مقدّرٌ لها الوقوع في غرام صاحب الدفتر. لم تدم سوى ثانية أو ثانيتين، لكنها في تلك اللحظة تصورته رجل أحلامها: ساحر، وذكي، وحميم؛ رجل أفضل من أيّ ممن أحبتهم من قبل. تبددت الرؤية، ولكن الأوان قد فات بالفعل. لقد تحوّل الدفتر إلى كائن سحري بالنسبة لها، ومخزن من المشاعر الغامضة والرغبات غير المقصودة. قادتها الصدفة إليه، ولكنه الآن بعد أن أصبح لها، رأت أنه أداة القدر.

درستِ الإدخالات في تلك الأمسية الأولى ولم تجد أيَّ أسماء مألوفة لها. شعرت أن تلك كانت نقطة البداية المثالية. سوف تتحرك في الظلام، وهي لا تعرف شيئًا على الإطلاق، وتتحدث إلى جميع المذكورين في الدفتر واحدًا تلو الآخر. من خلال معرفتهم، ستبدأ في معرفة شيء ما عن الرجل الذي فقده. ستُكوِّن صورة غيابية؛ رسمًا تخطيطيًّا حول مساحة فارغة، وشيئًا فشيئًا ستظهر شخصية من الخلفية، مجمّعةً من كل ما لم يكن عليه. كانت تأمل أن تتعقبه في النهاية بهذه الطريقة، ولكن حتى لو لم تفعل، فسيكون للجهد مكافأته الخاصة. أرادت تشجيع الناس على الانفتاح عليها عندما تقابلهم، أن يخبروها قصصًا عن الافتتان والرغبة والوقوع في الغرام، أن يكشفوا لها أعمق أسرارهم. توقعت العمل على هذه المقابلات لأشهر بما للعبارة معنى، وربما حتى لسنوات. سيكون هناك آلاف الصور لالتقاطها، ومئات الإفادات لكتابتها، وعالمًا بأكمله لاستكشافه. أو هكذا توهمت. كما يظهر، خرج المشروع عن مساره بعد يومٍ واحد فقط.

أُدرج كل شخصٍ في الدفتر تحت اسمه أو اسمها الأخير، باستثناء واحد فقط. على أي حال، تحت حرف «ل»، وُجد إدخال لشخص يدعى «ليلي». افترضت ماريا أنه الاسم الأول للمرأة. إذا كان الأمرُ كذلك؛ فقد يكون هذا الشذوذ الفريد عن نمط الدليل ذا مغزى دلالةً على بعض الألفة الخاصة. ماذا لو كانت ليلي خليلة الرجل الذي فقد دفتر العناوين؟ أو أخته

أو حتى والدته؟ عوضًا عن متابعة الأسماء بالترتيب الأبجدي كما خططت في الأصل، قررت ماريا القفزَ إلى الأمام إلى الحرف «ل» وإجراء مكالمة مع ليلي الغامضة أولًا. إذا كان حدسها صحيحًا فقد تجد نفسها فجأة في وضع يمكّنها من معرفة مَن هو الرجل.

لم تستطعِ الاقتراب من ليلي مباشرة. كثير من الأشياء تتوقف على الاجتماع بها، وكانت خائفة من تدمير فرصها من خلال التورط في ذلك قبل أن تكون مستعدة. كان عليها التعرف على مَن تكون هذه المرأة قبل أن تتحدث معها؛ أن ترى كيف تبدو، وتتبعها لبعض الوقت وتكتشف عاداتها. في صباح اليوم الأول، ذهبت إلى شمال المدينة إلى شرق شارع الثمانينيات لاستكشاف شقة ليلي. دخلت ردهة المبنى الصغير لتفقُّد لوحة الأجراس وصناديق البريد، وبعد ذلك، وما إن بدأت في قراءة قائمة الأسماء على الحائط، خرجت امرأة من المصعد وفتحت الباب الداخلي. التفتت ماريا لتنظر إليها، ولكن قبل أن تتثبت من وجهها، سمعت المرأة تناديها باسمها. ماريا؟ قالتها بصيغة سؤال، وبعد لحظة أدركت ماريا أنها كانت تنظر إلى ليليان شتيرن، صديقتها القديمة من ماساتشوستس.

قالت ليليان: لا أصدق! هذه أنت حقًّا، أليس كذلك؟

لم يريا بعضَهما البعض منذ أكثر من خمس سنوات. بعد أن انطلقت ماريا في رحلتها الغريبة حول أميركا انقطع تواصلهما. لكن حتى ذلك الحين كانتا مقربتين، تعود صداقتهما إلى مرحلة الطفولة. في المدرسة الثانوية، كانتا أشبه برفيقتين متلازمتين، فتاتين لافتتين للنظر تكافحان خلال فترة المراهقة معًا، وتخططان للهروب من حياة البلدة الصغيرة. كانت ماريا هي الجادة، المثقفة الهادئة، التي واجهت صعوبةً في تكوين صداقات؛ بينما كانت ليليان الفتاة ذات الصيت، والجامحة التي تنام بالخارج وتتعاطى المخدراتِ وتهرب من المدرسة. لكل ذلك، كانتا حليفتيْن وطيدتيْن، وعلى الرغم من اختلافاتهما فإنَّ ما يجمعهما أكثر مما يفرقهما.

اعترفتْ لي ماريا مرَّة أن ليليان كانت أسوة رائعة لها، وأنها من خلال معرفتها فقط تعلمت كيف تكون على طبيعتها. لكن يبدو أنَّ التأثير عملَ في كلا الاتجاهين. ماريا هي التي أقنعت ليليان بالانتقال إلى نيويورك بعد المدرسة الثانوية، وخلال الأشهر العديدة التالية، تقاسمتا شقة ضيقة مليئةً بالصراصير في الجانب الشرقي السفلي. بينما اتجهت ماريا إلى دراسة الفنون درست ليليان التمثيلَ وعملت نادلة. بدأت- أيضًا- علاقةً بعازف طبول موسيقى روك أند رول يُدعَى توم، وما إن غادرت ماريا نيويورك في الثمان صارَ من أثاث الشقة الثابت. كتبت إلى ليليان عددًا من البطاقات البريدية خلال عاميها على الطريق، إنما دون عنوان، فلم يكن هناك سبيلٌ لليليان كي تتمكن من الرد. عندما عادت ماريا إلى المدينة فعلت كلَّ ما في وسعها للعثور على صديقتها، لكنَّ ساكنًا آخر بات يشغل شقتها القديمة، ولم تجد إدراجًا لها في دليل الهاتف. حاولتِ الاتصال بوالدي ليليان في هوليوك، لكن يبدو أنهما انتقلا إلى مدينة أخرى، على حين غرَّة صارت يداها صفرًا من الخيارات. وفي الوقت الذي التقت به ليليان في الدهليز في ذلك اليوم، كانت قد فقدت الأمل في رؤيتها مجددًا.

كان لقاءً غير عادي لكليهما. أخبرتني ماريا أنهما صرختا، واحتضنتا بعضهما البعض، ثمَّ انهارتا باكيتين. بمجرد أن تمكنتَا من التحدث مرة أخرى أخذتا المصعدَ إلى الطابق العلوي لتقضيَا بقيةَ اليوم في شقة ليليان. قالت ماريا إنه كان لديهما الكثير لتستدركاه، فتدفقت القصص بينهما. تناولتا الغداء معًا، ثمَّ العشاء، وعندما عادت إلى المنزل وزحفت إلى الفراش كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا.

مرَّت ليليان بأحداث تثير الفضول في تلك السنوات، أمور لم تتصور ماريا أنها ممكنة أبدًا. معرفتي بهما مجرد معلومات غير مباشرة، ولكن بعد التحدث إلى ساكس في الصيف الماضي، أرى أنَّ القصة التي أخبرتْها ماريا كانت دقيقةً

في أساسها. قد تكون مخطئةً بشأن بعض التفاصيل الصغيرة- كما قد يخطئ ساكس أيضًا- ولكن هذا غير مهمٍّ على المدى الطويل. حتى لو أنَّ ليليان ليست محلَّ ثقة على الدوام، وولعُها بالمبالغة واضحًا كما قيل لي، فإن الحقائق الأساسية ليست موضع تساؤل. في وقت لقائها العرضي بماريا في عام 1976، كانت ليليان قد أمضت السنوات الثلاث الماضية في الإنفاق على نفسها بالعمل كبغيّ. تستقبل زبائنها في شقتها في شرق الشارع 87، مستقلة بالعمل لوحدها؛ بدوام جزئي مع مؤسسة مستقلة مزدهرة. كل هذا مؤكد. ما يبقى موضع شكٍّ هو كيف بدأت القصة بالضبط. يبدو أن صديقها توم متورطٌ بطريقة ما، لكن النطاق الكامل لمسئوليته غير واضح. في كلا النسختين من القصة صوَّرته ليليان كمدمن للمخدرات، إدمانه الهيروين هو الذي أخرجَه في النهاية من فرقته. وفقًا للقصة التي سمعتها ماريا، ظلَّت ليليان مغرمة به بشدة. وهي مَن جاءت بالفكرة، متطوعةً بمُعاشرة رجال آخرين في سبيل تزويد توم بالمال. اكتشفت أنَّ الأمر سريع ويسير، وطالما حافظت على إدمانه مستقرًّا وثقتْ أن توم لن يتركها أبدًا. قالت في تلك المرحلة من حياتها، إنها كانت على استعداد لفعل أي شيء للاحتفاظ به، حتى لو عنى ذلك ذهابها هي أيضًا أدراج الرياح. بعد أحد عشَر عامًا، أخبرت ساكس قصةً مختلفةً تمامًا. قالت إن توم هو من أقنعها بذلك، ولأنها كانت خائفة منه لأنه هدَّد بقتلها إذا لم تسايره، لم يكن أمامها خيار سوى الاستسلام. في هذه النسخة الثانية، كان توم هو مَن رتب لها المواعيد، حرفيًّا سمسار فاحشة على خليلته بغرض تغطية تكاليف إدمانه. في النهاية، لا أعتقد أنه من المهم معرفة أي نسخة من القصة الصحيحة. فهما خسيستان بالقدر نفسه، وكلاهما أدى إلى نفس النتيجة. بعد ستة أو سبعة أشهر، اختفى توم في قصة ماريا: هرب مع شخص آخر. بينما في قصة ساكس: مات بسبب جرعة زائدة.

بطريقة أو بأخرى، صارت ليليان وحيدة مجددًا. وبطريقة أو بأخرى، واصلت معاشرة الرجال لتسديد فواتيرها. ما أذهل ماريا هو كيف روت ليليان لها كل شيء دون خجل أو إحراج. كانت مجرد وظيفة مثل أي وظيفة أخرى، على حد قولها، وإذا اقتضتِ الأمور فالمنظرُ أفضل من تقديم المشروبات أو خدمة الطاولات. يسيل لعابُ الرجال أينما ذهبت، ولم يكن هناك ما يمكنها فعلُه لردعهم. كان من المنطقي أن تحصل على أموالٍ لقاء ذلك بدلًا من إبعادهم، وإلى جانب ذلك فإنَّ قليلًا من المضاجعة الإضافية لن تؤذي أحدًا. غالبًا، كانت ليليان فخورةً بمدى إدارتها لشئونها؛ كانت تقابل العملاء ثلاثة أيام في الأسبوع فقط، ولديها أموال في البنك، وتعيش في شقة مريحة في حيٍّ جيد. قبل عامين، التحقت بمدرسة التمثيل من جديد. شعرت أنها باتت تحرز تقدمًا، وفي الأسابيع القليلة الماضية بدأت في التقديم لبعض الأدوار، معظمها في مسارح صغيرة في وسط المدينة. قالت، لن يمر وقت طويل قبل أن يأتي عمل ما في طريقها. بمجرد أن تتمكن من جمع عشرة أو خمسة عشر ألف دولار أخرى، كانت ستنهي عملها كعاهرة تتفرّغ للتمثيل. فهي تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا فقط، والحياة ما تزال أمامها.

أحضرت ماريا كاميرتها في ذلك اليوم، والتقطت عددًا من الصور لليليان خلال الوقت الذي قضينه معًا. عندما أخبرتني القصة بعد ثلاث سنوات، فرشتْ هذه الصور أمامي ونحن نتحدث. لا بد أنه كان هناك ثلاثون أو أربعون صورةً بالحجم الكامل بالأبيض والأسود التقطتْ ليليان من زوايا ومسافاتٍ متنوعة، بعضها وهي متموْضعة وبعضها الآخر لم تكن كذلك. هذه الصور هي لقائي الوحيد مع ليليان شتيرن. مرت أكثرُ من عشر سنوات منذ ذلك اليوم، لكنني لم أنسَ أبدًا تجربةَ النظر إلى تلك الصور. كان الانطباع الذي تركته عليَّ قويًّا ذاك الدوام.

قالت ماريا: إنها جميلة، أليس كذلك؟

- بلى، جميلة للغاية.
- كانت في طريقها للشراء من البقالة عندما التقينا صدفة. أترى ما ترتدينه؟ كنزة، وجينز أزرق، وحذاء رياضي قديم. لباس لإحدى تلك الوثبات التي لا تدوم أكثر من خمس دقائق إلى المتجر على ناصية الشارع والعودة ثانيةً. لا مكياج ولا مجوهرات ولا إكسسوارات. ومع ذلك فهي جميلة بما يكفي لخطف لُبّك.

باحثًا عن تعليل، قلت: إنه غموضها. النساء ذوات الملامح المظلمة لا يحتجن إلى الكثير من المكياج. لاحظي مدى استدارة عينيها. تُبرزها الرموش الطويلة. وعظام وجهها مليحة أيضًا، يجب ألّا ننسى ذلك. العظام تصنع كل الفرق.

- ليس هذا فحسب، يا بيتر. هناك سجيةٌ غائرةٌ ما، تطفو دائمًا على السطح مع ليليان. لا أعرف ماذا أسميها. انبساط، أو بهجة، أو نشاط وحماسة. تجعلها تبدو أكثر حياةً مِن سواها. وما إن تلفت انتباهَك حتى يصير من العسير عليك أن ترفع عينيك عنها.
- ينتابني شعور أنها مرتاحة أمام الكاميرا.
- ليليان مسترخية على الدوام. تعيش حالة وئام مع الذات.

قلّبتُ مزيدًا من الصور ووصلت إلى تسلسلٍ يظهر ليليان وهي تقف أمام خزانة مفتوحة، في مراحل مختلفة من خلع ملابسها. في إحدى الصور، كانت تخلع سروال الجينز الأزرق، وفي أخرى، كانت ترفع بلوزتها، في التالية، لم يبق عليها سوى لباس داخلي أبيض صغير وفانلة بلا أكمام؛ وبعدها.. اختفى اللباس الداخلي، في الصورة التي أعقبتها، اختفت الفانلة أيضًا. تبع ذلك عدةُ صور عارية. في الأولى، كانت تواجه الكاميرا، ورأسها مائل إلى الوراء، وهي تضحك. حوضها مندفع إلى الأمام، وهي تقبضه بكلتا يديها. في الصورة الأخرى، استدارت في الاتجاه الآخر، تقف في الواجهة،

يبرز جانبٌ من وركها وهي تنظر فوق كتفها الآخر صوب الكاميرا، ما تزال تضحك، وهي تطرقُ تموضعَ فتاةَ الجدار الكلاسيكي. ومن الواضح أنها منشية بفرصة التباهي بجسدها.

قلت: هذه صور لاذعة. لم أعلم أنك تلتقطين صورًا أنثوية.

- كنا نستعد للخروج لتناول العشاء، وأرادت ليليان تغيير ملابسها. تبعتُها إلى غرفة النوم حتى نتمكن من مواصلة الحديث، وأنا أحمل كاميرتي معي، وعندما بدأت في خلع ملابسها، أخذتُ المزيد الصور. حدث ذلك من فوره. لم أكن أخطط للقيام بذلك حتى رأيتها تتجرد من ثيابها.
- ولم تمانع؟
- وهل يبدو أنها تمانع!
- هل تهيّأ لك عرض دفتر العناوين عليها؟
- أظن أن ذلك حدث بعد عودتنا من المطعم. أمضت ليليان وقتًا طويلًا في تفحصه، لكنها لم تتمكن تحديد مَن يخص. لا بد أنه عميل ما؛ فليلي هو الاسم الذي استخدمته في عملها، لكن ما عدا ذلك لم تكن متأكدة تمامًا.
- ومع ذلك، فقد ضاقت قائمة الاحتمالات.
- صحيح، لكن ربما لم يكن شخصًا التقته. عميلٌ مرتقبٌ، على سبيل المثال. ربما قام أحد عملاء ليليان الراضين بتمرير اسمها إلى شخص آخر؛ صديق، أو زميل في العمل، من يدري؟ هكذا حصلت ليليان على عملائها الجدد، عن طريق الإحالة الشفهية. دوّن الرجل اسمَها في دفتره، لكن هذا لا يعني أنه تواصل معها. ولعل مَن مرَّر له اسمها لم يتصل بها أيضًا. هكذا تُتداول البغايا؛ تنتشر أسماؤهن في دوائر مركزية، وشبكات معلومات شاذة. بالنسبة لبعض الرجال، يكفي

حمل اسم أو اثنين في دفاترهم السوداء الصغيرة؛ لمزيد من الدراسة- إن صحَّ القول- أو في حال هجرتهم زوجاتهم، أو لنوباتٍ مفاجئةٍ من الهياج الجنسي أو الإحباط.

- أو عندما يتصادف مرورُهم بالمدينة.

- بالضبط.

- ومع ذلك، لديكِ القرائن الأولى. قبل ظهور ليليان، جاز أن يكون مالك الكتاب أي شخص. صار بين يديك، على الأقل، فرصة الانقضاض.

- أفترض ذلك. لكن الأمور لم تسرْ على هذا النحو. ما إن بدأتُ التحدث إلى ليليان، تغيّر المشروع بأكمله.

- تقصدين أنها لن تمدّك بقائمة عملائها؟

- لا، لا شيء من هذا القبيل. كانت ستجيبني إن طلبت منها ذلك.

- ماذا إذًا؟

- لست متأكدةً تمامًا من كيفية حدوث ذلك، ولكن كلما تحدثنا أكثر، أصبحت خطتنا أكثر تحديدًا. لم تنبثق من أي منّا، فقد كانت تطفو في الهواء، كما لو أنها موجودة بالفعل. أعتقد أنَّ لقاءنا كان لها علاقة كبيرة بهذا الأمر، فقد كان كل شيء رائعًا وغير متوقع، كما لو أنَّ أرواحنا كانت تجلس قربنا. عليك أن تفهم مدى قربنا. صديقتان حميمتان، أختان، رفيقتان مدى الحياة. اعتنينا حقيقةً ببعضنا البعض، وكنت أظن أنني أعرف ليليان كما أعرف نفسي. ثمَّ ماذا حدث؟ بعد خمس سنوات اكتشفت أن أعزَّ صديقاتي صارت مومسًا. صعقني الخبر، وشعرت بالسوء حياله، كما لو أني تعرضت للخيانة. ليليان لم تتغير. كانتِ الطفلة الرائعة نفسها التي لطالما عرفتها؛ مجنونة، حافلة بالشيطنة، حضورها مشوق. لم ترَ نفسها عاهرة أو ساقطة،

كان ضميرها مرتاحًا. كان ما أثار إعجابي كثيرًا هو حريتها الداخلية المطلقة، والطريقة التي عاشت بها وفقًا لقواعدها الخاصة وعدم اكتراثها بما يعتقده الآخرون. عندئذ كنتُ قد قمت بالفعل ببعض الأشياء الجامحة إلى حد ما. في مشروع نيو أورلينز، ومشروع «السيدة العارية»، كنت أدفعُ نفسي أبعد قليلًا في كلِّ مرَّة، وأختبرُ حدود ما كنتُ قادرةً عليه. لكنني إزاء ليليان شعرت بأنني أمينة مكتبةٍ عانس، عذراء مثيرة للشفقة لم تفعل الكثير. قلت لنفسي: إن كانت تتمكنُ من فعل ذلك، فلماذا لا أستطيع؟

- تمزحين!

- انتظر، دعني أُكمل. كان الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. عندما أخبرتُ ليليان عن دفتر العناوين والأشخاص الذين سأتحدث معهم، رأت أنه أمر رائع، أعظم شيء سمعَته على الإطلاق. رغبت بمساعدتي. أرادت أن تتجول وتتحدث إلى الأشخاص الموجودين في الدفتر، تمامًا كما كنت سأفعل. تذكّر أنها كانت ممثلة، وفكرة انتحال هويتي حرّكتها، وكانت مصدرَ إلهام إيجابي.

- لذا تبادلتما الأدوار. هل هذا ما تحاولين إخباري به؟ أقنعتكِ ليليان بتبادل الأدوار معها.

- لا واحدة أقنعتِ الأخرى بأي شيء. قررنا ذلك معًا.

- ومع ذلك...

- لا شيء بعد ذلك. كنا شريكتين متساويتين من البداية إلى النهاية. والحقيقة هي أن حياة ليليان تغيرت بسبب ذلك؛ فقد وقعت في غرام أحد الأشخاص الموجودين في الدفتر وانتهى بها الأمر بالزواج منه.

- هنا يزداد الأمر غرابة.

- كان الأمر غريبًا حقًّا. خرجت ليليان بإحدى كاميراتي ودفتر العناوين، وكان الشخص الخامس أو السادس الذي رأته هو الرجلَ الذي أصبح زوجها. كنت أعرف أن هناك قصة مخبأة في هذا الكتاب، لكنها كانت قصة ليليان لا قصتي.
- هل قابلتْ هذا الرجل بالفعل؟ ألم تكن تختلقه؟
- لقد كنتُ شاهِدَتها في حفل الزفاف في قاعة المدينة. على حد علمي، لم تخبره ليليان أبدًا كيف كانت تكسب رزقها، لمَ عليه أن يعرف؟ إنهما يسكنان الآن في بيركلي، كاليفورنيا. هو مدرس جامعي، رجل لطيف بشكل مذهل.
- وكيف سارت الأمور معك؟
- بشكل سيئ. بشكل سيئ كليًّا. في نفس اليوم الذي خرجت فيه ليليان بكاميرتي الاحتياطية، كان لديها موعد بعد الظهر مع أحد عملائها الدائمين. وعندما اتصل ذلك الصباح للتأكيد، أخبرتْه أن والدتها مريضة وأنَّ عليها مغادرة المدينة، وأنها طلبتْ من صديقةٍ أن تحل محلها، وإذا لم يكن يمانع في رؤية شخص آخر هذه المرة فقط، فهي تضمن أنه لن يندم على ذلك. لا يمكنني تذكُّر كلماتها تحديدًا، ولكن هذا هو السياق العام. مهّدتْ الأمر لي، وبعد شيء من الإقناع بالحُسنى سايرها الرجل. وهكذا صرت جالسةً وحدي في شقة ليليان بعد ظهر ذلك اليوم، في انتظار رنين جرس الباب، أستعدُّ مع رجل لم أرَه من قبل. كان اسمه جيروم، رجلٌ بحترٌ ممتلئ، في الأربعينيات من عمره، يغطي الشعرُ جسمه حتى مفاصل أصابعه، وأسنانه صفراء. كان بائعًا ما. أظن أنه بائع خمور بالجُملة، ولكن حتى لو كان بائع أقلام رصاص أو أجهزة كمبيوتر، فهذا لا يُحدث أي فرق. قرع جرس الباب في الثالثة تمامًا، وما إن ولج

الشقة، أدركت أنه لا يمكنني الاستمرار في المسألة. لو أنه وقع في منتصف الطريق إلى الجاذبية لكنت حاولتُ استجماع شجاعتي، لكن مع «ساحر» مثل جيروم لم يكن ذلك ممكنًا. كان في عجلة من أمره واستمرَّ في النظر إلى ساعته، متلهفًا للانقضاض والخروج السريع. جارَيْتُه، غير عارفةٍ ما أفعلُ سوى ذلك، محاوِلةً التفكير في شيء ما ونحن ندخل غرفة النوم. كان الرقص في البار شيئًا مختلفًا، بينما الوقوف هناك مع بائع مشعر سمين من الالتصاق بمكان، بحيث لم أستطع حتى النظر في عينيه. كنت قد أخفيت كاميرتي في الحمام، وتصورت أنه لو قُدِّر لي الخروج بصورٍ من هذه النكبة، فيتعيّن عليَّ التحرك من فوري؛ لذا استأذنتُ وهُرعت إلى المرحاض، تاركةً فرجة صغيرة في الباب. قمتُ بفتح كل الحنفيات في الحوض، وأخرجتُ الكاميرا المعدّة، وبدأت في التقاط صورٍ لغرفة النوم. كان لدي زاوية مثالية. بإمكاني رؤية جيروم عاريًا على السرير. كان مقرفًا، إلا أنَّه كان مضحكًا بصورةٍ ما كذلك، وكنت مبتهجةً بوضعه في فيلم. تصوّرتُ أنه سيكون هناك وقت لعشر صورٍ أو اثنتي عشرة صورة، ولكن بعد أن التقطت ستًّا أو سبعًا منها نطّ جيروم فجأة من السرير، ومشى إلى الحمام، وفتح الباب قبل أن تتاح لي الفرصة لغلقه. عندما رآني واقفة هناك والكاميرا في يدي أصيب بالجنون. أعني فقد صوابه كليًّا. بدأ بالصراخ متهمًا إياي بالتقاط الصور لابتزازه وإفساد زواجه، وقبل أن أنتبه انتزعَ الكاميرا منّي وحطَّمها في حوض الاستحمام. حاولتُ الفرار بجلدي، ولكنه أمسك بذراعي قبل أن أتمكن من الخروج، ثم بدأ بضربي بقبضتيه. كان ذلك كابوسًا. اثنان من الغرباء العراة يتلاطمان في حمام من القرميد الوردي. استمر في النخير والشتائم وهو يضربني صارخًا بأعلى صوته، ثم هبط عليَّ بلطمة أسقطتني. إن كنتَ لا تستطيع

تصديقَ ذلك فقد كسر فكّي. لكن هذا لم يكن سوى جزء بسيط من الضرر. كان معصمي مكسورًا، واثنان من أضلعي متصدعين، وكدمات في جميع أنحاء جسدي. قضيت عشرة أيام في المستشفى، وبعد ذلك أُغلق فكي بالأسلاك لمدة ستة أسابيع. ضربني جيروم القصير إلى أن صرتُ عجينة. لقد لقنني درسًا لن أنساه ما حييت.

***

عندما قابلتُ ماريا في شقة ساكس عامَ 1979، لم تكن قد ضاجعت رجلًا لما يقرب من ثلاث سنوات. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تتعافى من صدمة الضرب، ولم يكنِ الامتناع عن المضاجعة خيارًا بقدر ما هو ضرورة؛ فهو العلاج الوحيد الممكن. بموازاة الإذلال الجسدي الذي تعرضت له، كانت حادثة جيروم بمثابة هزيمة روحية. ماريا غدت متبتّلةً لأول مرة في حياتها. تخطت الحدود الممكنة لنفسها، فغيّرت حدةُ تلك التجربة من تقديرها لذاتها. حتى ذلك الحين، كانت تتخيل نفسها قادرةً على أي شيء؛ أية مغامرة، أي تجاوز، أي عمل جريء. شعرت بأنها أقوى من الآخرين، محصنة ضدَّ الدمار والفشل الذي يصيب بقية البشر. بعد المبادلة مع ليليان علمت أنها خدعت نفسها بقسوة؛ اكتشفت أنها ضعيفة، شخصية محاصرة بمخاوفها وقيودها الداخلية، وأنها فانية ومرتبكة كأي إنسان آخر.

استغرق الأمر ثلاثَ سنوات لإصلاح الضرر (بقدر ما يمكن إصلاحه)، وعندما تقاطعت أقدارنا في شقة ساكس في تلك الليلة، كانت مستعدةً إلى حدٍّ ما للخروج من قوقعتها. إن كنتُ الشخصَ الذي عرضت عليه جسدها فذلك فقط لأن وجودي تصادف في اللحظة المناسبة. سخرتْ ماريا دائمًا من هذا التفسير، مصرةً على أنني الرجل الوحيد الذي يمكنها السعي وراءه، لكنني سأكون مجنونًا إذا توهَّمت أن السبب في ذلك هو أنني أمتلك أي سحر خارق للطبيعة. كنت مجرد رجلٍ واحد من بين العديد من الرجال المحتملين،

وبضاعة تالفة إن صَدَقْتُ نفسي، وإن كنتُ مطابقًا لما كانت تبحث عنه في ذلك الوقت، فهذا خيرٌ لي. كانت هي مَن وضعت قواعد صداقتنا، وتمسكتُ بها قدر المستطاع، شريكًا مطواعًا لأهوائها ونزواتها. تلبيةً لطلب ماريا، وافقت على ألا نبيتَ معًا ليلتين متتاليتين. وعلى ألّا أتحدث معها أبدًا عن أي امرأةٍ أخرى. وافقتُ على أنني لن أطلب منها أبدًا أن تقدمني إلى أيٍّ من أصدقائها. قبلتُ التصرفَ كما لو كانت علاقتنا سرية، دراما مختلسة يجب إخفاؤها عن بقية الناس. لم تزعجني أيٌّ من هذه القيود. ارتديت الملابس التي أرادت ماريا أن أرتديها، وتسامحتُ وشهيتها لأماكن اللقاء الغريبة :أكشاك تذاكر المترو الخاوية، صالات المراهنة في الطريق، حمامات المطاعم. أكلت الوجبات منسقة الألوان نفسها التي تناولَتْها. كل شيء يلعب لصالح ماريا، ودعوةٌ إلى الاختراع المستمر، ولا فكرة مألوفة بحيث لا يمكن تجربتها إلا مرة واحدة. تطارحنا الغرام تحت الأضواء وفي الظلام، داخل البيت وخارجه. ارتدينا الشملات الرومانية الفضفاضة، وثياب إنسان الكهوف، وبدلات التوكسيدو المستأجرة. مثّلنا بأننا غرباء، وتظاهرنا بالزواج. لعبنا دور الطبيب والممرضة، والنادلة والزبون، والمعلم والطالب. جلُّ ما جرى طفوليّ إلى حدٍّ ما، لكن ماريا أخذت هذه المغامرات على محمل الجد، لا رغبةً في التجديد؛ بل كتجارب ودراسات في الطبيعة المتغيرة للذات. ولو لم تكن جادةً بشأنها، أشك في أنه كان بمقدوري مواكبتها بالطريقة التي فعلت. رأيت نساءً أخريات حينها، لكن ماريا هي الوحيدة التي عنت لي، والوحيدة التي لا تزال جزءًا من حياتي حتى اليوم.

في أيلول من ذلك العام، 1979، اشترى شخص ما أخيرًا المنزل في مقاطعة دوتشيس، وعادت ديليا وديفيد إلى نيويورك، واستقرا في شقة من مباني الحجر البني في قسم كوبل هيل من بروكلين. جعل هذا أموري أفضل وأسوأ في آن معًا. صرت قادرًا على رؤية ابني بوتيرة أكبر، ولكن هذا كان يعني- أيضًا- المزيد من الاتصالات مع التي ستصبح قريبًا زوجتي السابقة.

إجراءات طلاقنا كانت تسير على قدم وساق بحلول ذلك الوقت، إلا إنَّ ديليا كانت تساورها المخاوفُ والظنون، وفي تلك الأشهر الأخيرة قبل إمضاء الطلاق، قامت بمحاولة مُضمَرة وفاترة لاستعادتي. لو لم يكن ديفيد في الصورة لتمكنتُ من مقاومة هذه الغارة دون مشاكل. لكن الواضح أن الصبي يعاني من أثر غيابي، كما حمّلتُ نفسي مسئولية أحلامه السيئة، وصراعه مع نوبات الربو، وبكاءه. الشعور بالذنب أداةُ إقناعٍ نافذة، وديليا تضغط بشكلٍ غريزيٍّ على كل الأزرار الصحيحة كلما صرت في الجوار. ذات مرة، على سبيل المثال، أثناء زيارة رجل كانت تعرفه لتناول العشاء في منزلها، أبلغتني أن ديفيد زحف إلى حِجْره وسأله عما إذا كان سيغدو والدَه الجديد. لم تكن ديليا تلقي بهذه الحادثة في وجهي، فقد كانت ببساطة تُشاركني مخاوفها، لكنني كلما سمعتُ قصةً أخرى من هذه القصص كنتُ أغوص أعمق قليلًا في رمال الندم المتحركة. لا تكمن المسألة في رغبتي بالعيش مجددًا مع ديليا، لكنني تساءلت عما إذا كان يجب عليّ أن أوطّن نفسي على ذلك، لو لم يكن مقدرًا لي الزواج بها برغم كل شيء. لقد قدّرتُ مصلحة ديفيد أكثر من مصلحتي، ومع ذلك كنت أتخفّى لما يقرب من عام كالأبله مع ماريا تيرنر والأخريات، متجاهلًا كل فكرةٍ تتعلق بالمستقبل. كان من الصعب عليّ تبريرُ هذه الحياة لنفسي. جادلتُ أن السعادة لم تكن الشيء الوحيد المهم. ما إنْ تصير أبًا حتى تغدو هناك واجبات لا يمكن التنصل منها، والتزامات يجب الوفاء بها، أيًا تكن التكلفة.

فاني هي التي أنقذتني مما قد يبدو قرارًا فظيعًا. أستطيع القطع بذلك الآن في ضوء ما حدث لاحقًا، ولكن في ذلك الوقت لم يكن هناك شيء واضح لي. عندما انتهى عقد إيجاري في شارع ڤاريك، استأجرت شقة على بُعد ستة أو سبعة مبانٍ فقط من مسكن ديليا في بروكلين. لم أكن أنوي الاقتراب منها كثيرًا، لولا أنَّ مانهاتن باهظةٌ علي، وما إن بدأت البحث على الجانب الآخر من النهر تبينَ أن كل شقة عُرضتْ عليّ تقع في حيّها. انتهى بي المطاف في غرفة

أرضية رثة في حدائق كارول، أُجْرتها مقبولة، وغرفة النوم واسعة بما يكفي لسريرين، واحد لي والآخر لديفيد. صار يقضي ليلتين أو ثلاثًا من الأسبوع معي، كان تغيُّرًا جيدًا في حد ذاته، لكنه دفعني إلى موقفٍ محفوفٍ بالمخاطر مع ديليا. لقد سمحت لنفسي بالعودة إلى دائرتها، وشعرتُ أن عزمي يتردّد. بصدفةٍ منكودة، غادرتْ ماريا المدينة لمدة شهرين خلال فترة انتقالي، وسافر ساكس إلى كاليفورنيا للعمل على سيناريو «التمثال الجديد». اشترى منتجٌ مستقل حقوقَ إنتاج فيلم عن روايته، وتعاقد مع ساكس لكتابة السيناريو بالتعاون مع سيناريست مُحترف يقيم في هوليوود. سأعود إلى تلك القصة لاحقًا، لكن المهم الآن أنني كنتُ وحدي عالقًا في نيويورك من غير صحبتي المعتادة. غدَا مستقبلي كله موضعَ تساؤلٍ من جديد، وكنت بحاجةٍ إلى من أتحدث معه، وأفكر معه بصوتٍ عالٍ.

ذات ليلة، في شقتي الجديدة، اتصلت بي فاني ودَعَتني إلى العشاء. افترضتُ أنها ستكون واحدة من حفلاتها المعتادة، مع خمسة أو ستة ضيوف آخرين، لكن عندما حضرت إلى منزلها في المساء التالي، اكتشفتُ أنني كنت المدعو الوحيد. فاجأني الأمر؛ فطوال السنوات التي عرفنا فيها بعضنا البعض، لم نقضِ أنا وفاني أي وقتٍ بمفردنا. كان بن موجودًا دائمًا، وباستثناء اللحظات النادرة عندما يغادر الغرفة أو يُستدعى إلى الهاتف، بالكاد تحدثنا إلى بعضنا البعض دون أن يستمع شخصٌ آخر إلى حديثنا. لقد اعتدتُّ على هذا الترتيب، ولم أعد أُزعج نفسي بالنظر فيه. لطالما كانت فاني شخصيةً قصيّةً ومثالية بالنسبة لي، وبدا من المناسب أن تكون علاقتنا غيرَ مباشرة، ويتوسط فيها الآخرون على الدوام. على الرغم من المودة التي نشأت بيننا إلا أنني مازلت أشعر بالتوتر قليلًا من وجودي معها. تهيُّبي كان يجعلني متقلبًا إلى حد ما، حتى إني كنت أخرج عن سجيّتي محاولًا إضحاكها، ألقي النكات السخيفة والتوريات الفظيعة، مترجمًا ارتباكي إلى طيشٍ ومداعباتٍ طفولية. كل هذا أزعجني لأنني لم أتصرف أبدًا بهذه الطريقة مع أي شخص

آخر. أنا لست شخصًا فكِهًا، وأعرف أنني كنت أعطيها انطباعًا خاطئًا عن شخصيتي، لكن لم أفهم حتى تلك الليلة لماذا أخفيتُ نفسي دائمًا عنها. بعض الأفكار خطيرة للغاية، وعليك ألّا تسمح لنفسك بالاقتراب منها.

أتذكر البلوزةَ الحريرية البيضاء التي ارتدتها ذاك المساء واللؤلؤ الأبيض حول عنقها الأسمر. أعتقد أنها لاحظتْ كم كنتُ في حيرةٍ من دعوتها، لكنها تظاهرتْ بالجهل، وتصرفتْ كما لو أنه من الطبيعي تمامًا أن يتناول الأصدقاء العشاء هكذا. ربما كان ذلك، ولكن ليس من وجهة نظري، خاصة بسبب تاريخ المراوغات القائمة بيننا. سألتُها إن كان هناك أي أمرٍ خاص ترغب في الحديث عنه. أجابت بالنفي، وأنها رغبت فقط برؤيتي. أنها كانت تعمل بجد منذ أن غادر بن المدينة، وعندما استيقظتْ صباح أمس شعرتْ فجأة أنها تفتقدني، وهذا كل شيء. افتقدتني وأرادت أن تسأل عن حالي.

بدأنا بالشراب في غرفة المعيشة، وتحدثنا في الغالب عنْ بن في الدقائق القليلة الأولى. ذكرتُ رسالةً كتبها لي في الأسبوع السابق، ثم ذكرتْ فاني محادثةً هاتفيةً أجرتها معه في وقت سابق من ذلك اليوم. قالت إنها لم تصدّق أن الفيلم سيُنجز على الإطلاق، لكن بن كان يكسب أموالًا وفيرة لقاء السيناريو، لا بد لها أن تساعد. كان المنزل في ڤيرمونت بحاجة إلى سقف جديد، وربما يمكنهما المضيُّ به قُدمًا قبل انهيار المنزل القديم. ربما تحدثنا عن ڤيرمونت بعد ذلك، أو عن عملها في المتحف، لا أتذكر. بحلول الوقت الذي جلسنا فيه لتناول العشاء، كنا قد تحوّلنا بطريقةٍ ما إلى كتابي. أخبرتُ فاني أنني مازلت أحرز تقدمًا، ولكن أقل من ذي قبل، فعدة أيام في الأسبوع تذهب الآن بالكامل إلى ديفيد. قلت إننا نعيش مثل اثنين من العزاب الهرمين؛ نتجول في الشقة بالشباشب، ندخن الغليون في المساء، نتحدث عن الفلسفة على كأس من البراندي ونحن نتأمل الجمر في الموقد.

قالت فاني: تشبهان هولمز وواتسون إلى حد ما.

- نكاد نصل إلى هناك. فأنا واثق من أننا ستكون بين أيدينا أمور أخرى للتعامل معها.
- أو أسوأ.
- بالطبع يمكن أن تسوء الأمور. ولكنك لا تسمعينني أشتكي، أليس كذلك؟
- هل عرّفته على أيٍّ من صديقاتك؟
- ماريا، على سبيل المثال؟
- مثلًا.
- فكرتُ في الأمر، ولم أجد الوقت المناسب. ربما لأنني لا أريد ذلك. أخشى أن يرتبك.
- وماذا عن ديليا؟ هل كانت تقابل رجالًا آخرين؟
- أعتقد ذلك، لكنها ليست صريحة بشأن خصوصياتها.
- أظنكما تتعادلان في ذلك.
- لا يمكنني الجزم. من المظهر العام للأمور الآن تبدو سعيدةً إلى حد ما لأنني انتقلت إلى حيِّها.
- يا إلهي! أنت لا تشجِّع هذا، أليس كذلك؟
- لست متأكدًا. ولا يبدو أنني على وشك الزواج بامرأة أخرى.
- ديفيد ليس سببًا كافيًا يا بيتر. إذا عدت إلى ديليا الآن ستبدأ في كُره نفسك. ستتحول إلى رجل عجوز ساخط.
- ربما هذا ما أنا عليه بالفعل.
- كلام فارغ.
- أحاول ألا أكون كذلك، لكن من الصعب عليّ النظر إلى الفوضى التي أحدثتُها دون الشعور بالغباء الشديد.

- أنت تشعر بالمسئولية، هذا كل شيء. وهي تسحبك في اتجاهات متعاكسة.
- عندما أغادر، أقول لنفسي إنه كان يجب أن أبقى. وعندما أبقى أقول لنفسي كان ينبغي أن أغادر.
- يطلقُ على هذا الإحساس التناقض الوجداني.
- من بين أشياء أخرى. ولكن إن كان هذا هو المصطلح الذي تريدين استخدامه فسأدعه يصمد.
- أو كما قالت جدتي لوالدتي ذات مرة: (سيكون والدُك رجلًا رائعًا، لو أنه كان رجلًا مختلفًا فقط).
- هاه!
- نعم، هاه. سيرةٌ كاملةٌ من الألم والمعاناة اختزلت في جملةٍ واحدة.
- الزواج مستنقع. تمرين في خداع الذات يستمر مدى الحياة.
- أنت لم تقابل الشخص المناسب بعد، يا بيتر، ليس إلا. عليك أن تمنح نفسَك المزيد من الوقت.
- أنت تقولين إنني لا أعرف ما هو الحب الحقيقي. وبمجرد أن أفعل سوف تتغير مشاعري. إنه لطف منك أن تظني ذلك، لكن ماذا لو لم يأتِ أبدًا؟ ماذا لو أنه غير مقدرٍ لي؟
- إنه كذلك، أنا أضمن ذلك.
- وما الذي يجعلك على يقين من ذلك؟

أمسكَتْ فاني للحظة، ووضعت سكينها وشوكتها، ثم مدت يدَها عبر الطاولة وأمسكت بيدي.

- أنت تحبني، أليس كذلك؟

قلت: بالطبع أنا أحبك.

- لقد أحببتني على الدوام، أليس كذلك؟ منذ اللحظة الأولى التي وقعت بها عينيك علي. أهذا صحيح؟ أحببتني كل هذه السنوات، ومازلت تحبني الآن.

جذبتُ يدي بعيدًا وأنا أنظرُ إلى الطاولة، يغلبني الإحراج. «ما هذا؟» سألتُ. «اعترافٌ بالإكراه؟».

- لا، أنا فقط أحاول إثباتَ أنك تزوجت بالمرأة الخطأ.
- أنت متزوجةٌ برجل آخر، أتذكرين؟ كنتُ أفكر دائمًا أن هذا أبعَدَكِ عن قائمة المرشحات.
- أنا لا أقول إنه كان عليك أن تتزوجني. لكن لم يكن عليك الزواج بمَن تزوجت.
- أنت تدورينَ في حلقة مفرغة، يا فاني.
- الأمر واضح تمامًا. أنت فقط لا تريد أن تفهم ما أقول.
- لا، هناك عيب في حجتك. أوافقك أن الزواج من ديليا كان خطأ. لكن حبي لك لا يُثبت أنني أستطيع أن أحب شخصًا آخر. ماذا لو كنتِ المرأة الوحيدة التي يمكنني أن أحبها على الإطلاق؟ أسأل من ناحيةٍ افتراضيةٍ، بالطبع، لكنها نقطة حاسمة. إن كان هذا صحيحًا فإن حجتك لا معنى لها.
- الأمور لا تسير بهذه الطريقة، يا بيتر.
- هذه هي الطريقة التي تسير بها بينك وبين بن. لماذا تستثنين نفسكِ؟
- أنا لا أفعل.
- وما يفترض أن يعني ذلك؟
- لست مضطرةً إلى البوح لك بكل شيء، أليس كذلك؟
- عليكِ أن تسامحيني، لكنني بدأتُ أشعر بالحيرة. لو لم أكن أعلم أني أتحدث إليك أنتِ؛ لأقسمت أنكِ كنتِ تترددين إليّ.

- هل تقول إنك تمانع؟
- فاني، أنت متزوجة من أعز أصدقائي!
- بن لا علاقة له بهذا الأمر. هذا بيننا حصرًا.
- لا، ليس كذلك. له علاقة به.
- وماذا تعتقد أن بن يفعل في كاليفورنيا؟
- إنه يكتب سيناريو فيلم.
- نعم، إنه يكتب سيناريو فيلم. ويضاجع فتاة اسمه سينثيا.
- أنا لا أصدقك.
- لم لا تتصل به وتكتشف بنفسك؟ فقط اسأله. سيقول لك الحقيقة. فقط قل: أخبرتني فاني أنك تضاجع فتاة تدعى سينثيا؛ ماذا تقول أيها العجوز؟ سيعطيك إجابة مباشرة، وأنا أعلم أنه سيفعل ذلك.
- برأيي أنه من الخطأ إجراء هذه المحادثة.
- ثم اسأله عن الأخريات قبل سينثيا؛ غريس على سبيل المثال، ونورا ومارتين وڤال. هذه هي الأسماء التي تتبادر إلى الذهن أولًا، ولكنك إذا أمهلتني دقيقة، فسأتذكر المزيد. صديقك كلبُ جماع، يا بيتر. أنت لم تعرف ذلك عنه أبدًا، أليس كذلك؟
- لا تتحدثي بهذه الطريقة؛ إنها مقرفة.
- أنا فقط أعطيك الحقائق. ليس الأمر كما لو أن بن يخفيها عني. لقد حصل على إذنٍ منّي، كما ترى. يمكنه فعل أي شيء يريده، ويمكنني فعل أي شيء أريده.
- ولماذا تُبقيان على الزواج، إذًا؟ إن كان كل هذا صحيحًا، فلا داعي لأن تبقيا معًا.
- لأننا نحب بعضنا البعض، هذا هو السبب.
- لا يبدو الأمر كذلك.

- ولكنه صحيح. هذه هي الطريقة التي رتّبنا بها الأمور. إذا لم أمنح بن حريتَه فلن أتمكن من الاحتفاظ به.
- زوجك يجري هنا وهناك وأنت جالسة في مكانك، تنتظرين عودة زوجك الضال إلى المنزل مرة أخرى. بالنسبة لي لا يبدو الأمر عادلًا.
- إنه عادل؛ عادلٌ لأني أقبله، لأنني سعيدة به. حتى لو اقتصدتُّ باستخدام حريتي، فهي لا تزال حريتي، لا تزال ملكًا لي. حقي الذي يمكنني ممارسته أنّا شئت.
- مثل الآن.
- هو كذلك، يا بيتر. ستحصل أخيرًا على ما كنت تتمناه دائمًا. وليس عليك الشعور بأنك تخون بن. ما يحدث الليلة هو بيني وبينك حصرًا.
- قلتِ ذلك من قبل.
- ربما استوعبتَ الأمر بشكل أفضل قليلًا الآن. لستَ مضطرًّا إلى تعقيده. إن كنت تريدني يمكنك الحصول علي.
- هكذا؟
- نعم، تمامًا هكذا.

وجدتُّ إصرارها مرهقًا ومستغلقًا عليّ. لو لم يطرح بي لكنتُ قمتُ عن الطاولة وغادرت، لكنني بقيت على حالي، جالسًا في مقعدي ولم أنبس ببنت شفة. بالتأكيد رغبتُ في مواقعتها. كانت تعرف ذلك على الدوام، والآن بعد أن جرت تعريتي، وبعد أن تحول سرّي إلى اقتراحٍ فاضحٍ ومبتذل؛ لم أعد أعرفها. فاني أصبحت امرأة أخرى، وبن أصبح رجلًا آخر. في بحر محادثة قصيرة واحدة، انهار كل يقين لديّ في هذا العالم.

أمسكت فاني بيدي مرَّة أخرى، وبدلًا من محاولة ثنْيها أجبتُ بابتسامة واهنةٍ خجولة. لا بد أنها فسَّرت ذلك على أنه استسلام، وقفت عند كرسيها للحظة ثمَّ سارت حول الطاولة إلى حيث كنت جالسًا. شرّعتُ لها ذراعيّ، ودون أن أنبس بكلمةٍ رمت نفسها في حضني.

واصلنا على هذا المنوال في الأسابيع الثلاثة التالية. من فورها، صارت فاني قابلة للتمييز من جديد؛ مركز ثباتٍ محفوفًا بالحميمية والألغاز. لم تعد كما كانت من قبل، لكن ليس بأي من الطرق التي صعقتني تلك الليلة الأولى، ولم تتكرر الشراسة التي أظهرتها ليلتها أبدًا. بدأتُ أنسى كل شيء عنها، في محاولةٍ لترويض نفسي على علاقاتنا المعدّلة، وعلى الاندفاع المستمر للرغبة. بن لا يزال خارج المدينة حينها، وباستثناء الليالي التي يبيت فيها ديفيد معي، أمضيتُ الأماسي في منزله، أنام في سريره.

افترضتُّ أن زواجي من فاني أمرٌ مفروغ منه. حتى لو عنى ذلك تدمير صداقتي مع ساكس، كنت على استعدادٍ تامٍّ للمُضي قُدمًا في ذلك. لكن في الوقت الحالي، احتفظتُ بهذا الإدراك لنفسي. كنت لا أزال متهيّبًا من فورة مشاعري، ولم أرغب في إجهادها بالحديث قبل الأوان. على أي حال، هذه هي الطريقة التي بررتُ بها صمتي، ولكن الحقيقة هي أن فاني أظهرت القليلَ من الميل للحديث عن أي شيء سوى الأمور اليومية، وتدابير اللقاء التالي. كانت ممارساتنا صامتةً ومكثفة، وإغماءة نشوة إلى أعماق الخدر التام.

تخيلتُنا، فاني وأنا، ننشئُ منزلًا في حي آخر نُمضي فيه بقية حياتنا. رأيت زوابعَ ومشاهد حادة ومبارزاتِ زعيقٍ هائلة مع ساكس قبل أن يحدث أي من هذا. تخيلتُها تنتهي بصفعاتٍ ولكمات. وجدتُّ نفسي مستعدًّا لأي شيء، وحتى فكرة المواجهة مع صديقي لم تصدمني. ضغطتُّ على فاني للتحدث عنه، متلهّفًا لسماع مَظلمتها من أجل تبرئة نفسي في عينيّ. إذا تمكنت من إثبات كوْنه زوجًا سيئًا فإنَّ خطتي للظفر بها ستأخذ أهميةَ وقدسيةَ الغرض

الأخلاقي. لن أسرقها، سأنقذُها، وسيظل ضميري مرتاحًا. ما كنتُ ساذجًا فلم أستوعبه هو أن البغض يمكن أيضًا أن يكون بُعدًا من أبعاد الحب. عانتْ فاني من السلوك الجنسي لـ بن. كانت ضلالته وآثامه مبعث ألمٍ دائمٍ لها، ولكن ما إن بدأتْ تأتَمِنُني على هذه الأشياء حتى صارت المرارةَ التي توقعتُ سماعها لا تتخطّى الانتقادَ البسيط. بدا كما لو أن مصارحتي بهذه الأمور تخففُ بعض الضغط عنها، والآن بعد أن ارتكبت خطيئة من جانبها، لعلها كانت قادرة على العفو عن الذنوب التي ارتكَبَها بحقّها. كان هذا هو اقتصاد العدالة، إذا جاز التعبير؛ المقايضة التي تحول الضحية إلى جلاد، الفعل الذي يعدل الميزان. في النهاية، عرفتُ الكثير عن ساكس من فاني، لكنها لم تزودني أبدًا بالذخيرة التي أبحث عنها. لو أنها أتتْ بنتيجة، فقد كان لإفصاحاتها تأثيرٌ معاكس. ذات ليلة، على سبيل المثال، عندما بدأنا الحديث عن الوقت الذي أمضاه في السجن، اكتشفتُ أن تلك الأشهر السبعة عشر كانت أشدَّ فظاعة مما سمح لي بمعرفته. لا أعتقد أن فاني كانت تحاول الدفاعَ عنه بشكل خاص، لكنني عندما سمعت عن الصعوبات التي عانى منها (ضرب عشوائي، وتحرُّش مستمر وتهديدات، وحادثة اغتصاب محتملة)، وجدتُّ صعوبة في حشد أي استياء ضدَّه. كان ساكس من وجهة نظر فاني شخصًا أكثر تعقيدًا واضطرابًا من الشخص الذي ظننت أني أعرفه. لم يكن فقط ذاك الاجتماعي المتحمس الموهوب، بل كان أيضًا رجلًا أخفى حقيقته عن الآخرين، رجلًا مثقلًا بالأسرار التي لم يشاركها مع أحد. أردتُّ عذرًا للانقلاب عليه، لكن طوال تلك الأسابيع التي قضيتها مع فاني شعرتُ بأنني قريب منه أكثر من أي وقت مضى. الغريب أن أيًّا من ذلك لم يعترض مشاعري تجاهها. كان حبُّها بسيطًا، حتى لو كان كل ما يحيط بهذا الحب محفوفًا بالغموض. كانت هي التي ألقت بنفسها صوبي، بالنتيجة، ومع ذلك فكلما تشبثت بها بشدةٍ تضاءل يقيني بما كنت أشعر به.

تحديدًا تزامنت العلاقة مع غياب بن. قبل يومين من الموعد المقرر لعودته، طرحتُ أخيرًا مسألة ما سوف نقوم به بمجرد عودته إلى نيويورك. اقترحت فاني أن نواصل علاقتنا بنفس الطريقة، ونرى بعضنا البعض كلما أردنا. أخبرتُها أن هذا غير ممكن، وأنه سيتعين عليها قطع علاقتها ببن والانتقال للعيش معي إذا كنا سنستمر. قلتُ صراحةً بأنه لا مجال للمخاتلة. علينا أن نصارحه بما حدث، ونحل الأمور بأسرع ما يمكن، ثم نخطط للزواج. لم يخطر ببالي أبدًا أنّ هذا لم يكن ما أرادته فاني، لكن ذلك يثبت فقط مدى جهلي، وسوء قراءتي لنواياها منذ البداية. قالت إنها لن تترك بن. لم تفكر في ذلك قط. بغض النظر عن مدى حبها لي، لم تكن مستعدة للقيام بذلك.

غدت تلك محادثة مؤلمة تواصلت لعدة ساعات. دوامةٌ من الجدل الدائري الذي لم يصل بنا إلى أي مكان. سكب كلانا الكثير من الدموع، وناشد أحدنا الآخر أن يكون عقلانيًّا، ودعاه للاستسلام، وأن ينظر إلى الموقف من منظور جديد، لكن ذلك لم ينجح. ربما لم يكن مقدرًا له أن ينجح أبدًا، لكنني خلال ذلك، أحسستُ أنها أسوأ محادثة في حياتي. لحظةُ خرابٍ مطلق. فاني لن تهجر بن، ولن أبقى معها إلا إذا فعلتْ. كل شيء أو لا شيء، ظللتُ أخبرها. أحببتها بشدة لن يكفيني معها بعضها. ما كان يعنيني حينها، أن أي شيء أقل من كل شيء ليس بشيء، وبؤسًا لا يمكنني أن أجلبه على نفسي وأتعايش معه. وهكذا غنمتُ بؤسي واللاشيء الذي سعيت له، وانتهت العلاقة بمحادثتنا في تلك الليلة. خلال الأشهر التي تلت، لم توجد لحظة لم أندم فيها على ذلك، ولم أحزن فيها بسبب عنادي، لكن لم تعد هناك أي فرصة للتراجع عن الحسم في كلماتي.

لغاية الآن، مازلتُ في حيرةٍ من فهم سلوك فاني. أتوقع أنْ بوسع المرء طرحُ الأمر برُمته، والزعم أنها كانت ببساطة تتسلّى بنزوةٍ قصيرةٍ أثناء سفر زوجها. ولكن لو كان الجنس هو كل ما كانت تريده فليس من المنطقي أن

تختارني كشخصٍ تمارسه معه. بالنظر إلى صداقتي مع بن كنتُ آخر شخص ستلجأ إليه. ربما تصرفت بدافع الانتقام، بطبيعة الحال، وتستغلني لتسوية حساباتها مع بن، لكنني لا أظن هذا التفسير يصمد طويلًا؛ فهو يفترضُ مسبقًا نوعًا من التهكم لم تمتلكه فاني أبدًا، ولا يصلح للإجابة على كثير من الأسئلة. من المحتمل أيضًا أنها تخيلت معرفتها بما كانت تفعله ثم بدأت تفقد أعصابها. إنها حالة تقليدية من رفض الاستمرار في أمر جرّاء الخوف من عواقبه، ولكن ما الذي يمكن أن نستخلصه من حقيقة أنها لم تتردد أبدًا، وأنها لم تُظهِر أدنى بصيص من الندم أو الحيرة؟ حتى اللحظة الأخيرة، لم يخطر ببالي أبدًا أن لديها أي شكوكٍ تجاهي. بانتهاء العلاقة بشكل مفاجئ بالصورة التي حصلت؛ فلا بدّ أن تكون قد توقعتْ ذلك أيضًا، لأنها كانت تعلم أن الأمور ستجري بهذه الطريقة طوال الوقت. يبدو هذا معقولًا تمامًا. المشكلة الوحيدة هي تعارُضُه مع كل ما قالته وفعلته خلال الأسابيع الثلاثة التي قضيناها معًا. ما تبدو كأنها فكرةٌ كاشفةٌ يتضح أنها ليست أكثر من معضلة جديدة. في اللحظة التي تتقبلها يبدأ اللغز من جديد.

ومع ذلك، لم تكنِ القصة سيئةً تمامًا بالنسبة لي. على الرغم من كيفية انتهائها، فقد حققت الأحداثُ عددًا من النتائج الإيجابية التي أنظر إليها الآن على أنها منعطف حاسم في حكايتي. لسبب واحد، تخليتُ عن فكرة العودة عن طلاقي. أظهر لي حبُّ فاني عقم ذلك؛ فدفنتُ هذه الفكرة إلى الأبد. ليس هناك شك في أن فاني كانت مسئولةً بشكل مباشر عن هذا التغير في الرأي. لولاها لما كنت في وضْع يسمح لي بلقاء آيريس، ولأخذت حياتي منذ ذلك الحين فصاعدًا طريقًا مختلفًا كليًّا. أنا مقتنع أنها طريقة أسوأ؛ طريقة من شأنها أن تحيلني نحو المرارة التي حذرتني منها فاني في ليلتنا الأولى معًا. من خلال الوقوع في غرام آيريس، حققتُ نبوأتها عني في تلك الليلة. ولكن عليّ أولًا أن أقع في حب فاني قبل تصديق النبوءة. أهذا ما كانت تحاول إثباته لي؟ هل كان هذا هو الدافعَ الخفي وراء علاقتنا المجنونة برُمتها؟ يبدو لي أن

هذا تصورٌ غير معقول، ومع ذلك فهو يتوافق مع الحقائق بشكلٍ وثيقٍ أكثر من أي تفسير آخر. ما أقوله هو أن فاني ألقت بنفسها عليّ لتنقذني من نفسي، أنها فعلت ما فعلته لمنعي من الرجوع إلى ديليا. أهذا الشيء ممكن؟ هل يمكن بالفعل أن يمضي أي شخص إلى هذا الحد من أجل شخص آخر؟ لو كان الأمر كذلك فلن تكون تصرفاته أقلَّ من خارقةٍ للعادة، وبادرة نقية ومشرقة للتضحية بالذات. من بين جميع التفسيرات التي فكرت فيها على مرِّ السنين هذا هو التفسير الذي أؤثره. ذلك لا يعني أنه صحيح، ولكن طالما أنه يمكن أن يكون صحيحًا، فيُسعدني أن أعتقد أنه كذلك. بعد أحدَ عشر عامًا، هذه هي الإجابة الوحيدة التي لا تزال منطقية.

عاد ساكس إلى نيويورك، وقد عزمتُ على تجنب رؤيته. لم يكن لدي أي فكرة عما إذا كانت فاني ستخبره بما فعلناه، ولكن حتى لو أبقت الأمر سرًّا فإن احتمال اضطراري إلى إخفائه عنه أحزنني إلى حدٍّ لا يطاق. كانت علاقاتنا دائمًا صادقة ومباشرة، ولم أكن في حالة مزاجية للبدء في سرد الأكاذيب عليه في هذه المرحلة. كنت أحسبه سيستشف الأمر على أي حال، وإن أخبرتْه فاني بما جرى بيننا، فلا بدَّ وأن أستعدَّ لكافة أنواع المحَن. على أي حال، لم أكن مستعدًّا لرؤيته. إذا كان يعلم، فإن التصرف كما لو أنه لا يعرف سيكون إهانة. وإذا لم يكن يعلم فإن كل دقيقة أمضيها معه ستكون عذابًا.

عملتُ على روايتي، واعتنيت بديفيد، وانتظرت عودة ماريا إلى المدينة. في الظروف العادية، كان ساكس يتصل بي في غضون يومين أو ثلاثة أيام. نادرًا ما مضت فترة أطول من ذلك دون أن نكون على اتصال، والآن بعد أن عاد من مغامرته في هوليوود، توقعتُ أن أسمع منه. لكن مرت ثلاثة أيام، ثم ثلاثة أيام أخرى، وشيئًا فشيئًا فهمت أن فاني أطلعته على السِّر. ليس هناك تفسير آخر. افترضتُ أن هذا يعني أن صداقتنا قد انتهت وأنني لن أراه مرة أخرى. ولكن قبل أن تستبد بي هذه الفكرة، في اليوم السابع أو الثامن،

رنَّ جرس الهاتف، فكان ساكس على الطرف الآخر. بدا في أفضل حالاته، مُطلِقًا النكات بنفس الحماس الذي كان عليه دائمًا. حاولتُ أن أجاري انبساطه، لكنني كنت مذهولًا ولم أفلح. ارتجف صوتي، وقلت كل الأشياء الخاطئة. عندما طلب منّي الحضور لتناول العشاء في تلك الليلة، اختلقتُ عذرًا وقلت إنني سأعاود الاتصال غدًا للقيام بشيء آخر. ولم أتصل. مر يوم أو يومان آخران، ثم اتصل ساكس مرة أخرى، ولا يزال مداعِبًا، كما لو لم يتغير شيء بيننا. لقد بذلتُ قصارى جهدي لصده، لكنه هذه المرة لم يقبلْ بالرفض. عرض أن يدعوني إلى الغداء بعد ظهر اليوم نفسه، وقبْلَ أن أفكّر في طريقةٍ للتملص منه سمعت نفسي أقبلُ دعوته. في أقل من ساعتين، كان من المفترض أن نلتقي في مطعم كوستيلوز؛ المطعم الصغير في شارع كورت على بعد عدة بنايات من منزلي. إن لم أحضر كان سيمشي إلى بيتي ويطرق الباب. لم أفكر بالسرعة الكافية، والآن عليّ تحمل العواقب.

كان هناك بالفعل عندما وصلت، جالسًا في الجزء الخلفي من المطعم. وقد فرش صحيفة نيويورك تايمز على طاولة فورميكا أمامه، وبدا أنه منغمسٌ فيما كان يقرؤه، ويدخن سيجارة ويرمي الرمادَ أينما كان على الأرض بعد كل سحبة. كانت تلك أوائل عام 1980، أيام أزمة الرهائن في إيران، وفظائع الخمير الحمر في كمبوديا، واشتعال الحرب في أفغانستان. شعرُ ساكس خفَّ لونه تحت شمس كاليفورنيا، ووجهه البرونزي كساه النمَش. كان يبدو لي بحال جيدة، وأكثر راحة من المرة السابقة التي رأيته فيها. بينما كنت أسير باتجاه الطاولة، تساءلتُ إلى أي مدى سأقترب قبل أن يلاحظ أنني وصلت. حدّثتُ نفسي، كلما حدث ذلك أبكر؛ كانت محادثتنا أسوأ. إذا نظر إلى الأعلى فهذا يعني أنه كان قلقًا؛ ما يثبت أن فاني قد تحدثت معه بالفعل. من ناحية أخرى، إذا أبقى أنفه مدفونًا في الصحيفة فسيُظهر ذلك أنه كان هادئًا؛ ما قد يعني أن فاني لم تخبره. كل خطوةٍ قمت بها خلال الزحام أشعرتني أن اختياره

المطعم علامةٌ في مصلحتي، دليلٌ بسيطٌ أنه ما يزال جاهلًا بالأمر، وأنه مازال لا يعرف أنني قد خنته. وهكذا كان؛ وصلتُ دون أن أتلقي منه نظرة واحدة.

قلت له، وأنا أنزلق على المقعد المقابل له: «يا لها من سُمرة لطيفة، يا سيد هوليوود». رفع ساكس رأسه، وحدق بي للحظة أو اثنتين بهدوء، ثم ابتسم. كان الأمر كما لو أنه لم يكن يتوقع رؤيتي، وكأنني ظهرتُ بالصدفة. اعتقدتُ أن هذه مبالغة، وفي الصمت الصغير الذي سبق إجابته خطر لي أنه يتظاهر بأنه مشتت. في هذه الحالة، لم تكن الصحيفة أكثر من إكسسوار، وأنه طوال الوقت الذي كان ينتظرني فيه، كان يقلّبُ الصفحات فقط، ويمسح الكلمات ضوئيًّا بشكل أعمى دون أن يكلف نفسه عناء قراءتها.

قال: أنت أيضًا لا تبدو بحال سيئة. يبدو أن الطقس البارد يناسبك.

- إنه لا يضايقني. بعد قضاء الشتاء الماضي في الريف، فهذا يبدو وكأنه برد المناطق الاستوائية.
- وماذا كنت تفعل منذ أن سافرتُ لذبح روايتي؟

فقلت: أذبحُ روايتي أيضًا. كل يوم، أضيف فقرات قليلة أخرى إلى الكارثة.

- لا بد أنك أنجزت قدرًا منها بحلول هذا الوقت.
- أحد عشر فصلًا من أصل ثلاثة عشر. أفترض أن هذا يعني أن النهاية في الأفق.
- هل لديك تصور حول متى ستنتهي؟
- ثلاثة أو أربعة أشهر، ربما. ولكنها يمكن أن تصبح اثني عشر. وأيضًا، يمكن أن تصير اثنين. التنبؤ يصير أصعب بمرور الوقت.
- آمل أن تسمح لي بقراءتها عندما تنتهي منها.
- بالطبع يمكنك قراءتها. ستكون أول شخص أقدمها له.

في تلك اللحظة، وصلت النادلة لتأخذ طلباتنا. هكذا أتذكر الموقف على أي حال: مقاطعة مبكرة، وقفة قصيرة في تدفق حديثنا. منذ انتقالي إلى الحي، كنت أذهب إلى كوستيلوز لتناول طعام الغداء مرتين في الأسبوع تقريبًا، وهذه النادلة تعرف من أكون. امرأة سمينة للغاية وودودة تتدحدح بين الطاولات بزيٍّ أخضر شاحب. تحتفظ بقلم رصاص أصفر عالقًا في شَعرها الرمادي المجعد طوال الوقت. لم تكتب أبدًا بهذا القلم الرصاص، مستخدمة قلمًا آخر تضعه في جيب مئزرها، لكنها كانت تحب أن يكون في متناول اليد تحسبًا للطوارئ. لقد نسيتُ اسم هذه المرأة الآن، لكنها اعتادت مناداتي بـ «عزيزي» والوقوف قربي والدردشة معي كلما أتيت. لم تتحدث عن أمر محدد، ولكنها التزمتْ طريقةً تجعلني أشعر بالترحاب. حتى بوجود ساكس هناك بعد ظهر ذلك اليوم، تبادلنا واحدة من الحوارات الطويلة. لا يهم ما تحدثنا عنه، لكنني أذكر ذلك من أجل إظهار نوع الحالة المزاجية التي كان عليها ساكس في ذلك اليوم. هو لم يتحدث مع النادلة فقط، وهو أمر غير معتاد بالنسبة له،، ولكنه أيضًا في اللحظة التي غادرتْ فيها بطلباتنا، تابع الحديث من حيث توقفنا بالضبط، كما لو أننا لم نجرِ مقاطعتنا أبدًا. عندها فقط بدأتُ أفهم كم كان مضطربًا. في وقت لاحق، عندما قُدّم الطعام، لا أذكر أنه أكل أكثر من قضمتين أو ثلاث. واصل التدخين، وشرب القهوة، وأطفأ سجائره في الصحون الممتلئة.

«العمل هو المهم». قال، وأغلق الصحيفة ثمَّ ألقاها على المنضدة المجاورة له: «أنا فقط أريدك أن تعرف ذلك».

«لا أظن أنني أفهم ما ترمي إليه». قلت مدركًا أنني أفهم جيدًا ما يرمي إليه.

- أقول لك لا تقلق، هذا كل شيء.

- أقلق؟ لماذا عليَّ القلق؟

«لا يجب عليك ذلك» قالها ساكس بابتسامة دافئةٍ ومشرقةٍ بشكل مذهل. لوهلة، أوشك أن يكون ملائكيًّا. مضيفًا: «لكنني أعرفك منذ فترة طويلة بما يكفي لأدرك أنك ستفعل».

- هل فاتني شيءٌ ما، أم هل قررنا الحديث بالألغاز اليوم؟
- لا بأس عليك، يا بيتر. هذه هي النقطة الوحيدة التي أحاول توضيحها. أخبرتني فاني، وليس عليك أن تُمضي حياتك شاعرًا بالسوء حيالَ ذلك.
- ماذا قالت لك؟

كان ذلك سؤالًا سخيفًا، ولكن رباطة جأشه خذلتني؛ فذُهلت عن الإتيان بشيء آخر.

- ما جرى أثناء سفري؛ الصاعقة، الجماع والرضاع. الأمر اللعين كله.
- فهمت. لم يبق الكثيرُ للخيال إذًا.
- لا، لا شيء ألبتَّة.
- إذًا، ماذا سيحدث الآن؟ أهي اللحظة التي تدعوني فيها إلى مبارزة شرف؟ سيتعين علينا أن نلتقي عند الفجر. في مكان مناسب، له قيمةٌ مشهديةٌ لائقة؛ ممرّ المشاة على جسر بروكلين، على سبيل المثال، أو ربما نصب الحرب الأهلية في جراند آرمي بلازا. مكان مَهيب؛ مكان تُقزّمنا فيه السماء، وضوء الشمس ينعكس عن مسدساتنا المرفوعة. ما قولك يا بن؟ أهكذا تريد أن تجري الأمور؟ أم تفضل حسمَها الآن على الطريقة الأميركية؟ تجذبني عبرَ الطاولة، وتلكمني في أنفي، ثمَّ تغادر. لا بأس بالحالتين. أترك الخيارَ لك.
- هناك أيضا احتمالٌ ثالث.

«آه، الطريق الثالث» قلت يملؤني غضبٌ ضاحك. «لم أُدرك أن هناك الكثير من الخيارات المتاحة لنا».

- بالطبع هناك الكثير. أكثر مما يمكننا أن نحصي. ما أفكر فيه بسيط للغاية. ننتظر وصولَ طعامنا، ونأكله، ثمَّ أسددُ الفاتورة ونغادر.
- هذا ليس جيدًا بما فيه الكفاية. لا دراما فيه، ولا مواجهة. علينا أن نجبر الأمورَ في العلن. إذا تراجعنا الآن فلن أشعر بالرضا.
- لا يوجد شيء للشجار بشأنه، يا بيتر.
- بلى، يوجد. هناك كل ما يمكن النزاع حوله. طلبت الزواج من زوجتك. إن لم يكن هذا سببًا كافيًا للشجار، فلا أحد منّا يستحق العيش معها.
- إذا كنت تريد إفراغ صدرِك فتفضّل. أنا على استعداد للاستماع. لكن إن لم ترغب بالتحدث فلا بأس عليك.
- لا أحد لا يكترث بهذا القدر بزوجته. توشك أن تكون جريمةً كونك غير مبالٍ بهذه الدرجة.
- أنا أبالي. الأمرُ كان فقط مقدرًا أن يحدث عاجلًا أم آجلًا. رغم كل شيء، أنا لست غبيًّا. أعرف ما تشعُر به تجاهَ فاني. لطالما شعرتُ بذلك. أقرؤه في كل مكان عندما تقترب منها.
- فاني هي التي قامتْ بالخطوة الأولى. لو لم تكن ترغب في ذلك، لما حدث شيء.
- أنا لا ألومك. لو كنتُ في وضعك لكنت فعلت الشيء نفسه.
- ولكن هذا لا يجعل الأمر صحيحًا على أي حال.
- إنها ليست مسألة صواب وخطأ. هذه هي الطريقة التي يسير بها العالم. كل رجلٍ هو أسيرُ قدَره، ولا يوجد شيء ملعون بمقدوره فعله حيالَ ذلك. نحاول محاربته أحيانًا، لكنها معركة خاسرة دائمًا.
- أهذا اعتراف بالذنب، أم تحاول إخباري أنك بريء؟
- بريء مِن ماذا؟

- ممّا أخبرتْني به فاني. ما تفعله على الدوام. عبثك خارج المنهاج.
- هي مَن أخبرتك بذلك؟
- بإسهاب كبير. انتهى بها الأمرُ إلى إعطائي ملء أذن؛ أسماء وتواريخ وأوصاف ضحايا، كلّ ما قمت به. كان لذلك أثر. منذ ذلك الحين، تغيرت فكرتي عن هويتك تمامًا.
- لست متأكدًا من أنك تودُّ تصديق كل ما تسمعه.
- هل تصف فاني بالكاذبة؟
- بالتأكيد لا. إنها فقط لا تمتلك وعيًا راسخًا بالحقيقة.
- يبدو لي أنه الشيء نفسه. أنت تعيدُه بعبارة مختلفة، ليس إلّا.
- لا، أنا أقول لك إنَّ فاني عاجزة عن التحكم في تفكيرها. لقد أقنعتْ نفسها بأنني غير مخلص، وليس هناك أي قدرٍ من الكلام يفيدُ لصرفها عن فكرتها.
- وهل تقول إنك لست كذلك؟
- لقد كانت لي هفواتي، ولكن لم تكن أبدًا بالقدر الذي تتخيله. بالنظر إلى المدة التي قضيناها معًا، فسجلّي ليس سيئًا. لقد مررتُ أنا وفاني بتقلباتنا، ولكن لم تكن هناك لحظة لم أتمنَّ فيها أن تكون هي زوجتي.
- إذًا مِن أين حصلتْ على أسماء كل هؤلاء الأخريات؟
- أنا أروي لها القصص. ذاك جزءٌ من لعبة نلعبها. أقوم بتأليف قصص عن فتوحاتي الخيالية، وفاني تسمع، وتثار حماستُها. الكلمات لها قوة بالنسبة لبعض النساء، ليس هناك مثير أقوى للرغبة. لا بد أنك عرفتَ ذلك عن فاني الآن. إنها تحب الكلام البذيء. وكلما زادت تفاصيل الفحشِ توقّدت.
- لم يكن هذا ما بدا لي. في كل مرة تحدثت فاني عنك كانت تتكلم بجدّ. ولا كلمة واحدة عن «فتوحات خيالية»، كان كل شيء حقيقيًّا بالنسبة لها.

- لأنها تغار، وشيء بداخلها يصرُّ على تصديق الأسوأ. لقد حدث ذلك عدة مرات. في أي لحظةٍ تأتي فاني بفكرةٍ عن علاقة عاطفية لي بهذه أو تلك. استمرت في ذلك لسنوات، وقائمة النساء اللواتي ضاجعتهن تطول مع الوقت. بعد فترة، علمت أنْ لا جدوى من الإنكار؛ فهو فقط يجعلها أكثر تشككًا بي، وبدلًا من إخبارها بالحقيقةِ أقول لها ما تريد سماعه. أنا أكذب من أجل إسعادها.
- السعادة تحديدًا هي الكلمة التي لم أكن لأستخدمها لو كنت مكانك.
- لإبقائنا معًا، إذًا. لإبقائنا في نوع من التوازن. القصص تساعد. لا تسألني لماذا، ولكن بمجرَّد أن أبدأ في إخبارها تنجلي الأمور بيننا مرة أخرى. كنتَ تظن أني توقفت عن كتابة القصص الخيالية، لكنني مازلت أفعل. صحيح أن جمهوري تقلص إلى شخص واحد فقط حاليًّا، لكنها الوحيدة التي تعنيني حقًّا.
- وأنت تتوقع منّي أن أصدق هذا؟
- وهل تراني مستمتعًا بما أقول؟ هذا شأنٌ ليس من السهل الحديث عنه. لكنني أعتقد أنه صار لك الحق في المعرفة، وأنا أقوم بذلك بالقدر الذي أتمكن منه.
- وفاليري ماس؟ هل تخبرني أنه لم يكن بينكما شيء على الإطلاق؟
- هذا اسم كان يظهر كثيرًا. إنها محرِّرة في إحدى المجلات التي كتبت لها. منذ عام أو عامين، تناولنا عددًا من وجبات الغداء معًا. عملٌ محض؛ كنا نناقش مقالاتي، ونتحدث حول المشاريع المستقبلية، ومثل هذه الأشياء. في النتيجة، وقع في خلد فاني أنني وفال على علاقة. لا أستطيع الزعم أنني لم أكن منجذبًا إليها. لو كانت الظروفُ مختلفة فلربما كنتُ فعلت شيئًا غبيًّا. فاني أحسّت بذلك على ما أعتقد. لربما ذكرتُ اسم فال أكثر من المعتاد في البيت أو ألقيتُ المديح حول جودة عملها كمحررة. لكن الحقيقة هي أن فال ليست مهتمة

بالرجال؛ فهي تعيش مع امرأة أخرى طوال السنوات الخمس أو الست الماضية، ولن أتمكن من الوصول لشيء معها حتى لو حاولت.

- ألم تخبر فاني بذلك؟

- لم يكن هناك أي مغزى. فما إن تحزم رأيها يصير إقناعها بالعكس مستحيلًا.

- أنت تجعلها تبدو غير مستقرة. فاني ليست كذلك. إنها إنسانة قوية، واحدة من أقل الأشخاص الذين قابلتهم توهمًا.

- هي كذلك. من نواح كثيرة، هي قوية بقدر ما تأتي القوة. لكنها عانت كثيرًا أيضًا، وكانت السنوات القليلة الماضية صعبة عليها. لم تكن دائمًا على هذا النحو، أنت تعرف. حتى أربع أو خمس سنوات خلت، لم يكن هناك عظمٌ غيورٌ في جسدها.

- قبل خمس سنوات لمّا التقيتُها. بشكل رسمي طبعًا.

- وأيضًا عندما أبلغها الطبيب أنها لن تنجب أبدًا. تغيرت الأمور بالنسبة لها بعد ذلك. لقد كانت تزور معالجًا على مدار العامين الماضيين، لكنني لا أعتقد أنه نجح كثيرًا. إنها تشعر بأنها غير مرغوبة. ترى أنه لا يمكن لأي رجل أن يحبها؛ لذا تتخيل أنني أقيم علاقات مع نساء أخريات. لأنها تظن أنها خذلتني. لأنها ترى أنني يجب أن أعاقبها لأنها خذلتني. بمجرد أن تنقلب على نفسك؛ يصير من الصعب عليك ألّا تصدق أن كل الناس ضدك أيضًا.

- لا شيء من هذا يظهر على الإطلاق.

- هذا جزء من المشكلة. فاني لا تتحدث بما فيه الكفاية. إنها تخزّن الأشياء بداخلها، وعندما تخرج تأتي دائمًا ملتوية. وهذا ما يجعل الوضع أسوأ. نصف الوقت، تعاني دون أن تدرك ذلك.

- حتى الشهر الماضي، كنت أعتقد أنك تتمتع بزواج مثالي.

- نحن لا نعرف أبدًا أي شيء عن أي شخص. كان لدي الفكرة نفسها عن زواجك، وانظر ماذا حدث لك ولديليا. من الصعب بما يكفي معرفة أنفسنا. وما إن يتعلق الأمر بأشخاص آخرين لا يعود لدينا أي دليل.
- لكن فاني تعرف أني أحبها. لا بد أنني قلت ذلك ألف مرة، وأنا متأكد من أنها تصدقني. لا أستطيع تخيّل أنها لا تصدقني.
- تصدقك. ولهذا أعتقد أن ما حدث شيء جيد. لقد ساعدتها يا بيتر. لقد فعلت من أجلها أكثر من أي شخص آخر.
- إذًا، أنت الآن تشكرني على الذهاب إلى الفراش مع زوجتك؟
- لم لا؟ بسببك، هناك فرصة لكي تبدأ فاني في الثقة بنفسها مجددًا.
- ما عليك إلا أن تتصل بالطبيب «عدّلني»، هاه؟ إنه يرمم الزيجات المحطمة، ويُصلح الأرواح الجريحة، وينقذ الأزواج من مآزقهم. لا يلزم تحديد موعد، يصلك إلى المنزل على مدار 24 ساعة يوميًّا. اتصل برقمنا المجاني الآن. إنه الطبيب «عدّلني». يمنحك قلبه ولا يطلب شيئًا في المقابل!
- لا ألومك على شعورك بالامتعاض. لا شك أنك تمرُّ بوقت عصيب في هذه الفترة، ولكن هذا رأيي إن كان له أي أهمية، فاني تعتقد أنك أعظم رجل على الإطلاق. إنها تحبك. ولن تتوقف عن حبها لك.
- هذا لا يغير حقيقة أنها ترغب في استمرار زواجها بك.
- إنه يعود إلى زمنٍ بعيد، يا بيتر. لقد مررنا بالكثير معًا. كل حياتنا مرتبطة به.
- وأين يتركني ذلك؟
- حيثما كنت دائمًا. كصديق لي. كصديق لفاني. أكثر شخص نهتم به في العالم.
- لذا نبدأ صفحة جديدة.

- إن كنت تريد ذلك؛ فنعم. طالما أمكنك تحمله، سيبدو الأمر كما لو أن شيئًا لم يتغير.

فجأة صرت على وشك البكاء فقلت: فقط لا تفسد الأمر. هذا كل ما عليّ قوله لك. فقط لا تفسد الأمر. اعتنِ بها جيدًا. عليك أن تعدني بذلك. إذا لم تحافظ على كلمتك، أعتقد أنني سأقتلك. سأطاردك وأخنقك بيدي.

حدقت في طبقي، وأنا أجاهد للمحافظة على أعصابي. عندما رفعت عينيّ أخيرًا، رأيت ساكس يحدق بي. كانت عيناه حزينتين، وملامحه ثابتة في تعابير الألم. قبل أن أتمكن من النهوض من الطاولة للمغادرة، مدَّ يدَه اليمنى وفتحها أمامي، غير راغب في سحبها حتى قبضت عليها. قال، وهو يضغط: «أعدك». ومشدّدًا الضغط على يدي بثبات: «أقسم بشرفي».

***

بعد ذلك الغداء، لم أعدْ أعرف ماذا أصدق. أخبرتني فاني بشيء، وحدّثني ساكس بآخر، وبمجرد أن أقبل إحدى الروايتين كان عليَّ أن أرفض الأخرى. لم يكن هناك أي بديل. لقد قدمَا لي نسختين من الحقيقة، حقيقتان منفصلتان ومتمايزتان، وليست هناك قوة قادرة على جمعهما معًا. لقد فهمت ذلك، ومع ذلك أُدرك أن كلَّ قصة منهما قد أقنعتني. في مستنقع الحزن والإرباك الذي أغرقني طوال الأشهر العديدة التالية، ترددتُ في الاختيار بينهما. لا أعتقد أنها كانت مسألةَ انقسام في الولاءات- على الرغم من أن ذلك قد يكون جزءًا من القضية- بل بالأحرى يقينٌ من أنَّ كليهما كانا يخبراني بالحقيقة. ربما كانت الحقيقة كما يراها كل منهما على حدة، ولكنها الحقيقة على أي حال. لم يأتِ أيٌّ منهما ليخدعني. لم يكذب أحدٌ عمدًا. بعبارة أخرى: لم تكن هناك حقيقة كونية. لم يكن هناك مَن يُلام أو من يُنصر، وكانت الاستجابة الوحيدة المبررة هي التعاطف. لقد تطلَّعت إليهما كنموذجين يقتدى بهما لسنوات عديدة، إلى أن وصلَ الأمر بي إلى الشعور بخيبة الأمل بسبب ما عرفته، لكنني لم أشعر بخيبة أمل فيهما

فقط؛ بل شعرت بخيبة أمل في العالم. حدّثتُ نفسي: حتى الأقوى كان ضعيفًا. حتى الأشجع افتقر إلى الشجاعة. حتى أحكم الناس كان جاهلًا.

باتَ من المستحيل عليّ صدُّ ساكس بعد الآن. لقد كان صريحًا للغاية أثناء محادثتنا على الغداء، وكان واضحًا جدًّا بشأن رغبته في استمرار صداقتنا، لدرجة أنني لم أستطع أن أدير ظهري له. لكنه كان مخطئًا في افتراضه أن شيئًا لن يتغير بيننا. لقد تغير كل شيء، وسواء شئنا أم أبينا فقد فقدتْ صداقتنا براءتها. بسبب فاني، كان كلٌّ منّا قد عبر إلى حياة الآخر، ووضعَ كل منّا علامة على التاريخ الداخلي للآخر، وما كان يومًا ما نقيًّا وبسيطًا بيننا أصبح الآن موحلًا ومعقدًا بلا حدود. شيئًا فشيئًا، بدأنا في التكيف مع هذه الظروف الجديدة، لكن فاني كانت قصة أخرى. بقيتُ بعيدًا عنها، وكنت دائمًا أرى ساكس بمفرده، وأعتذر عن أي دعوة إلى منزلهما. قبلتُ حقيقة أنها تنتمي إلى بن، لكن هذا لا يعني أنني مستعدٌّ لرؤيتها. أتوقع أنها فهمتْ ترددي، وعلى الرغم من أنها استمرتْ في إرسال حبها لي مع ساكس، إلا إنها لم تضغطْ عليّ أبدًا لفعل أي شيءٍ لا أريد القيام به.

لم تتصلْ إلا في تشرين الثاني، أخيرًا، بعد ستة أو سبعة أشهر تامة. كان ذلك عندما دعتني إلى عشاء عيد الشكر في منزل والدةِ بن في كونيكتيكت. في نصف العام الذي مضى، كنت اقتنعتُ أنه لم يكن هناك أي أمل في علاقتنا، حتى لو هجرت بن لتعيش معي، لن ينجح الأمر. كان ذلك افتراضًا منّي، فلم يكن لدي أي فكرة عما كان سيحدث، لا طريقة لمعرفة أي شيء. إلا أنَّه ساعدني في تجاوز تلك الأشهر دون أن أفقد عقلي، وعندما سمعت فجأة صوت فاني على الهاتف اعتقدتُ أنَّ اللحظة قد حانت لاختبار نفسي في وضعٍ حقيقي؛ لذا ركبنا السيارة أنا وديفيد إلى ولاية كونيكتيكت وعُدنا، وقضيت يومًا كاملًا في صحبتها. لم يكن أسعدَ يوم قضيته في حياتي لكنني تمكنت من النجاة منه. فُتحت جروح قديمة، نزفت قليلًا، ولكن عندما عدتُّ إلى المنزل في تلك الليلة بديفيد الغافي بين ذراعي اكتشفت أنني مازلت بالكاد متماسكًا.

لا أزعم أنني أنجزتُ هذا الشفاء بمفردي. ما إنْ عادت ماريا إلى نيويورك، حتى لعبت دورًا كبيرًا ببقائي قطعة واحد، وانغمستُ في مغامراتنا السرية بنفس الشغف السابق. كما أنها لم تكن الوحيدة؛ فعندما لم تكن ماريا متاحة كنت أجد أخريات ما فتئنَ يشغلنني عن قلبي الكسير: راقصة اسمها دون، وكاتبة تدعى لورا، وطالبة طب تدعى دوروثي. من وقت لآخر، قبضتْ كل منهن على حيزٍ فريدٍ من عواطفي. كلّما توقفت وفحصت سلوكي استنتجت أنني لم أخلق للزواج، وأن أحلامي في الاستقرار مع فاني مضلَّلةٌ منذ البداية. حدّثتُ نفسي بأنني متعدّد الزيجات. كنتُ منجذبًا إلى لغز اللقاء الأول، ومفتونًا بمسرح الإغواء، وتواقًا لإثارة الأراضي البكر، ولا يمكن الاعتمادُ عليّ على المدى الطويل. كان هذا هو المنطق الذي فرضته على نفسي على أي حال، وكان بمثابة حاجز دخان فعّال بين رأسي وقلبي، وبين قلبي وعقلي. لأن الحقيقة هي أنني لم تكن لدي أدنى فكرة عما كنت أفعله. كنتُ خارج نطاق السيطرة، أطارح الغرامَ لنفس السبب الذي يثمل من أجله الرجال الآخرون: لإغراق أحزاني، وإضعاف حواسي، ونسيان نفسي. أصبحت إنسانًا منتصبًا، مسعورًا. لم يمض وقت طويل حتى صرت مشتبكًا في العديد من العلاقات في آن واحد، حيث كنت أتلاعب بالرفيقات مثل بهلواني محترف، متنقلًا من سرير لآخر كما يبدل القمرُ شكله. هذا الجنون جعلني منشغلًا في آن، كما أفترضُ أنه كان دواءً ناجحًا. لكنها كانت حياة شخصٍ مهووس، وربما كانت ستقتلني إذا استمرت لفترة أطول مما فَعَلتْ.

ولكن كان هناك ما هو أكثر من مجرد الجنس. كنتُ أعملُ بشكل جيد، وكانت روايتي تقترب أخيرًا من نهايتها. بغضِّ النظر عن عدد الكوارث التي سببتها لنفسي، تمكنت من اجتيازها والمُضي قُدمًا دون إبطاء وتيرتي. أصبح مكتبي ملاذًا، وطالما واصلت الجلوس هناك، مكافحًا للعثور على الكلمة التالية، لا يعود بإمكان أي شيء أن يمسّني: لا فاني، ولا ساكس، ولا حتى نفسي. لأول مرة في كل السنوات التي كنت أكتب فيها شعرتُ كما لو أنني

أتوقد نارًا. لم أستطع معرفة ما إذا كانت الرواية جيدةً أم سيئة، لم يعد ذلك مهمًّا. لقد توقفت عن استجواب نفسي. كنت أفعل ما يجب أن أفعله، وكنت أفعل ذلك بالطريقة الوحيدة الممكنة لي، وكل شيء آخر يحذو حذوه. لم يكنِ الأمر أنني بدأت أؤمن بنفسي بقدر ما كنت مسكونًا بلامبالاة عالية. لقد أصبحتُ قابلًا للتبادل مع عملي، وقد قبلتُ أن العمل بات يسير بشروطه الخاصة، مدركًا أنه لا يوجد شيء يمكن أن يعفيني من الرغبة في القيام به. كان هذا هو التجلي الراسخ، الاستنارة التي يتلاشى فيها الشك تدريجيًّا. حتى لو أن حياتي تتداعى فسيظلُّ هناك ما أعيش من أجله.

أنهيتُ «لونا» في منتصف نيسان، بعد شهرين من حديثي مع ساكس في المطعم. حافظتُ على وعدي وأعطيته المخطوطة، وبعد أربعة أيام اتصل بي ليخبرني أنه أنهاها. ولكي أكون أكثر دقة، بدأ بالصراخ في الهاتف، وهو ويكوّم عليّ مديحًا غير مألوف لدرجة أنني شعرت بنفسي خجِلًا على الطرف الآخر. لم أجرؤ على الحلم بردٍّ من هذا القبيل، فقد عزز معنوياتي إلى درجة أنني تمكنتُ من تجاهل خيبات الأمل التي أعقبته. حتى والكتاب يدور على دور النشر في نيويورك، ويجمعُ رفضًا بعد آخر، لم أسمح للرفض بتثبيط همتي. لقد أحدث تشجيع ساكس كل الفرق. ظلّ يؤكد لي أنه ليس لديَّ ما يدعو للقلق، وأن كل شيء سينجح في النهاية، وعلى الرغم من الأدلة ظللت أصدّقه. بدأتُ في كتابة رواية ثانية. عندما قُبلتْ لونا أخيرًا، بعد سبعة أشهر وستة عشَر من الرفض، كنتُ قد بدأت بالفعل في مشروعي الجديد. حدث ذلك في أواخر تشرين الثاني، قبل يومين فقط من دعوة فاني لي إلى عشاء عيد الشكر في ولاية كونيكتيكت. لا شك أن ذلك ساهم في قراري بالحضور. أجبتُها بالقبول لأنني سمعتُ للتَّو أخبار كتابي. النجاح جعلني أشعر بأنني محصّن، وعلمت أنه لن تكون هناك أبدًا لحظةٌ أفضل لمواجهتها.

ثم جاء لقائي بآيريس، وانتهى جنون هذين العامين فجأة. كان ذلك في 23 شباط 1981 بعد ثلاثة أشهر من عيد الشكر، وبعد عام واحد من قطع علاقتي بفاني، وبعد ست سنوات من بدء صداقتي مع ساكس. يبدو لي غريبًا ومناسبًا أن تكون ماريا تيرنر هي مَن جعلت هذا الاجتماع ممكنًا. فضلًا عن ذلك، لا علاقة له بالقصدية؛ لا علاقة له بالرغبة الواعية في جعل الأشياء تحدث. لكن الأمور حدثت بالفعل، ولولا حقيقة أن الثالث والعشرين من شباط كان ليلة افتتاح معرض ماريا الثاني في صالة صغيرة في شارع ووستر، فأنا على يقين من أنني وآيريس لم نكن لنلتقي. مضت عقودٌ قبل أن نجد أنفسنا واقفين في غرفة واحدة مجددًا، ولولا ذلك لكانتِ الفرصة قد ضاعت. ليس الأمر أن ماريا جمعتنا معًا، لكن اجتماعنا حدث تحت تأثيرها، إذا جازَ التعبير، وأشعر بأنني مدينٌ لها بسبب ذلك. ليس لماريا باعتبارها امرأة من لحم ودم، ربما، ولكن لماريا باعتبارها روح الحظ المتوجة، قديسة غير المتوقع.

نظرًا لأن علاقتنا ظلت سريَّة، لم يكن هناك سبيل لأن تُقدّمني مرافقًا لها في تلك الليلة. فحضرتُ إلى المعرض تمامًا كأيِّ ضيف، وأعطيت ماريا قبلة تهنئةٍ سريعة، ثم وقفت بين الحشد حاملاً كوبًا بلاستيكيًّا في يدي، أحتسي نبيذًا أبيض رخيصًا بينما كنت أتفحص الغرفة بحثًا عن وجوهٍ مألوفة. لم أرَ أي شخص أعرفه. في لحظة ما، نظرتْ ماريا في اتجاهي وغَمَزَتْ، لكن بخلاف الابتسامة القصيرة التي رميتُها صوبها في المقابل، التزمت بالاتفاق وتجنبتُ الاتصال بها. بعد أقل من خمس دقائق من تلك الغمزة، جاء أحدهم من الخلف وربّت على كتفي. كان رجلًا اسمه جون جونستون؛ أحد المعارف العابرين لم أره منذ عدة سنوات. كانت آيريس تقف بجانبه، وبعد أن تبادلنا التحية، قدَّمَنا لبعضنا البعض. بناءً على مظهرها، تخيلتُ أنها كانت عارضة أزياء، وهو خطأ مازال يرتكبه معظم الناس عند رؤيتها لأول مرة. كانت آيريس تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا فقط في ذلك الوقت، ذات حضور أشقر مبهر، يبلغ طولها ستة أقدام، لها وجه إسكندنافي رائع،

متوجة بأعمق وأروع عينين زرقاوين يمكن العثورُ عليهما بين الجنة والجحيم. كيف لي أن أتخيل أنها كانت طالبة دراسات عليا في الأدب الإنجليزي بجامعة كولومبيا؟ كيف لي أن أعرف أنها قرأت كتبًا أكثرَ مما قرأتُ، وأنها كانت على وشك البدء بأطروحة من ستمائة صفحة عن أعمال تشارلز ديكنز؟

لأنني افترضت أنها وجونستون صديقان حميمان، صافحتُها بتهذيب وبذلتُ قصارى جهدي ألّا أحدق بها. جونستون كان متزوجًا من امرأة سواها في آخر مرة رأيته، فافترضتُ أنه الآن مطلق، ولم أسأله عن ذلك. تبيّن لاحقًا أنه وآيريس بالكاد يعرفان بعضهما البعض. تحدثنا ثلاثتنا لعدة دقائق، ثمَّ استدار جونستون فجأة وبدأ في التحدث إلى شخص آخر، وتركني وحدي مع آيريس. عندها فقط بدأت أتساءل عن مدى العلاقة بينهما. دون سببٍ مفهوم، ودون حساب للعواقب، أخرجتُ محفظتي وأريتُها بعض اللقطات لديفيد، متفاخرًا بابني الصغير كما لو كان شخصية عامة معروفة. في الوقت الحاضر عندما تسترجع آيريس تلك الليلة، تقول إن تلك هي اللحظة التي قررت بها أن تحبني، وأدركتْ أنني الشخص الذي ستتزوجه. بينما استغرقَ الأمر وقتًا أطول منّي لفهم ما أشعر به تجاهها، إلا أنها كانت بضع ساعات. واصلنا الحديث على العشاء في مطعم قريب ثمَّ تناولنا الشراب في مكان آخر. لا بد وأن الساعة تجاوزت الحادية عشرة بحلول الوقت الذي انتهينا فيه. لوّحتُ في الشارع لسيارة أجرة لتقلها؛ لكن قبل أن أفتح البابَ للسماح لها بالدخول، مددتُ يدي وأمسكت بها، وجذبتها إليّ وقبّلتُها من ثغرها بعمقٍ. تلك هي أكثر الأشياء التي فعلتُها تهورًا على الإطلاق، لحظةٌ من الجنون والعاطفة الجامحة. انطلقت سيارة الأجرة، وواصلت أنا وآيريس الوقوف في منتصف الشارع، ملفوفين بذراعي بعضنا البعض. كان الأمر كما لو أننا أول مَن اخترع فن التقبيل معًا في تلك الليلة. بحلول صباح اليوم التالي، صارت آيريس نهايتي السعيدة، المعجزة التي هبطت عليّ عندما لم أكن أتوقعها. لقد عصفنا ببعضنا البعض، ومنذ ذلك الحين، لم يعد أي شيء فيّ على حاله.

ساكس كان إشبيني في مراسيم الزفاف في حزيران. أقيم حفلُ عشاءٍ بعد المراسيم، وفي منتصف الوجبة تقريبًا قام عن الطاولة ليقدم نخبًا. اتضح أنه موجز، ولأنه قال القليل؛ يمكنني تذكّر كل كلمة فيه. قال: «إنني أقتبس هذه الكلمات عن فم ويليام تيكومسيه شيرمان. آمل ألا يمانع الجنرال، لكنه سبقني إليها، ولا يمكنني التفكير في طريقة أفضل للتعبير عنها» ثمَّ استدار باتجاهي، ورفع ساكس كأسَه وقال: «وقف جرانت بجانبي عندما كنتُ مجنونًا. وقفتُ بجانبه عندما كان مخمورًا، والآن نقف بجانب بعضنا البعض إلى الأبد».

مكتبة
t.me/soramnqraa

3

بدأ عهدُ رونالد ريغان.

استمرَّ ساكس في فعل ما كان يفعله دائمًا، ولكن في النظام الأميركي الجديد في الثمانينيات، أصبحت مكانته هامشيةً بشكل متزايد. لم يكن الأمر أنه لم يعد لديه جمهور، لكنه تقلص بشكل مُطرد، والمجلات التي تنشر كتاباته صارت مغمورة مع الوقت. بشكل بطيءٍ تقريبًا، أصبح يُنظر إلى ساكس على أنه رجعي، كشخصٍ خارجٍ عن روح العصر. لقد تغير العالم من حوله، وفي المناخ الحالي من الأنانية وغياب التسامح، ومن النزعة القومية الحمقاء، بدت آراؤه خشنة ومتزمتة بشكل مثير للاستغراب. كانت الأوضاع سيئة بما فيه الكفاية في ظلِّ صعود اليمين في كل مكان، ولكن أكثر ما أزعجه هو انهيار أي معارضة فعالة له؛ كان الحزب الديمقراطي قد استسلم، واليسار تلاشى تقريبًا، والصحافة صامتة. انفرد الطرف الآخر فجأة بكل الحجج، وكان رفع صوت المرء ضده يعد سوءَ أدب. استمرَّ ساكس في جعل نفسه مصدر إزعاج، والحديث عما كان يؤمن به دومًا، لكن أعداد مَن يهتمون بما يقول بدأت بالتناقص تدريجيًّا. تظاهر بأنه لا يهتم، لكني استطعت أن أرى كيف كانت المعركة تنهكه، وأنه حتى وهو يعزّي نفسه بأنه على حق، بدأ يفقد إيمانه بنفسه رويدًا رويدًا.

لو أن الفيلم أُنتج فلربما قلبَ الأمور لصالحه. لكن توقعات فاني أثبتت صدقها، وبعد ستة أو ثمانية أشهر من المراجعات وإعادة التفاوض والتردد جيئةً وذهابًا، تراجع المنتج أخيرًا عن المشروع. من الصعب قياسُ المدى الكامل لخيبة أمل ساكس. ظاهريًّا، تصنّع اتخاذ موقفٍ هازلٍ من المسألة برُمتها؛ فكان يلقي النكات، والمرويّات عن هوليوود، ضاحكًا بسبب المبالغ

المالية الكبيرة التي حصل عليها. قد تكون هذه حيلةً أو لا تكون، لكنني مقتنع أنَّ جزءًا منه علّق أهمية كبرى على إمكانية رؤية روايته وقد تحولتْ إلى فيلم. على عكس بعض الكتّاب، لم يحمل ساكس أيَّ ضغينة ضد الثقافة الشعبية، ولم يشعر أبدًا أن هناك صراعًا حول المشروع. لم يساومْ على قناعاته، بل وجدها فرصةً للوصول إلى أعداد أكبر من الناس، فلم يتردد عندما جاءه العرض. على الرغم من أنه لم يقلْ ذلك مطلقًا بإسهاب، فقد شعرت أنَّ المكالمة من هوليوود أرْضتْ غرورَه، ودوّخته بنفحةٍ قصيرةٍ من النفوذ. إنها استجابة طبيعية تمامًا، لكن ساكس لم يكن يرحم نفسه أبدًا، وقد يكون ندم لاحقًا على هذه الأحلام المبالغ فيها بالمجد والنجاح. كان ذلك سيصعّب عليه التطرق لمشاعره الحقيقية بمجرد فشل المشروع. لقد نظر إلى هوليوود على أنها طريقة للهروب من الأزمة الوشيكة المتنامية بداخله، وبمجرد أن أصبح واضحًا أنه لا مفرَّ منها، أظن أنه عانى أكثرَ مما سمح به في أي وقت من حياته.

كلُّ هذا مجرد تكهنات. بقدر ما أعرف، لم تكن هناك تحولات مفاجئة أو جذرية في سلوك ساكس. كان جدول أعماله بنفس التدافع الجنوني للالتزامات الزائدة والمواعيد النهائية، وما إن صارت قصة هوليوود وراء ظهره، استمر في الإنتاج أكثر من أي وقت مضى، إن لم يكن أكثر. المقالات والتغطيات والمراجعات توالت تتدفق منه بمعدل مذهل، وأعتقد أنه يمكن القول إنَّه أبعد ما يكون عن فقدان بوصلته، وإنَّه في حقيقة الأمر يتقدم بأقصى سرعته. لئن شككتُ في هذه الصورة المتفائلة لساكس خلال تلك السنوات، فهذا فقط لأنني أعرف ما حدث لاحقًا. حدثتْ تحولاتٌ هائلةٌ بداخله. وعلى الرغم من أنه من السهل تبسيط الأمور لتحديد اللحظة التي بدأت فيها هذه التغييراتُ في الظهور إلى ليلة الحادث وإلقاء اللوم في كل شيء على هذا الحدث الغريب، إلا إنني لم أعدْ أعتقد أن هذا التفسير كافٍ. هل يمكن لشخص أن يتغير بين عشية وضُحاها؟ هل يمكن للرجل أن ينام كشخص ثمَّ يستيقظ كآخر؟ ربما، لكنني لست على استعداد للمراهنة على هذا.

لا يعني ذلك أن الحادث لم يكن خطيرًا، ولكن هناك آلاف الطرق المختلفة التي يمكن لأي شخص من خلالها الرد على مصافحة الموت. إن استجابة ساكس على هذا النحو لا تعني أنني أظن أن لديه أيَّ خيار بهذا الصدد. على العكس من ذلك، فإنني أنظر إليها على أنها انعكاس لحالته العقلية قبل وقوع الحادث أصلًا. بعبارة أخرى، حتى لو بدا أن ساكس كان يعمل بشكل جيد إلى حد ما في ذلك الوقت، وحتى لو كان يدرك بشكل خافت محنتَه الخاصة خلال الأشهر والسنوات التي سبقت تلك الليلة، فأنا مقتنع بأنه كان في مسارٍ خطرٍ للغاية. ليس لدي أدلة لدعم هذه الملاحظة، باستثناء إثبات الإدراك المتأخر. معظم الرجال سيعتبرون أنفسهم محظوظين لأنهم عاشوا ما حدث لساكس في ذلك المساء ولم يكترثوا به. لكن ساكس لم يفعل ذلك، وحقيقة أنه لم يفعل ذلك- أو بشكل أكثر دقة: لم يتمكن من ذلك- توحي أنَّ الحادث لم يغيّره بقدر ما أظهر ما كان كامنًا من قبل. إن كنتُ مخطئًا بهذا الشأن فكلُّ ما كتبتُه حتى الآن هراء، وكومة من التأملات غير ذات الصلة. ربما انشطرت حياةُ بن إلى قسمين في تلك الليلة، وانقسمت إلى ما قبلها وبعدها، وفي هذه الحالة يمكن شطب كل ما جرى قبلها من السجل. ولكن إذا كان هذا صحيحًا فهذا يعني أن السلوك البشري لا معنى له، وأنه لا يمكن فهمُ أي شيء على الإطلاق.

لم أشهدِ الحادث، لكنني كنت هناك ليلة وقوعه. لا بدَّ أنه كان هناك أربعون أو خمسون منّا في الحفلة، حشدٌ من الناس في حدود شقة ضيقة في بروكلين هايتس، يتعرقون، ويشربون، ويثيرون ضجةً في هواء الصيف الحار. وقع الحادث في حوالي الساعة العاشرة، ولكن بحلول ذلك الوقت كان معظمنا قد صعد إلى السطح لمشاهدة الألعاب النارية. في حقيقة الأمر، رأى شخصان فقط سقوطَ ساكس؛ الأول: ماريا تيرنر، التي كانت تقف قربه على سلّم النجاة، والثاني: امرأة تدعى آغنيس داروين، التي تسببت عن غير قصد في فقدانه توازنه بعد تعثرها بماريا من الخلف. ليس هناك شك في

أن ساكس كان يمكن أن يُقتل. بالنظر إلى أنه كان على بُعد أربعة طوابق من الأرض، يبدو أنها شبه معجزة أنه لم يمت. لولا حبلُ الغسيل الذي كسر سقوطه على بُعد حوالي خمسة أقدام من الأرض، لم تكن هناك طريقة للنجاة دون ظهر مكسور، أو جمجمة محطمة، أو أي من المصائب التي تفوق الحصر. كما هو الحال، انقطع الحبل تحت ثقل جسده المتساقط، وبدلًا من أن يسقط رأسه أولًا على الأسمنت العاري هبط على كتلةٍ متشابكة من مفارش الحمّام والبطانيات والمناشف. السقوط كان هائلًا، لكنه لا يقاس بما كان ممكنًا. لم ينج ساكس فقط، ولكنه خرج من الحادث سالمًا نسبيًّا: بضعة أضلاع متصدعة، وارتجاج بسيط، وكسر في الكتف، وبعض النتوءات والكدمات.

أعتقد أنه يمكن للمرء أن يشعر بالراحة جرّاء ذلك، لكن في النهاية لم يكن للضرر الحقيقي علاقة بجسد ساكس. هذا هو الشيء الذي مازلت أعاني للتصالح معه، واللغز الذي مازلت أحاول حله. برئ جسدُه، لكنه لم يعدْ كما كان بعد ذلك. في تلك الثواني القليلة قبل أن يصطدم بالأرض، بدا الأمرُ كما لو أن ساكس فقدَ كل شيء. تطايرت حياته كلها في الهواء، ومنذ تلك اللحظة وحتى وفاته بعد أربع سنوات، لم يتمكن من تجميعها ثانيةً.

كان ذلك في 4 تموز 1986، الذكرى المئوية لتأسيس تمثال الحرية. كانت آيريس في رحلة استمرت ستة أسابيع في الصين مع شقيقاتها الثلاث)واحدة منهن تعيش في تايبيه(، وديفيد يقضي أسبوعين في مخيم صيفي في مقاطعة باكس، وأنا مختبئٌ في الشقة، أعمل على كتاب جديد، ولا أقابل أحدًا. في العادة، يكون ساكس في ڤيرمونت بحلول ذلك الوقت، لكن صحيفة ڤيليدج ڤويس كلفته بكتابة مقال عن الاحتفالات، ولم يكن يخطط لمغادرة المدينة حتى تسليم المقال. قبل ثلاث سنوات، استسلم أخيرًا لنصيحتي ودخل في اتفاق مع وكيل أدبي)باتريشيا كليج، التي تصادف أنها وكيلتي(، وباتريشيا هي مَن أقامت الحفلة في تلك الليلة. نظرًا لأن موقع بروكلين كان مثاليًّا

لمشاهدة الألعاب النارية، فقد قبِل بن وفاني دعوة باتريشيا. دُعيت أيضًا، لكنني لم أكنْ أخطط للذهاب. كنت مندمجًا في عملي ولا أرغب في مغادرة المنزل، ولكن عندما اتصلتْ فاني بعد ظهر ذلك اليوم وأخبرتني أنها وبن سيكونان هناك؛ غيّرتُ رأيي. كنت لم أرَ أيًّا منهما منذ ما يقرب من شهر، ومع اقتراب الجميع من التفرق في الصيف اعتقدتُّ أن هذه ستكون فرصة للحديث معهما قبل الخريف.

شاء الحظُّ ألّا أتحدث إلى بن إلا نادرًا. كانت الحفلة على قدم وساق بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى هناك، وفي غضون ثلاث دقائق من إلقاء التحية عليه، تم دفعنا إلى زوايا متقابلة من الغرفة. بمحْض الصدفة، دُفعت صوبَ فاني، وسرعان ما انغمسنا في المحادثة لدرجة أننا فقدنا أثرَ بن.

كانت ماريا تيرنر هناك أيضًا، لكنني لم أرها في الحشد. بعد وقوع الحادث فقط علمت أنها حضرت إلى الحفلة. كانت في الواقع تقف مع ساكس عند سلم النجاة قبل أن يسقط. ولكن بحلول ذلك الوقت كان هناك الكثير من الارتباك (صراخ الضيوف وصفارات الإنذار وعربات الإسعاف والمسعفين المتراكضين) فلم أتمكن من تسجيل الأثر الكامل لوجودها. في الساعات التي سبقت تلك اللحظة، استمتعتُ أكثر مما كنت أتوقع. لم يكن بسبب الحفلة بقدر الوجود مع فاني، وسرور التحدث معها مجددًا، ومعرفة أننا مازلنا أصدقاء على الرغم من كل السنوات والكوارث التي تركناها خلفنا. في الحقيقة، كنت أشعر بالضيق تلك الليلة، تقبض عليّ الأفكار الوجدانيةُ الغريبة، وأتذكر نظري في وجه فاني لأدرك فجأة، كما لو أنها المرة الأولى، أننا لم نعد صغارًا، وأن حياتنا كانت تنزلق بعيدًا عنا. لعله الكحول الذي شربته، لكن هذه الفكرة أذهلتني بشدةِ جلائها. كنا جميعًا نتقدم في العمر، والشيء الوحيد الذي يمكننا التعويل عليه بعد الآن هو بعضنا البعض. فاني وبن وآيريس وديفيد: هذه هي عائلتي. هم الأشخاص الذين أحببتهم، وأرواحهم هي التي أحملها بداخلي.

صعدنا إلى السطح مع الآخرين، وعلى الرغم من تردّدي الأولي، كنتُ سعيدًا لأنني لم أفوّت الألعابَ النارية. حوّلت الانفجارات نيويورك إلى مدينةٍ بألوان الطيف، حاضرةٍ تحت الحصار، وقد استمتعت بالفوضى الهائلة الناجمة عن ذلك: الضجيج الفيّاض، وتويجات الأضواء المتفجِّرة، والألوان التي تتطاير من خلال سحب الدخان الهائلة. انتصب تمثال الحرية في المرفأ على يسارنا، متوهجًا في مجده الوضّاء، بينما في كثير من الأحيان كانت مباني مانهاتن كما لو أنها على وشك اقتلاع نفسها من جذورها، لتقلع من الأرض ولا تعود إليها ثانية. جلستُ وفاني خلفَ الآخرين بقليل، نحتضن سيقاننا لنوازن أنفسنا إلى جدار السقف، متلامسا الكتفين، لا يدور حديثنا عن شيء محدد؛ الذكريات، ورسائل آيريس من الصين، وديفيد، ومقالة بن، والمتحف. ولا أريد أن أولي الأمرَ أهميةً أكبر مما ينبغي، لكننا قبل لحظات فقط من سقوط بن، انجرفنا إلى القصة التي رواها هو ووالدتُه عن زيارتهما لتمثال الحرية في عام 1951. في ظلِّ هذه الظروف، كان من الطبيعي أن تطفو القصة، لكنها كانت مريعةً بالقدر نفسه؛ لأن كلينْا لم نكد نضحَك على فكرة السقوط من تمثال الحرية حتى سقط بن من سلّم الحريق. فبعدَ لحظة، بدأت ماريا وآغنيس بالصراخ أسفلنا. كان الأمر كما لو أن نُطق كلمة «سقوط» قد ولّد سقوطًا حقيقيًّا، أو أن هناك ارتباطًا بين الحدثين، مازلتُ أغص في كل مرة أفكر فيها بما حدث. أواصل سماع تلك الصرخات قادمة من المرأتين، ومازلت أرى النظرة على وجه فاني عندما نودي اسمُ بن؛ نظرة الرعب التي غزت عينيها بينما تواصلت الأضواء الملونة للانفجارات ترتدُّ عن بشرتها. نُقل إلى مستشفى لونج آيلاند الجامعي، وهو لا يزال فاقدًا للوعي. على الرغم من أنه استيقظ في غضون ساعة، إلا أنهم أبقوه هناك لمدة أسبوعين، وأجروا سلسلة من اختبارات الدماغ لقياس مدى الضرر الدقيق. كانوا سيخرجونه عاجلًا، على ما أعتقد، لكن ساكس لم يقلْ شيئًا في الأيام العشرة الأولى، ولم يصدر عنه أي صوت أمام أحد، لا لفاني،

وليس لي، ولا لماريا تيرنر- التي كانت تزوره بعد ظهر كل يوم- ولا للأطباء أو الممرضات. ساكس المِهْزار الذي تستحيلُ السيطرة عليه قد صمت، وبدا من المنطقي أن نفترض أنه فقد القدرةَ على الكلام، وأن الخضّة التي أصابت رأسه تسببت في أضرارٍ داخليةٍ جسيمة. تلك الفترة كانت جحيمًا لفاني؛ فأقلعت عن العمل، وقضت أيامها جالسةً في الغرفة مع بن، لكنه لم يستجبْ لها، وغالبًا ما كان يغلق عينيه ويتظاهر بالنوم عندما تأتي، ويرد على ابتسامتها بنظرات خاوية، مُبديًا أنه لا يشعر بالراحة جرّاء حضورها، ما حوّل موقفًا صعبًا عليها في الأساس إلى حالةٍ توشك أن لا تطاق، ولا أعتقد أنني رأيتها أبدًا قلقةً، ومضطربةً، وقريبة للغاية من التعاسة التامة كما كانت حينها. كما أن استمرار ماريا في الظهور أيضًا لم يساعد. عَزَت فاني هذه الزيارات إلى كل أنواع الدوافع، ولكن الحقيقة هي أنها لا أساس لها من الصحة. ماريا بالكاد عرفت بن، وقد مرت سنوات عديدة منذ آخر لقاء بينهما. سبع سنوات، على وجه الدقة؛ آخر مرة كنت فيها على العشاء في بروكلين حيث التقيت أنا وماريا لأول مرة. دعوة ماريا لحفل تمثال الحرية لا علاقة لها بمعرفتها بن أو فاني أو إياي. آغنيس داروين؛ المحررة التي تُعدُّ كتابًا عن عمل ماريا، صديقةٌ لباتريشيا كليج، وهي المسؤولة عن اصطحابها إلى التجمع في تلك الليلة. كانت مشاهدة سقوط بن تجربة مرعبة لماريا، وقد جاءت إلى المستشفى بداعي الجزع، والمراعاة، ولأنه لم يكن من الصواب لها ألا تأتي. كنت أعرف ذلك، لكن فاني لم تعرف، وبينما كنت أشاهد حزنها كلما تقاطعت سبلهما هي وماريا (مدركًا أنها كانت تشتبه في الأسوأ، وأنها أقنعت نفسها بأن ماريا وبن كانا على علاقة سرية)، دعوت الاثنتين على الغداء في كافتيريا المستشفى بعد ظهر أحد الأيام لتنقية الأجواء.

وفقًا لرواية ماريا، تحدثت هي وبن لبعض الوقت في المطبخ؛ حيث كان حيويًّا وساحرًا، ويسلّيها بحكايات غامضة عن تمثال الحرية. عندما انطلقت الألعاب النارية، اقترح عليهم التسلق عبرَ نافذة المطبخ والمتابعة من سلم

الحريق بدلًا من الذهاب إلى السطح. لم تكن تدري أنه أفرط في الشراب، إلا إنه في لحظة معينة، على حين غرة، هبّ قافزًا، وأرجح بنفسه فوق الدرابزين، وجلس على حافته الحديدية، وساقاه تتدليان تحته في الظلام. قالت إن هذا أرعبها، فاندفعت ولفّت ذراعيها حوله من الخلف، وتمسكت بجذعه لمنعه من السقوط. حاولت إقناعَه بالنزول، لكنه اكتفى بالضحك وأخبرها ألّا تقلق. في تلك اللحظة، دخلت آغنيس داروين إلى المطبخ وشاهدت ماريا وبن من خلال النافذة المفتوحة. كانا قد أدارا ظهريهما، ومع كل الضوضاء والهياج في الخارج، لم يكن لديهما أدنى فكرة أنها كانت هناك. امرأة ممتلئة مرحة كانت قد شربت بالفعل أكثر من طاقتها، فدار في رأس آغنيس أن تخرج وتنضم إليهما على سلم الحريق. حملت كأسًا من النبيذ بيدٍ، وناورت بجسدها العامر لتخرج من النافذة، وهبطت على المنصة ليعلق كعبُ حذائها الأيسر بين شريحتين حديديتين؛ فحاولت تعديل توازنها ولكنها ترنَّحت فجأة إلى الأمام. لم يكن هناك متسع، وبعد نصف خطوة تعثرت بماريا من الخلف، فسقطتْ مباشرة دافعةً صديقتها بكامل قوة وزنها. تسببت صدمة الضربة في فتح ذراعي ماريا، وما إنْ قذفت قبضتها على ساكس انطلق مندفعًا فوق حافة السور. تمامًا هكذا روت، دون أيِّ سابق إنذار على الإطلاق. اصطدمت آغنيس بها، فاصطدمت بساكس، وبعد لحظة كان يسقط رأسًا على عقب في الظلام.

شعرتْ فاني بالارتياح عندما علمت أن شكوكها لا أساس لها من الصحة، ولكن في الوقت نفسه لم يتوضَّح أي شيء واقعًا. لماذا صعد ساكس على الدرابزين في المقام الأول؟ وهو الذي لطالما كان يخشى المرتفعات، وفي ظل هذه الظروف بدا أنه آخر شيء كان سيفعله. وإذا كان كل شيء على ما يُرام بينه وبين فاني قبل الحادث، فلماذا انقلب عليها الآن، ولماذا يصدّ عنها في كل مرة تدخل فيها الغرفة؟ حدث شيء ما، أكبر من الأضرار الجسدية التي سببها الحادث، وإلى أن تمكن ساكس من الحديث، أو بالأحرى، حين قرر أنه يريد التحدث؛ لم تكن فاني تعرفه بتاتًا.

استغرق الأمرُ ما يقرب الشهر قبل أن يخبرني ساكس عن نسخته من القصة.

كان في المنزل وقتها، ما يزال يتعافى لكنه لم يعد مضطرًّا إلى الاستلقاء في السرير. توجهتُ إلى شقته بعد ظهر أحد الأيام بينما كانت فاني في العمل. كان يومًا حارًّا في أوائل آب. شربنا الجعَّة في غرفة المعيشة، أتذكر أننا كنا نشاهد مباراة بيسبول على التلفاز مع إيقاف الصوت، وكلما أفكر في تلك المحادثة الآن أرى لاعبي الكرة الصامتين على الشاشة الصغيرة الوامضة، وهُم يختالون بفخر في تتابعِ انطلاقاتٍ دون اهتمامٍ يذكر؛ موقفٌ عبثيٌّ يتناقض والنجوى المؤلمة التي أفاض بها صاحبي إليّ.

قال إنه في البداية تعرّف بصعوبةٍ على ماريا تيرنر. لاحظ وجودها في الحفلة، لكنه لم يستطع تذكرَ سياق لقائهما السابق. قال لها: «إنني لا أنسى وجهًا أبدًا، لكنني أجد صعوبةً في إرفاق اسم بك». مراوغةً كعادتها، اكتفتْ ماريا بالتبسُّم، قائلة إنه من المحتمل أن يتذكرَه بعد برهة. أضافت- على سبيل التلميح- لقد كنتُ في منزلك ذات مرة، لكنها لم تفصح عن أكثر من ذلك. أدرك ساكس أنها كانت تتلهَّى به، لكنه استمتع بطريقتها في ذلك. كان مفتونًا بابتسامتها الساخرة المسلية، ولم يكن لديه أي مانع في أن يُستدرج إلى لعبة القط والفأر. من الواضح أنها كانت تتمتع بالذكاء الكافي لمتابعة أمرٍ بدأ بالتشويق فعلًا؛ لشيءٍ يستحق عناء السعي وراءه.

قال ساكس، لو أنها أخبرته باسمها، فمن المرجح أنه لم يكن ليتصرف بالطريقة التي تصرف بها. علِم آنفًا أني وماريا تيرنر كنّا على علاقة قبل مقابلتي آيريس، وكان يعلم أن فاني لا تزال على اتصال بها؛ لأنها كانت تتحدث معه بين الحين والآخر عن عمل ماريا. ولكن كان هناك التباس بخصوص حفل العشاء قبل سبع سنوات، ولم يعرف ساكس بالتحديد من هي ماريا تيرنر. ثلاث أو أربع فنانات كنَّ يجلسن إلى الطاولة ذاك المساء، ولأن ساكس يلتقي

بهن جميعًا للمرة الأولى ارتكب الخطأ الشائعَ بخلط أسمائهن ووجوههن، وإعطاء اسم خاطئ لكل وجه. في ذهنه، ماريا تيرنر هي امرأة قصيرة بشعر بني طويل، وكلما ذكرتها أمامه، كانت تلك هي الصورة التي يراها.

حملا كأسيهما إلى المطبخ، الذي كان أقل ازدحامًا إلى حد ما من غرفة المعيشة، وجلسا على مدفأةٍ بجوار النافذة المفتوحة، ممتنّين للنسيم الخفيف الذي يهب على ظَهريهما. على النقيض مِن إفادة ماريا حول اتزانه أخبرني ساكس أنه كان مخمورًا بالفعل. كان رأسه يدور، ومع إنه ظلَّ ينبه نفسَه للتوقف فقد كرعَ على الأقل ثلاثة كئوس بوربون في غضون الساعة التالية. تطوَّرت محادثتهما إلى واحدة من تلك المطارحات المضمرة التي تولد عندما يبدأ الناس بمغازلة بعضهم البعض في الحفلات، بسلسلةٍ من الأحاجي، واستنباطاتٍ لا تتفق ومقدماتها، ووخزاتٍ ذكية من المزايدات البارعة. الحيلة تقع في عدم قول أي شيء عن النفس بأسلوبٍ أنيقٍ وغير مباشر قدرَ الإمكان، لدفع الآخر إلى الضحك، ولكي تبدو حاذقًا. كان ساكس وماريا بارعيْن في ذلك، وتمكّنا من مواكبة ذلك مع ثلاثة كئوس البوربون بالإضافة إلى زوجين من أنخاب النبيذ.

نظرًا لحرارة الطقس، ولأنَّ ماريا كانت مترددة في الذهاب إلى الحفلة (ظنت أنها ستكون مملة)، فقد كانت ترتدي أزهدَ ما في خزانة ملابسها: قميص قرمزي ضيق بلا أكمام بتقويرة عنق هابطة، تنورة منمنمة سوداء، ساقاها عاريتان، وحذاء بكعب عالٍ مدبب، وخاتم على كل أصبع، وسوار على كل معصم. كان زيًّا شنيعًا ومستفزًّا، إلا إنَّ ماريا كانت في واحدة من تلك الحالة المزاجية، إن لم تفكر بشيء آخر فهو يضمن أنها لن تضيع وسطَ الحشد. أخبرني ساكس أيضًا بعدَ ظهر ذلك اليوم أمام التلفاز الصامت، أنه ضبط سلوكه خلال السنوات الخمس الماضية. لم يُعِرْ أي امرأة أخرى اهتمامه طوال ذلك الوقت، وتعلّمتْ فاني كيف تثق به مرة أخرى. كان إنقاذ زواجه

عملًا شاقًّا؛ فقد تطلّبَ بذلَ جهدٍ هائلٍ من كليهما خلال فترةٍ طويلةٍ وصعبة، وكان قد تعهدَ بعدم تعريض زواجه بفاني للخطر مرَّة أخرى. ها هو جالس الآن على المدفأة بجوار ماريا في الحفلة، منهك القوى وجهًا لوجه مع امرأة نصف عارية بساقين رائعتين وجذابتين، وفي منتصف الطريق في الخروج عن السيطرة، مع الكثير من الشراب يضخُّ في مجرى دمه. شيئًا فشيئًا، غاص ساكس في دافعٍ جامحٍ للمس تلك الساقين، ولتمرير يدِه لأعلى وأسفل على نعومة تلك البشرة. ومما زاد الطين بلة، أن ماريا كانت تضع عطرًا خطيرًا باهظَ الثمن (لطالما كان ساكس ضعيفًا أمام العطور)، وباستمرار محادثتهما المثيرة المُداعِبة، كان ذلك كل ما يمكنه فعله لمنع ارتكابه خطأً فادحًا ومهينًا. لحسن الحظ، قمعتْ كوابحه رغباتِه، لكن ذلك لم يمنعه من تخيُّل ما يمكن أن يحدث لو أنه خسر. رأى أطراف أصابعه تسقط برفق على بقعة فوق ركبتها اليسرى مباشرة؛ رأى يده وهي تتحرك لأعلى نحو تلك المساحات الصغيرة من الجلد.

لقد كانت تمثيليّةً عقليةً مُتَّقِدةً، ولكن ما إن بدأ جهاز العرض يدور في رأسه، حتى صار ساكس عاجزًا عن إيقاف تشغيله. ماريا بدت كأنها تعرف بالضبط ما كان يفكر فيه وهذا لم يساعد أيضًا. لو أنها أبدت امتعاضًا ما، فلربما تحطم السحر، لكن الواضح أن ماريا تحب أن تكون موضوعًا لمثل هذه الأفكار الفاسقة، ومن الطريقة التي حدّقت به كلما نظر إليها، بدأ ساكس يشك في أنها كانت تحرضُه بصمتٍ على ذلك، وتتحداه ليمضي قُدمًا بما يريد القيام به. لمعرفتي بماريا قلتُ، يمكنني التفكير في أكثر من دافعٍ قاتم لتفسير سلوكها؛ فقد يكون مرتبطًا بمشروعٍ تعمل عليه، على سبيل المثال، أو أنها كانت تستمتع بوقتها لأنها كانت تعرف شيئًا لا يعرفه ساكس، أو أنها قررت معاقبته لعدم تذكر اسمها بشكلٍ منحرفٍ إلى حدٍّ ما. (في وقت لاحق، عندما أتيحت لي الفرصة الحديث معها على انفراد، اعترفت بأن السبب الأخير كان صحيحًا في الواقع(. لكن ساكس لم يعلم بأيٍّ من ذلك في وقته. كان بإمكانه

اليقين فقط بما شعر به، وكان بسيطًا جدًّا: أنه كان يشتهي امرأة غريبة جذابة، وكان يحتقر نفسه بسبب ذلك.

قلت: لا أرى أن لديك ما تخجل منه. أنت بشر في النهاية، وماريا يمكنها أن تغدو آسرة للغاية عندما تنوي ذلك. طالما لم يحدث شيء، فلا مجال لتأنيب الضمير.

«ليس الأمر أنني شعرت بالإغواء»، تحدث ساكس بتمهل، منتقيًا كلماته بعناية: «لقد كنت أقوم بإغوائها. كنت قد أقلعتُ عن ذلك، كما تعرف. وعدت نفسي بأن ذاك زمن ولى، وها أنا أفعل ذلك مرة أخرى».

«أنت تخلط بين الأفكار والأفعال». قلت «هناك فرقٌ شاسعٌ بين القيام بشيءٍ ما والتفكير فيه فقط. إذا لم نُدرك هذا الفرق، ستغدو الحياة مستحيلة».

- أنا لا أتحدث عن ذلك. النقطة هي أنني أردتُّ أن أفعل شيئًا لم أكن أرغب القيام به قبل دقيقة واحدة فقط. لا يتعلق الأمرُ بخيانة فاني، بل كان تساؤلًا عن معرفة الذات. راعني اكتشافُ قدرتي على خداع نفسي بهذه الطريقة. لو أنني ردعت نفسي في تلك اللحظة وبذاك المكان فلن يكون الأمرُ بهذا السوء البالغ، ولكنني حتى بعد أن وقفتُ على ما كنتُ أفعله واصلتُ مغازلتها على أي حال.
- لكنك لم تلمسها. في النهاية، هذا هو الشيء الوحيد المهم هنا.
- لا، لم ألمسها. لكنني سويت الأوضاع لكي تُجبر هي على لمسي. بقدر ما يعنيني؛ هذا أسوأ. كنتُ غير أمينٍ مع ذاتي. تمسّكتُ بنص القانون مثل صبي كشافةٍ طيب، لكني خنتُ روحه كليًّا. لهذا السبب سقطتُ من سلم النجاة. لم يكن حادثًا في حقيقة الأمر، يا بيتر. لقد جلبت ذلك لنفسي. تصرفتُ كوغد، ثم اضطررت إلى دفع ثمن خطئي.
- هل تبلغني أنك قفزت؟

- لا، ليس بهذه البساطة. لقد قمت بمجازفة غبية، هذا كل ما في الأمر. فعلت ما لا يغتفر؛ لأنني خجلتُ من الاعتراف لنفسي أنني رغبتُ بلمس ساق ماريا تيرنر. في تقديري، الرجل الذي يذهب إلى هذا الحد من خداع الذات يستحق كل ما يصيبه.

هذا هو السبب في أخذه إياها إلى مخرج الحريق. كان ذلك خروجًا من المشهد المحرج الذي تصاعد في المطبخ، ولكنه أيضًا خطوةٌ أولى في خطة مفصلة؛ حيلةٌ من شأنها أن تسمح له بالتماسّ وجسد ماريا تيرنر مع الحفاظ على شرفه موفورًا. ذلك ما أغضبه وهو ينغمس في التفكير بالأحداث لاحقًا: ليس حقيقة رغبته، ولكن إنكارُ تلك الرغبة كوسيلةٍ مراوغةٍ لتحقيقها. قال إن الفوضى كانت تعم المكان؛ الحشود الهاتفة، والألعاب النارية المتفجرة، والضجيج المسعور النابض في أذنيه. وقفًا على المنصة للحظات يشاهدان رشقة من المقذوفات تنير السماء، ثمَّ قررَ تنفيذ الجزء الأول من خطته. بالنظر إلى خوفه الأزلي من مثل هذه المواقف، كان من اللافت أنه لم يتردد. تَقدَّمَ إلى حافة المنصة، وأدار ساقه اليمنى فوق السور، وثبت نفسَه لفترة وجيزة بإمساك الحاجز بيديه، ثم قام بإدارة ساقه اليسرى أيضًا. مهزهزًا جسده للأمام والخلف قليلًا وهو يصحح توازنه، ويسمع ماريا تشهق خلفه. أدرك ساكس أنها شكّت أنه على وشك القفز؛ لذا سرعان ما طمأنها، مؤكدًا أنه كان يحاول فقط الحصول على رؤية أفضل. لحُسن الحظ، لم تَقنع ماريا بإجابته. ناشَدَتْه أن يترجل، وعندما لم يفعل، قامت بالشيء الوحيد الذي كان يأمل أن تفعله، الشيء ذاته الذي كانت مكيدته الرعناء قد خطّطت لتحقيقه. هُرِعت من خلفه ولفت ذراعيها حول صدره. هذا كل شيء: فعلٌ صغيرٌ من الإشفاق يخفي نفسَه في شكل احتضانٍ عاطفيٍ كامل. لم يؤدِّ ذلك إلى النشوة التي كان يتطلع إليها (كان خائفًا جدًّا من إعطائها اهتمامه الكامل)، ولم يخيب آماله تمامًا. كان يشعر بدفء أنفاسها يرفرف على قفاه، ويشعر بصدرها يضغط على عموده الفقري، ويمكنه أن يشم عطرها. كانت أقصر اللحظات، أصغر

الملذات الصغيرة الفانية، إلا إنه عندما كانت ذراعاها العاريتان النحيفتان مشدودتيْن حوله شعرَ بشيء يشبه السعادة؛ قشعريرة مجهرية، دفقة من النعيم العابر. بدا أن مقامرته قد آتت أكلها. كلُّ ما عليه الآن- لكي تستحق المسرحية التنكرية بأكملها العناء- أن ينزلَ من هناك فقط. تمثلتْ خطته في الاتكاء على ماريا واستخدام جسدها للدعم حيث أنزل نفسَه إلى المنصة (مما سيؤدي إلى إطالة الاتصال بينهما حتى آخر ثانية ممكنة)، ولكن ما إن بدأ ساكس في نقل وزنه لإجراء هذه العملية حتى كانت آغنيس داروين تسحب كعب حذائها وتتعثر بماريا من الخلف. كان ساكس قد خفف قبضته عن قضيب السور، وعندما اصطدمت ماريا به فجأة بدفعة أمامية عنيفة، فُتحت أصابعُه وفقدت يديه الاتصالَ بالقضيب. قفز مركزُ جاذبيته إلى أعلى، وشعر أنه يُقذَف من المبنى، وبعد لحظة لم يكن محاطًا إلا بالهواء.

***

قال: «لم أكن سأستغرق وقتًا طويلًا للوصول إلى الأرض. ربما ثانية أو ثانيتين، ثلاثة على الأكثر. لكنني أتذكر بجلاءٍ أنه كان لديَّ أكثر من فكرة خلال ذلك الوقت. جاء الرعب أولًا، ولحظة الإدراك؛ اللحظة التي وعيت فيها أنني أسقط. قد تظن أن ذلك كل شيء، وأنه لم يكن لديَّ وقت للتفكير بأي شيء آخر. وأن الرعب لم يدم. لا، هذا خطأ، الرعب استمر، ولكن فكرة أخرى نمت بداخله، شيء أقوى من مجرد الرعب وحده. من الصعب تسميته. ربما شعورٌ باليقين المطلق. ربما اندفاع هائل وقوي من الاقتناع، طرفٌ من طعم الحقيقة المطلقة. لم أكن واثقًا من أي شيء في حياتي بهذا القدر. أولًا، أدركتُ أنني كنت أسقط، ثم أدركت أنني ميّت. لا أقصد شعوري بأنني سأموت، بل أعني أنني ميت بالفعل. كنت رجلًا ميتًا يسقط في الهواء، ومع إنني مازلت على قيد الحياة من الناحية العملية، إلا أنني كنت ميتًا كما رجلٌ دُفن في قبره. لا أعرف كيف أصفه بغير هذه الصورة. حتى وأنا أسقط،

كنت قد تجاوزت لحظة الارتطام بالأرض، وتجاوزت لحظة الاصطدام، ولحظة التشظي. كنت قد تحولت إلى جثة، وعندما اصطدمت بحبل الغسيل وسقطتُ على تلك المناشف والبطانيات، لم أعد موجودًا. كنتُ قد غادرتُ جسدي، وفي لحظة من الثانية رأيت نفسي أختفي بالفعل».

كانت هناك أسئلة أردتُّ طرحها عليه حينها، ولكنني لم أقاطعه. كان ساكس يواجه صعوبةً في سرد القصة، ويتحدث في غيبوبةٍ من التردد والصمت المُرْبك، وكنت أخشى أن تؤدي كلمة مفاجئة منّي إلى إخراجه عن مساره. بصراحة، لم أفهم تمامًا ما يحاول قوله. لم يكن لدي شك أن السقوط تجربةٌ مروِّعة، إلا أنَّني كنت محتارًا بسبب مقدار الجهد الذي بذلهُ في وصف الأحداث البسيطة التي سبقته. رأيتُ مسألة ماريا هامشية، وليس لها أهمية حقيقية، ملهاةٌ مبتذلةٌ من سلوكيات لا تستحق الحديث عنها. ومع ذلك، كان لها في ذهن ساكس اتصالًا مباشرًا. شيءٌ تسبّب فيما تلاه؛ مما يعني أنه لم ير السقوط على أنه حادث أو شيء من الحظ السيئ بقدر ما كان ينظر إليه على أنه شكل غير مألوف من أشكال العقاب. أردتُّ إخباره أنه كان مخطئًا، وشديدَ القسوة على نفسه، لكنني لم أفعل. جلست هناك واستمعت إليه وهو يواصل تحليلَ سلوكه. كان يحاول أن يقدم لي سردًا دقيقًا تمامًا، ويتمحّك بصبرِ عالمِ لاهوتٍ من العصور الوسطى، مجاهدًا للتعبير عن كل تفصيلةٍ في مداعبته غير المؤذية مع ماريا على سلّم الحريق. كانت دقيقةً للغاية، ومجهدةً بلا حدود، ومعقدةً، وبعد فترة بدأتُ أفهم أن هذه الدراما المصغرة قد اكتسبت حجمَ السقوط نفسه. لم يعُد هناك فرق. عناقٌ سريعٌ سخيفٌ بات معادِلًا أخلاقيًّا للموت. لو لم يكن ساكس جادًّا في هذا الأمر لكنتُ وجدتُّه نكتة. لسوء الحظ، لم يخطر ببالي أن أضحك. كنت أحاول أن أكون متعاطفًا، وأن أستمع إليه وأقبل ما سيقوله بشروطه الخاصة. وبالنظر إلى الوراء الآن، أعتقد أنني كنت سأخدمه بشكل أفضل لو أنني أخبرته بما كنت أعتقده. كان يجب أن أضحك في وجهه. كان يجب أن أخبره أنه مجنون وأرغمه على

التوقف. إذا كانت هناك لحظة خذلت فيها ساكس كصديق، فقد كانت بعد ظهر ذلك اليوم قبل أربع سنوات. سنحت لي الفرصة لمساعدته، وتركتها تفلت من بين أصابعي.

قال إنه لم يتخذ أبدًا قرارًا واعيًا بعدم الكلام. هكذا جرت الأمور، وحتى مع استمرار صمته، شعرَ بالخجل من نفسه لأنه تسبب في قلق الكثيرين. لم يكن يشك في تلف الدماغ أو الصدمة، ولم يكن هناك أي علامة على ضعفٍ جسديّ. لقد كان يفهم كل ما يقال له، ويعلم أنه قادر على التعبير عن نفسه في أي موضوع. جاءت اللحظة المحورية في البداية، عندما فتح عينيه ورأى امرأةً غير مألوفة تحدق مباشرة في وجهه؛ ممرضةٌ كما اكتشف لاحقًا. سمعها تعلن لشخص ما أن «ريب فان وينكل»[1] قد استيقظ أخيرًا، أو ربما كانت هذه الكلمات موجهة إليه، لم يكن متأكدًا. أراد أن يقول لها شيئًا ما بالمقابل، ولكن عقله كان بالفعل مضطربًا، ويدور في كافة الاتجاهات في وقت واحد، ومع الألم الذي قرر لحظتها الإعلان عن وجوده في عظامه فجأة، رأى أنه أضعف من أن يجيب عليها في التَّو وسيدعُ الفرصة تفوته. لم يفعل ساكس شيئًا من هذا القبيل من قبل، وبينما واصلت الممرضة الثرثرةَ أمامه، وانضم إليها في النهاية طبيب وممرضة ثانية، واحتشد الثلاثة حول سريره، يحثونه على إخبارهم بما يشعر به؛ غاص ساكس مع أفكاره كما لو أنهم ليسوا موجودين، مسرورًا بتحرير نفسه من عبء الرد عليهم. افترض أن ذلك سيحدث مرة واحدة فقط، لكن الشيء نفسه حدث معه في المرة التالية، ثم في المرة التالية، وفي المرة اللاحقة أيضًا. كلما تحدث إليه شخص ما، يستحوذ على ساكس نفس الإكراه الغريب على الإمساك بلسانه. مع مرور الأيام، أصبح أكثر رسوخًا في صمته، ويتصرف كما لو أنها قضية شرف، وتحديًا سريًّا للحفاظ بإيمانه لنفسه. كان يستمع إلى الكلمات التي يوجهها الناس إليه، ويزِنُ بعنايةٍ

(1) شخصية خيالية من صنع الكاتب واشنطن إيرفنغ. (المترجم)

كل جملةٍ عندما تدخل أذنيه، ولكن بعد ذلك، بدلًا من إبداء ملاحظة خاصة به، كان يدير وجهه، أو يغمض عينيه، أو يحدّق مرة أخرى في محاوره. كأنه يرى من خلاله مباشرة. ساكس علِم كم كان هذا السلوك طفوليًّا ونزقًا، لكن هذا لم يخفِّف عليه صعوبة التوقف. لم يعنِ الأطباء والممرضون له شيئًا، ولم يشعر بأي مسئوليةٍ كبيرةٍ تجاه ماريا أو تجاهي أو تجاه أي من أصدقائه الآخرين. إلّا إنَّ فاني كانت مختلفة على أي حال، وكانت هناك عدة مرات اقترب فيها من التراجع من أجلها. على أقل تقدير، كان يخترقه وميضٌ من الأسف كلما قدِمَت لزيارته. لقد أدرك مدى قسوته تجاهها، وقد ملأه ذلك بإحساس بانعدام القيمة؛ المذاقُ البغيض الذي يتركه الندم. في بعض الأحيان، بينما كان يرقد هناك في الفراش يصارع ضميره، كان يقوم بمحاولة واهنة للابتسام في وجهها، في الواقع وصل مرةً أو مرتين إلى حد تحريك شفتيه، فخرجت أصوات غرغرة خافتة من مؤخرة حلقه؛ لتقتنع أنه يبذل قصارى جهده، وأن كلماتٍ حقيقيةً ستخرج عنه عاجلًا أم آجلًا. كرِه نفسه بسبب هذا التصنُّع، لكن كانت هناك الكثير من الأشياء التي تعتمل داخل صمته حينها، ولم يستطع شحذ الإرادة لوقفها.

على عكس ما افترضه الأطباء، ساكس كان يذكر كل تفاصيل الحادث. ما كان عليه إلّا أن يفكر بأيِّ لحظة من تلك الليلة لتعود الليلة بأسرها وبكل فوريّتها المقززة: الحفلة، وماريا تيرنر، وسلم النجاة، واللحظات الأولى من سقوطه، ويقين الموت، وحبل الغسيل، والإسمنت. لا يغيب أيّ منها، ولا تفصيل أقل وضوحًا من سواه. يهبط الحدث برمته في فورةٍ من الجلاء، طوفانٌ من الاستحضار الطاغي. حدثَ شيءٌ غير عادي، وقبلَ أن يفقد قوته بداخله، كان بحاجة إلى تكريس اهتمامه اللامحدود له. وهكذا جاء صمته. لم يكن رفضًا بقدر ما كان وسيلة، وطريقة للتمسك برعب تلك الليلة فترةً كافيةً لفهمه. أن يبقى صامتًا يعني أن يحيط نفسه بالتأمل، ويعايش لحظات

سقوطه مرارًا وتكرارًا، كما لو أنه بإمكانه تعليق نفسه في الهواء طول الدهر على بعد بوصتين فقط من الأرض، منتظرًا إلى الأبد رؤيا اللحظة الأخيرة.

أخبرني أنه لم يكن ينوي مسامحة نفسه. إدانته نتيجةٌ محسومة، وكلما قل الوقت الذي يُضيّعه عليها كان أفضل. قال: «في أي لحظة أخرى من حياتي، ربما كنت سأفتش عن أعذار. فالحوادث تحدث، في نهاية المطاف. كل ساعة من كل يوم، يموت الناس عندما لا يتوقعون ذلك على الإطلاق. يحترقون في النيران، ويغرقون في البحيرات، ويصدمون بسياراتهم سيارات أخرى، ويسقطون من النوافذ. تقرأ عن ذلك في الصحف كل صباح، وستكون أحمقَ عندما لا تعي أن حياتك يمكن أن تنتهي بشكل مفاجئ ودون جدوى كحياة أيٍّ من هؤلاء الأوغاد المساكين. لكن الحقيقة هي أن الحادث الذي وقع لي لم يكن بسبب سوء الحظ. لم أكن مجردَ ضحية، كنت شريكًا نشطًا في كل ما حدث لي، ولا يمكنني تجاهل ذلك، يجب أن أتحمل بعضَ المسئولية عن الدور الذي لعبته. هل هذا منطقي بالنسبة لك، أم تجدني أهذي؟ أنا لا أقول إنَّ مغازلة ماريا تيرنر كانت جريمة. هو عملٌ دنيء، وحيلة صغيرة مقيتة، لا أكثر من ذلك. ربما شعرت كأنني شغِفٌ بها، ولكن لو كانت هذه القرصة بين المِنْسَلين هي القصة بأكملها لبتُّ ناسيًا كل شيء عنها الآن. ما أقوله هو أنني لا أعتقد أن الجنس كان له علاقة كبيرة بما حدث في تلك الليلة. هذا أحد الأشياء التي اكتشفتها في المستشفى، مستلقيًا على السرير طوال تلك الأيام دون حديث. لو كنت جادًّا فعلًا في مطاردة ماريا تيرنر فلماذا ذهبت إلى هذا المدى السخيف لمراوغتها كي تلمسني؟ يعلم الله أن هناك طرقًا أقل خطورة للقيام بذلك، مائة إستراتيجية أكثر فاعلية لتحقيق النتيجة ذاتها. لكنني جعلت من نفسي أرعن هناك عند مهرب الحريق، لقد خاطرت بحياتي بالفعل. لماذا؟ من أجل عناق قصير في الظلام، من أجل لا شيء على الإطلاق. بالنظر إلى ذلك المشهد من فراشي في المستشفى، أدركتُ أخيرًا أن كل شيء كان مختلفًا عما كنت أتخيله. فهمته بالعكس، كنت أتأمله

بالمقلوب. لم يكن الهدف من سلوكي المجنون جعلَ ماريا تيرنر تضع ذراعيها حولي، بل كان المخاطرة بحياتي. هي كانت مجردَ ذريعة؛ أداةٍ تدفعني لصعود الدرابزين، يد ترشدني إلى حافة الكارثة. السؤال كان: لماذا فعلتُ ذلك؟ لماذا كنت حريصًا جدًّا على مغازلة تلك المخاطرة؟ لا بد أنني سألت نفسي هذا السؤال ستمائة مرَّة في اليوم، وفي كل مرة تساءلت فيها، تنفتح فجوة هائلة فيّ وأسقط مباشرة بعد ذلك مجددًا، وأغرقُ سريعًا في الظلام. لا أريد أن أبدو دراماتيكيًّا حيال ذلك، لكن تلك الأيام التي أمضيتُها في المستشفى هي أسوأ أيام حياتي. أدركت أني وضعت نفسي في وضعٍ يسمح بالسقوط، وأنني فعلت ذلك عن قصد. كان هذا اكتشافي، الاستنتاج القاطع الذي خرج من صمتي. عرفتُ أنني لا أريد أن أعيش. لأسباب لا تزال مستغلقة عليّ، صعدت على الدرابزين في تلك الليلة لأقتل نفسي».

قلت: كنتَ ثملًا، ولم تعِ ما كنت تفعل.

- كنتُ ثملًا، وأعرفُ بالضبط ما كنت أفعل. كل ما في الأمر أنني لم أكن أعرف أنني أعرف.
- هذا كلامٌ مراوغ. سفسطة خالصة.
- لم أكن أعرف أنني أعرف، والشراب منحني الشجاعة لكي أتصرف. لقد ساعدني في فعل الشيء الذي لم أكن أعي أنني أريد القيام به.
- لقد أخبرتني أنك وقعت لأنك كنت تخشى لمسَ ساق ماريا. الآن تغيّر قصتك وتخبرني أنكَ وقعت عن قصد. لا يمكنك استخدام الحجة ونقيضها. إما هذه أو تلك.
- كلاهما. أحداهما قادت إلى الآخر ولا يمكن فصلهما. أنا لا أقول إنَّني أفهم المسألة، أنا فقط أخبرك كيف كانت، وما أعرف أنه صحيح. كنتُ على استعداد للتخلص من حياتي في تلك الليلة. لا يزال بإمكاني الشعور بذلك في أحشائي، ويخيفني التجول بهذا الشعور.

- هناك جزء في كل شخص يريد أن يموت، مِرجلٌ صغير من تدمير الذات يعتمل دائمًا تحت السطح. لسبب ما، توقدتْ نيرانه عاليًا لديك في تلك الليلة، وحدث أمرٌ جنوني. ولكن مجرد حدوث ذلك مرة، لا يعني أنه سيحدث مرة أخرى.
- ربما هو كذلك. لكن هذا لا يزيل حقيقة أنه حدث، ولسببٍ ما. وإن باغتني بهذا الشكل، فلا بدَّ أن هذا يعني وجود خطأٍ جوهريٍّ بي. لا بد أن ذلك يعني أنني لم أعد أؤمن بحياتي.
- لو لم تؤمن بذلك لما عدتَ إلى الحديث ثانيةً. لا بد أنك توصلت إلى قرار ما، ووطّنتَ نفسَك عليه بحلول ذلك الوقت.
- على العكس. لقد دخلتَ عليّ الغرفة مع ديفيد، ودنا من سريري وابتسم لي. وجدتُّ نفسي فجأة ألقي التحيةَ له. كان الأمر بهذه البساطة. بدا لطيفًا للغاية. مُسْمرًّا وبصحة جيدة نتيجة الأسابيع التي قضاها في المخيم، صبيٌّ مثاليٌّ في التاسعة من عمره. عندما سار إلى سريري وابتسم لي لم يخطر ببالي أبدًا ألّا أتحدث معه.
- كانت هناك دموع في عينيك. توقعتُ أن هذا يعني أنك قد توصلت إلى قرار، وأنك في طريقك للعودة.
- هذا يعني معرفتي أنني وصلتُ إلى القاع. يعني أنني أدركت أنه يجب عليّ تغيير حياتي.
- تغيير حياتك ليس مثل الرغبة في إنهائها.
- أريد إنهاءَ الحياة التي كنت أعيشها حتى الآن. أريد تغيير كل شيء. إذا لم أتمكن من القيام بذلك فسأكون في ورطة عميقة. حياتي كلها كانت هباء، نكتة صغيرة غبية، سلسلة كئيبة من الإخفاقات المثيرة للشفقة. سأبلغ الحادية والأربعين من العمر في الأسبوع المقبل، وإذا لم أتحكم في الأمور الآن فسوف أغرق. سأغرق كحجر في قاع العالم.

- كلُّ ما تحتاجه هو العودة إلى العمل. في اللحظة التي تبدأ فيها الكتابة مرة أخرى، ستبدأ في تذكر مَن أنت.
- فكرة الكتابة تثير اشمئزازي. لم تعدْ تعني لي شيئًا الآن.
- هذه ليست المرة الأولى التي تتحدث فيها بهذه الطريقة.
- ربما لا. ولكنني هذه المرة أعني ذلك. لا أريد قضاء بقية حياتي في لفّ الأوراق الفارغة في آلة كاتبة. أريد أن أقوم من مكتبي وأفعل شيئًا ما. انتهت أيام البقاء في الظل تلك. عليّ الآن أن أنزل إلى العالم الحقيقي وأفعل شيئًا.
- مثل ماذا؟

قال ساكس: «من يعرف» علقتْ كلماته في الهواء لعدة ثوان، وبعد ذلك، وبدون سابق إنذار، تهلَّل وجهه. كانت أول ابتسامة رأيتها عليه منذ أسابيع، وفي تلك اللحظة المؤقتة، كاد أن يشبه نفسَه القديمة مرة أخرى. قال: «عندما أكتشف ذلك، سأكتب لك رسالة».

***

غادرتُ شقة ساكس وأنا أفكّر أنه سيجتاز الأزمة. ربما ليس على الفور، لكن بعد أن طال الأمد وجدتُّ صعوبةً في تخيُّل أن أموره لن تعود إلى طبيعتها. حدّثتُ نفسي أنه يتمتع بقدرٍ كبيرٍ من المرونة والذكاء والقدرة على التحمل بحيث لا يسمح للحادث بتحطيمه. لعلّني كنت أقلل من الدرجة التي اهتزتْ بها ثقته، لكني أميل إلى العكس. رأيت كم كان معذَّبًا، وشهدتُ تباريح شكوكه واتهاماته لنفسه، ولكن على الرغم من الأشياء المفعمة بالكراهية التي قالها عن نفسه بعد ظهر ذلك اليوم، إلا أنَّه أشار لي بابتسامةٍ أيضًا، وقرأتُ دفقة السخرية الشاردة تلك كبادرة أمل؛ كدليلٍ على أن ساكس كان بداخله، ولاحتمال شفائه التام.

مرَّت أسابيع، ثمَّ شهور، وظل الوضعُ على ما هو عليه. صحيح أنه استعاد قدرًا كبيرًا من اتزانه الاجتماعي، ومع مرور الوقت، أصبحت معاناته أقلَّ وضوحًا (لم يعد يجلس ساكنًا مع الصحبة، لم يعد يبدو غائبًا تمامًا)، لكن ذلك كان فقط لأنه تحدث بشكل أقل عن نفسه. لم يكن كصمتِ المستشفى، لكن تأثيره كان مشابهًا. بات يتحدّث الآن؛ يفتح فمه ويستخدم الكلمات في اللحظات المناسبة، لكنه لم يقل أبدًا أي شيء عما يقلقه حقًّا، ولم يقل أبدًا أي شيء عن الحادث أو ما بعده، وشعرت شيئًا فشيئًا أنه دسّ معاناته تحت الأرض، دفنها في مكان لا يراه أحد. لو أن كل شيء آخر على حاله، فقد لا يشغلني هذا كثيرًا. كان بإمكاني أن أتكيف مع ساكس هذا الأكثر هدوءًا وخضوعًا، لكن العلامات الخارجية كانت محبطة للغاية، ولم أستطع مغالبة الشعور بأنها كانت أعراضًا لكربٍ أكبر. رفَضَ المهام التي توكله بها المجلات، ولم يبذل أيَّ جهد لتجديد اتصالاته المهنية، وبدا أنه فقد كل الاهتمام بالجلوس خلف الآلة الكاتبة مرة أخرى. أخبرني بهذا القدر بعد عودته من المستشفى، لكنني لم أصدقه. الآن بعد أن بدأ يفي بكلمته صرتُ أشعر بالخوف. طوال معرفتي به، كانت حياة ساكس تدور حول عمله، ورؤيته فجأة من غير هذا العمل جعلته يبدو وكأنه رجل بلا حياة. لقد كان ضالًّا على غير هدى، يطفو في بحرٍ من الأيام التي لا يمكن تمييزها عن بعضها، وبقدر ما أستطيع أن أقول، كان كل شيء بالنسبة له يتلخص فيما إذا كان قد نجح في العودة إلى الأرض أم لا.

في وقت ما بين عيد الميلاد وبداية العام الجديد، حَلَقَ ساكس لحيته وقصَّ شعرَه إلى الطول الطبيعي. لقد كان تغييرًا جذريًّا، وجعله يبدو وكأنه شخص مختلف كليًّا. بدا كأنّه اضمحل بطريقة ما، وكبُر في الوقت نفسه، ومضى شهر بأكمله قبل أن أبدأ في التعود على ذلك، وأتوقف عن الجفول في كل مرة يدخل فيها إلى مكان ما. ليس الأمر أنني فضلت مرآه في صورةٍ دون أخرى، لكنني أسِفتُ على حقيقة التغيير البسيطة، على أي تغيير في حد ذاته. عندما سألتُه لماذا فعل ذلك كان ردُّه الأول هزةَ كتف غامضة. ثمَّ بعد توقف قصير،

أدرك أنني توقعت إجابة أتمّ من ذلك، تمتم بشيء حول عدم رغبته في إثارة جلبة بعد الآن. قال إنه يمارس التشذيب المحدود، وهو نهج عدم إثارة الجلبة بخصوص النظافة الشخصية. إلى جانب ذلك أراد أن يقوم بما يستطيع من أجل الرأسمالية. من خلال الحلاقة ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع سيساهم في إبقاءِ شركاتِ أمواس الحلاقة تعمل، ما يعني أنه يخدم مصلحة الاقتصاد الأميركي، وصحة وازدهار المجتمع.

من الواضح أنها أسباب غير مقنعة أبدًا، ولكننا بعد أن تحدّثنا عنها لمرة واحدة، لم يرِد الموضوع مرَّة أخرى. بدا جليًّا أن ساكس لم يرغب في الخوض في المسألة، ولم أضغط عليه طلبًا لمزيدٍ من التوضيحات. لكن هذا لا يعني أنها لم تكن مهمة بالنسبة له. الرجل حرٌّ في اختيار شكله، إلا إنَّني في حالة ساكس شعرت أنه كان عملًا عنيفًا وعدوانيًّا بشكل خاص، يكاد يكون بابًا من أبواب التشويه الذاتي. أُصيب الجانب الأيسر من وجهه وفروة رأسه بجرح شديد بسبب سقوطه، وقام الأطباء بخياطة عدة مناطق حول صدغه وفكه السفلي. مع اللحية والشعر الطويل، كانت ندوبُ هذه الجروح مخفية عن الأنظار. بمجرد زوال الشَّعر أصبحت الندوب مرئية، وبرزت الخدوشُ والجروح عاريةً ليراها الجميع. ما لم أكن قد أسأت فهمه جديًّا، أعتقد أن هذا هو سبب تغيير ساكس لمظهره. لقد أراد أن يُشهر جروحه، ليعلن للعالم أن هذه الندوب هي التي حددته الآن، ليكون قادرًا على النظر إلى نفسه في المرآة كل صباح وتذكُّر ما حدث له. كانت الندوب بمثابة تميمة ضد النسيان، ودلالة على أن أيًّا منها لن تُفقد على الإطلاق.

ذات يوم في منتصف شباط، خرجت لتناول الغداء مع ناشرتي في مانهاتن. كان المطعم في مكان ما في شارع ويست توينتيز، وبعد الفراغ من الوجبة بدأت في السير في الجادة الثامنة باتجاه الشارع الرابع والثلاثين، حيث كنت أخطط لركوب مترو أنفاق للعودة إلى بروكلين. على بُعد خمسة

أو ستة شوارع من وجهتي، صادف أن رأيت ساكس على الجانب الآخر من الشارع. لا أستطيع أن أقول إنني فخور بما فعلته بعد ذلك، لكن بدا أنه كان منطقيًّا حينها. شعرتُ بالفضول لمعرفة ما يفعله في تجواله على غير هدى، وفي حاجة ماسة إلى معرفة أي قدرٍ من المعلومات حول كيفية شَغْله لأيامه، ولذا بدلًا من مناداته تراجعتُ وأبقيت نفسي مختبئًا. كان عصرًا باردًا، بسماءٍ رماديةٍ ملبدةٍ وتحذيرٍ بتساقط ثلوج. خلال الساعتين التاليتين، تابعت ساكس في الشوارع، ولحقت صديقي كظلّه عبر طرق نيويورك الضيقة. بينما أكتب عن ذلك الآن، يبدو الأمر أسوأ بكثير مما كان عليه في الواقع، على الأقل فيما يتعلق بما تخيلت أنني كنت أفعله. لم تكن لدي نيةٌ للتجسس عليه، ولا رغبةٌ في النفاذ إلى أي أسرار. كنت أبحث عن شيءٍ واعد، بعض بصيص التفاؤل لتهدئة قلقي. قلت لنفسي: سوف يفاجئني. سيفعل شيئًا ما أو يذهب إلى مكان ما يثبت أنه بخير. لكن مرت ساعتان ولم يحدث شيء. كان ساكس يتجوّل في الشوارع وكأنه روحٌ ضائعة، يتجول بشكل عشوائي بين ميدان تايمز وحيّ جرينويتش فيليدج بنفس الوتيرة البطيئة المتأمّلة، لا يتعجّل بتاتًا، ولا يبدو أبدًا أنه يهتم بمكان وجوده. أعطى عملات معدنية لمتسولين. توقف لإشعال سيجارة جديدة مسافة كل عشرة أو اثني عشَر مبنى. استطلع محلًا لبيع الكتب لعدة دقائق، وفي نقطة معينة رفع أحد كتبي من الرف ودرسَه ببعض الانتباه. دخل متجرًا إباحيًّا ونظر إلى مجلات النساء العاريات. توقف أمام نافذة متجر إلكترونيات. في النهاية، اشترى صحيفة، ودخل مقهى في زاوية شارعي بليكر وماكدوجال، واستقرَّ على طاولة. هناك تركته، في اللحظة التي تقدمت بها النادلة لتسجيل طلبه. لقد وجدتُّ كل ذلك قاتمًا، ومحبطًا، ومأساويًّا للغاية، لدرجة أنني لم أقو على التحدث مع آيريس حول الأمر عندما عدت إلى البيت.

وأنا ملمٌّ بما أعرفه الآن، يمكنني أن أرى مدى ضآلة فهمي بكل معنى الكلمة. كنت أستخلصُ استنتاجات مما يصل إلى دليل جزئي، مؤسسًا لاستجابتي على مجموعة من الحقائق العشوائية الملحوظة التي تحكي جزءًا صغيرًا فقط من القصة. إن توفرت لي المزيد من المعلومات؛ فلربما كانت لديَّ صورة مختلفة عما كان يحدث، مما قد يجعلني أُبطئُ من قنوطي. من بين أمور أخرى، كنت أجهل تمامًا الدور الخاص الذي لعبته ماريا تيرنر من أجل بن. منذ تشرين الأول، كانا يتقابلان بشكل منتظم، يقضيان كل يوم خميس معًا من العاشرة صباحًا حتى الخامسة بعد الظهر. علمت بهذا فقط بعد عامين من وقوعه. كما أخبرني كل منهما (في محادثات على انفراد يفصل بينهما شهرين على الأقل)، لم يكن هناك أي علاقة جنسية. بالنظر إلى ما أعرفه عن عادات ماريا، وبالنظر إلى أن قصة ساكس متطابقة مع قصتها، لا أرى أي جدوى من الشك فيما أبلغاني به.

عندما أراجع الموقف اليوم، فمن المنطقي تواصل ساكس معها. كانت ماريا تجسيدًا لكارثته، الشخصية المحورية في الدراما التي عجلت بسقوطه، وبالتالي لن يكون لأي شخص القدر نفسه من الأهمية بالنسبة له. لقد ذكرتُ آنفًا تصميمه على التمسك بأحداث تلك الليلة. ما هي أفضل طريقة لتحقيق ذلك من البقاء على اتصال مع ماريا؟ من خلال تقريبها كصديقة، سيكون قادرًا على إبقاء رمز تحوُّله باستمرارٍ أمام عينيه. ستظل جروحه مفتوحة، وفي كل مرة يراها يمكنه إعادة تمثيل سلسلة العذاب والمشاعر التي اقتربت من قتله. سيكون قادرًا على إعادة التجربة مرارًا وتكرارًا، ومع الممارسة الكافية والعمل الجاد، ربما سيتعلم إتقانها. لا بد أن هذه هي الطريقة التي بدأ بها. لم يكن التحدي هو إغواء ماريا أو اصطحابها إلى الفراش، بل تمثّل في تعريض نفسه للإغواء ومعرفة ما إذا كان لديه القدرة على مقاومته. كان ساكس يبحث عن علاج، وعن طريقة لاستعادة احترامه لذاته، ولن تُجدي سوى

الإجراءات الأكثر قسوة. من أجل إعادة اعتباره، كان عليه أن يخاطر بكل شيء مرة أخرى.

على أي حال، كان هناك أكثر من ذلك. لم يكن ذلك مجرد تمرينٍ رمزيٍّ بالنسبة له، بل كان خطوة إلى الأمام نحو صداقة حقيقية. لقد تأثر ساكس بزيارات ماريا إلى المستشفى، وحتى في ذلك الحين، في الأسابيع الأولى من استشفائه، أظن أنه عرف مدى تأثير الحادث عليها. كان هذا أول رابطٍ بينهما. لقد عاشا شيئًا فظيعًا، ولم يكن أي منهما يميل إلى نبذه كمجرد لحظة سوء حظٍّ عابرة. الأهم من ذلك، أن ماريا كانت على علم بالدور الذي لعبته فيما حدث. علِمت أنها شجعت ساكس في ليلة الحفلة، وكانت صادقة مع نفسها بما يكفي للاعتراف بما فعلته، ولإدراك الخطأ الأخلاقي في التفتيش عن أعذار. بطريقتها الخاصة، كانت منزعجة من الحادث مثلما كان ساكس تمامًا، وعندما اتصل بها أخيرًا في تشرين الأول لشكرها على قدومها المتكرر إلى المستشفى، وجدتها فرصة للتعويض، ولجبر شيء من الضرر الذي تسببت فيه. أنا لا أخمن عندما أقول هذا. ماريا لم تحجب عني أي شيء عندما تحدثنا في العام الماضي، والقصة بأكملها تأتي مباشرة من فمها.

قالت: «في المرة الأولى التي قدِم فيها بن إلى بيتي، سألني الكثير من الأسئلة حول عملي. لعله كان يتصرف بلباقة. أنت تعرف كيف تسير الأمور: تشعر بالحرج، ولا تعرف ما الذي يمكنك الحديث فيه؛ لذا تبدأ في طرح الأسئلة. بعد برهة، لاحظتُ أنه صار مهتمًّا. قدّمتُ بعض المشاريع القديمة ليطّلع عليها، وقد صدمتني تعليقاته العبقرية، كانت أكثر وعيًا مما أسمع عادة. بدا أنَّ ما أعجبه بشكل خاص هو المزج بين الوثائقي والعبثي، وتجسيد الأحوال الباطنية. لقد أدرك أنَّ كافة أعمالي كانت قصصًا، وحتى لو كانت قصصًا حقيقية، فهي مُبتدعة أيضًا. أو أنها وإن كانت مبتدعة، فهي حقيقية أيضًا؛ لذا تحدثنا عن ذلك لبعض الوقت، ثم عن أشياء أخرى مختلفة، وبحلول الوقت

الذي غادر فيه كنت قد بدأت بالفعل في طبخ واحدةٍ من أفكاري الغريبة. كان الرجل ضائعًا وبائسًا للغاية، فكرتُ كم سيكون مناسبًا لو شرعنا العمل في مشروعٍ معًا. لم يكن لدي أي شيء محدد في ذهني في تلك المرحلة سوى أن العمل سيكون عنه. اتصل مرة أخرى بعد بضعة أيام، وعندما أخبرته بما كنت أفكر فيه، بدا أنه التقط الفكرة على الفور. فاجأني ذلك نوعًا ما. لم أضطرّ إلى مجادلته بشأنها أو إقناعه بها. فقط قال نعم، تبدو هذه فكرة واعدة، ومضينا قُدمًا وفعلناها. منذ ذلك الحين، قضينا كل يوم خميس معًا. خلال الأربعة أو الخمسة أشهر التالية، أمضينا كل يوم خميس نعمل على المشروع».

أجزم، بقدر ما أستطيع، أن الأمر لم يرتقِ إلى أي شيء. على عكس مشاريع ماريا الأخرى، لم يكن لهذا المشروع مبدأٌ تنظيميٌّ أو غرضٌ محددٌ بوضوح، وبدلًا من البدء بفكرة مستقرة كما كانت تفعل في الماضي (متابعة شخص غريب، على سبيل المثال، أو البحث عن أسماء في دفتر عناوين(كان «خميسٌ مع بن» من الناحية الأساسية غير محدد الشكل: سلسلة من الارتجالات، وألبوم صورٍ للأيام التي قضياها صحبة بعضهما البعض. اتفقا مسبقًا على أنهما لن يلتزما أي قواعد. كان الشرط الوحيد هو وصول ساكس إلى منزل ماريا في تمام الساعة العاشرة صباحًا، وابتداء من ذلك الوقت فصاعدًا كانا ينطلقان عفويًّا. في الغالب، التقطت ماريا صورًا له، تُعادل بكرتا فيلم أو ثلاثة، ثمَّ يقضيان بقية اليوم في الحديث. طلبتْ منه بضع مرات أن يرتدي أزياء معينة. في أوقات أخرى، كانت تسجل محادثاتهما ولم تلتقط أي صور على الإطلاق. عندما حلق ساكس لحيته وقصّر شَعره اتضح أنه كان يتصرف بناءً على نصيحة ماريا، وأُجريت العملية في عليّة منزلها. لقد سجّلت العملية بأسرها بكاميرتها: ما قبل وما بعد وكل المراحل بينهما. تبدأ الصور بساكس أمام المرآة، ممسكًا بمقص في يده اليمنى. مع كل لقطةٍ لاحقة، يختفي القليل من شعره. ثم نراه يضع الرغوة على الجذاذات في وجنتيه، وبعد ذلك يحلق لحيته. توقفت ماريا عن التصوير في تلك اللحظة (لوضع اللمسات الأخيرة

على قصة شعره)، ثمَّ هناك صورة أخيرة لساكس: بشعرٍ قصير ودون لحية، مبتسمًا للكاميرا مثل أحد عارضي تسريحات الشعر اللامعة الذين تراهم على جدران صالون الحلاقة. لقد وجدتُّها لمسةً لطيفة. لم يكن الأمر مسلّيًا في حد ذاته فحسب، بل أثبت أيضًا أن ساكس قادرٌ على الاستمتاع بالتسلية. بعد أن رأيت تلك الصورة أدركتُ أنه لا توجد حلول بسيطة. لقد بخستُ قدرَه، وصارت قصة تلك الأشهر أخيرًا أكثر تعقيدًا مما سمحت لنفسي بتصديقه. حينها جاءت صور ساكس في الخارج. في كانون الثاني وشباط، تبيّن أن ماريا تبعته في الشوارع بكاميرتها. أخبرها ساكس أنه يريد معرفة شعور أن يكون مرصودًا، وألزمته ماريا على بعث أحد أعمالها القديمة، إلا إنَّهم هذه المرة قاموا به بالمقلوب. أخذ ساكس دورها، وصارت هي المُخبر الخاص. كان ذاك هو المشهد الذي صادفته في مانهاتن عندما رأيت ساكس يسير على طول الجانب الآخر من الشارع. كانت ماريا هناك أيضًا، وما كنت أعتبره دليلًا قاطعًا على بؤس صديقي لم يكن في الواقع أكثر من تمثيلية مصطنعة، شيءٌ من التمثيل المسرحي، إعادة تمثيل سخيفة للعمل الكارتوني «جاسوس ضد جاسوس». الرب وحده يعلم كيف أخفقتُ في رؤية ماريا في ذلك اليوم. لا بد أنني كنت أركز بشدة على ساكس لدرجة أنني عميت عن كل شيء آخر. لكنها رأتني، وعندما أخبرتني أخيرًا عن ذلك لمّا تحدثنا في الخريف الماضي، شعرت بأني منسحقٌ من أثر الخجل. لحسن الحظ، لم تتمكن من التقاط أي صور لي وساكس معًا. لو حصل لكانت فضيحة، لكنني كنت أتبعه من مسافة بعيدة فلم تتمكن من القبض علينا في نفس اللقطة.

التقطت له بضعة آلاف من الصور، معظمها كان لا يزال على أوراق لاصقة عندما قابلتها في أيلول الماضي. حتى لو لم تتطور جلسات الخميس إلى عمل متماسك ومتصل، فقد كان لها قيمة علاجية لساكس؛ وهو كل ما أملت ماريا في تحقيقه معه في المقام الأول. عندما جاء ساكس لزيارتها في تشرين الأول، كان قد تراجع بعيدًا بألمه فلم يعُد قادرًا على رؤية ذاته.

أعني ذلك بالمعنى الفينومينولوجي، بنفس الطريقة التي يتحدث بها المرء عن الوعي الذاتي أو الطريقة التي يشكل بها المرء صورةً عن نفسه. لقد فقد ساكس القدرة على الخروج من أفكاره والاستفادة من محيطه، لقياس الأبعاد الدقيقة للمساحة المحيطة به. ما حققته ماريا خلال تلك الأشهر هو إغراؤه بالخروج من جلده. التوتر الجنسي جزءٌ من المسألة، ولكن كاميرتها كانت هناك أيضًا، الانقضاض المستمر لتقنية «عين الصقر» الخاصة بها. في كل مرة وقف فيها ساكس لالتقاط صورةٍ كان يُجبر على تقليد شخصيته، وأن يدخل إلى لعبة التظاهر بأنه من هو. بعد فترة، لا بد أنه كان لها تأثير عليه. من خلال تكرار العملية مرارًا لا بد أنه حقق تقدمًا بالوصول إلى نقطةٍ بدأ يرى بها نفسه من خلال عيون ماريا، وحين تضاعف الأمر برُمته تمكّن من لقاء نفسه مرَّة أخرى. يقولون إنَّ بإمكان الكاميرا سرقة روح المرء. في هذه الحالة، أعتقد أنها قامت بالعكس تمامًا. باستخدام هذه الكاميرا أزعم أن روح ساكس قد أعيدت إليه تدريجيًّا.

***

كان يتحسن، لكن هذا لا يعني أنه على ما يرام، أو أنه سيكون الشخص الذي كان عليه على الإطلاق. في أعماقه، كان يعلم أنه لا يمكنه العودة إلى الحياة التي عاشها قبل وقوع الحادث. لقد حاول شرح ذلك لي خلال محادثتنا في آب، لكنني لم أفهم. كنت أظن أنه يتحدث عن العمل، أن يكتب أو لا يكتب، أن يتخلى عن حياته المهنية أو العكس، لكن تبيّن أنه كان يتحدث عن كل شيء؛ ليس فقط عن نفسه، بل وعن حياته مع فاني أيضًا. في غضون شهر من عودته إلى المنزل من المستشفى، توقعتُ أنه كان يبحث بالفعل عن طريقة لإنهاء زواجه. لقد كان قرارًا منفردًا، ناتجًا عن حاجته إلى مسح الصفحة والبدء من جديد، ولم تكن فاني أكثر من ضحيةٍ بريئةٍ لعملية التطهير. مرت شهور، ومع ذلك، لم يستطع دفع نفسه لإبلاغها. ربما يفسر هذا العديدَ من

التناقضات المحيرة في سلوكه خلال تلك الفترة. لم يكن يريد أن يؤذي فاني، ومع ذلك كان يعلم أنه سيؤذيها، وهذه المعرفة زادت من إحباطه، وجعلته يكره نفسه أكثر. وكذلك فعلت الفترة الطويلة من المراوغة وعدم الفعل، والانتعاش والانحدار المتزامنين. إن كان من شيء فهو الدلالة على الطيبة الجوهرية في قلب ساكس؛ إذ أقنع نفسه بأن نجاته مرهونةٌ بارتكاب فعل قاسٍ، ولعدة أشهر اختار عدم ارتكابه، غارقًا في دياجير عذاب شخصي لتجنيب زوجته قسوةَ قراره. لقد كاد أن يدمر نفسه بدافع اللطف. كانت حقائبه معدّةً بالفعل، ومع ذلك فقد بقيَ لأنَّ مشاعرها تعني له بقدر ما تعنيه مشاعره.

عندما تكشّفت الحقيقة أخيرًا، لم يعدْ بالإمكان التعرف عليها. لم يتمكن ساكس أبدًا من الإفصاح وإخبار فاني أنه يريد تركها. خذلته جرأتُه بشدةٍ في ذلك؛ كان عاره الشخصي بليغًا لدرجة أنه لم يكن قادرًا على التعبير عن مثل هذه الفكرة. وبدلًا من ذلك- وبطريقة أكثر التفافًا ومواربة- بدأ في إشعار فاني بأنه لم يعدْ يستحقها، وأنه لم يعد جديرًا بأن يبقى زوجها. قال إنه كان يدمر حياتَها، وقبْلَ أن يجرَّها معه إلى بؤس ميئوس منه، عليها أن تضع حدًّا لخسائرها وتهرب. لا أشك بأن ساكس صدّق هذا. سواء عن قصد أم بغير قصد، فقد اختلق موقفًا يمكن فيه نطق هذه الكلمات بحسن نية. بعد شهور من الصراع والتردد، باتت لديه طريقةٌ لمراعاة مشاعر فاني. لن يضطر إلى إيذائها بالإعلان عن نيته في الانفصال. بدلًا من ذلك، من خلال قلب شروط المعضلة، كان يُقنعها بهجره. ستبادر هي إلى إنقاذ نفسها؛ كان سيساعدها على الدفاع عن نفسها وإنقاذ حياتها.

حتى لو كانت دوافع ساكس غائبةً عنه، فقد كان أخيرًا يناور نفسه في وضعٍ يُمكّنه من الحصول على ما يريد. لا أقصد أن أبدو ساخرًا حيال ذلك، لكن ما يدهشني أنه أخضع فاني لجملةٍ من تقنيات خداع الذات المستفيضة والانتكاسات المغشوشة نفسها التي استخدمها مع ماريا تيرنر

على سلم النجاة في الصيف الماضي. الضميرُ مفرطُ الرقة، والاستعدادُ لتقبل الإدانة في مواجهة رغباته الخاصة، قادا إنسانًا طيبًا إلى اتخاذ سبلٍ ماكرةٍ تثير الفضول، بغرض الإضرار بصالحه. هذا هو لبُّ الكارثة، كما أراه. لقد تقبّلَ مواطن الضعف لدى الآخرين، ولكن عندما تعلق الأمر به، طالب بالكمال، بصرامةٍ تكاد تكون خارقةً في أصغر الأعمال. وكانت المحصلة هي الخيبة، والإدراك الصاعق لإنسانيته المعيبة، ما دفعه إلى فرض مطالب أكثرَ صرامةً على تصرفاته، ما أدى بدوره إلى المزيد من خيبات الأمل الخانقة. لو أنه تعلّم كيف يُحب نفسه أكثر قليلًا؛ فلن تعود لديه القدرة على التسبب في كثير من التعاسة لَمن حوله. لكن ساكس كان مسيّرًا بالتكفير عن الذنب، وتحمُّل ذنبه على أنه ذنب العالم وحملِ آثاره في جسده. أنا لا ألومه على ما فعله، أنا لا ألومه على إخباره فاني بتركه أو رغبتَهُ في تغيير حياته؛ أنا فقط أشعر بالأسف تجاهه، أَسِفٌ بشكلٍ لا يوصف للأشياء الفظيعة التي جلبها على نفسه.

استغرق الأمرُ بعض الوقت قبل أن يظهر لإستراتيجيته أي تأثير. ولكن ما الذي يفترضُ أن تفكر فيه المرأة عندما يأمرها زوجها أن تقع في حب شخصٍ آخر، وأن تتخلص منه، وأن تهرب منه ولا تعود أبدًا؟ في حالة فاني، رفضت هذا الحديث ووصفته بأنه هراء، كدليل إضافي على عدم استقرار بن المتزايد. لم تكن لديها نية لفعل أي من هذه الأشياء، وما لم يخبرها مباشرة أنه حسم أمره، وأنه لم يعد يريد الاستمرار زوجًا لها، فقد عقدت العزم على لزوم مكانها. استمرت المواجهة لمدة أربعة أو خمسة أشهر. فترة زمنية بدت لا تطاق بالنسبة لي، لكن فاني رفضتِ التراجع. شعرتْ أنه كان يختبرها، محاولًا إخراجها من حياته ليرى مدى إصرارها على البقاء، وأنها إذا تركته الآن، فإن أسوأ مخاوفه عن نفسه ستتحقق. كان هذا هو المنطقَ الدائري في كفاحها لإنقاذ زواجهما. في كل مرة تحدث إليها بن، فسّرتها بمعنًى مُعاكسٍ لما قاله؛ ارحلي تعني لا تتركيني، أحبي شخصًا آخر تعني أحبيني، التخلي يعني لا تستسلمي. في ضوء ما حدث لاحقًا، لستُ متأكدًا من أنها كانت مخطئة. اعتقدَ

ساكس أنه يعرف ما يريد، ولكن بمجرد حصوله عليه، لم يعد له أي قيمة بالنسبة له. لكن عندئذ كان القطار قد فات. ما فقده ساكس، فقدَه إلى الأبد.

وفقًا لما أبلغتني فاني به، لم يكن هناك أي انقطاع حاسم بينهما قط. أنهكها ساكس بدلًا من ذلك، وأرهقها بإصراره، مما أدَّى إلى إضعافها ببطء حتى لم تعد لديها القوة للمقاومة. قالت إنه كانت هناك بعض المشاهد الهستيرية في البداية، بضع نوبات من البكاء والصراخ، لكن كل ذلك توقف في النهاية. شيئًا فشيئًا، نفد خزينها من الهجمات المضادة، وعندما نطق ساكس الكلماتِ السحرية أخيرًا، مُبلغًا إياها ذات يوم في أوائل آذار أن انفصالًا مؤقتًا قد يكون فكرة جيدة؛ أومأت برأسها وسايرته. في ذلك الوقت، لم أكن أعلم عن أي شيء من هذا. لم يطلعني أيٌّ منهما على مشاكلهما، وبما أن حياتي كانت مائجة بشكل خاص في ذلك الوقت، لم أتمكن من لقائهما بقدر ما أتمنى. كانت آيريس حاملًا، وكنا نفتش عن مسكنٍ جديد، وكنت أسافر للتدريس في برينستون مرتين في الأسبوع، وأعمل بجدٍّ على كتابي التالي. ومع ذلك، يبدو أنني لعبت دورًا عن غير قصد في المفاوضات الزوجية. قدّمتُ لساكس عذرًا؛ طريقة للتخلي عنها دون أن يبدو أنه صَفَعَ الباب خلفه. يعود كل شيء إلى ذلك اليوم من شباط عندما تبعتُه في الشوارع. كنت قد أمضيت لتوِّي ساعتين ونصف الساعة مع ناشرتي، آن هوارد، وخلال محادثتنا طرأ اسمُ ساكس أكثر من مرة. آن علمت إلى أي مدى كنا مقربين. حضرتْ هي أيضًا حفلَ الرابع من تموز، ولأنها كانت على علم بالحادثة والأوقات الصعبة التي مر بها منذ ذلك الحين؛ كان من الطبيعي أن تسألني عن أحواله. أخبرتها أنني مازلت قلقًا، لا بسبب مزاجه بعد الآن، ولكن بسبب حقيقة أنه لم ينجزْ ملزمة ورق. قلت: « لقد مرت سبعة أشهر الآن، وهذه عطلةٌ طويلةٌ جدًّا، خاصة بالنسبة لشخص مثل بن». لذلك تحدثنا عن العمل لبضع دقائق، وتساءلنا ما الذي سيحتاجه للعودة مرة أخرى، ونحن نشرع في التحلية، توصلت آن إلى فكرةٍ رائعةٍ أدهشتني. قالت: «عليه أن يجمع أعماله القديمة وينشرها في كتاب.

لن يكون الأمر صعبًا للغاية. كل ما عليه فعله هو اختيار الأفضل منها، وربما يروتش جملتين هنا وهناك. ولكن بمجرد أن يجالس عمله القديم، من يدري ما قد يحدث؟ قد يجعله يرغب بالبدء في الكتابة مرة أخرى».

- هل تقولين إنَّك مهتمَّة بنشر هذا الكتاب؟

«لا أعرف، هل هذا ما أقوله؟» أجابت ثمَّ توقفت للحظة وضحكت: «أفترضُ أنني قلت ذلك للتَّو، أليس كذلك؟» ثمَّ توقفت مرة أخرى، وكأنها تمسك نفسها قبل أن تمضي بعيدًا: «ولكن مع ذلك، لم لا؟ ليس الأمر كما لو أنني لا أعرف أعمال بن. لقد كنت أقرؤها منذ المرحلة الثانوية، بحقِّ الرب. ربما حان الوقت لأن يلوي أحدُهم ذراعه ويرغمه على ذلك».

بعد نصف ساعة، عندما لمحت ساكس في الجادة الثامنة، كنت لا أزال أفكر في هذه المحادثة مع آن. فكرة الكتاب كانت قد استقرت مرتاحةً في ذهني بحلول ذلك الوقت، ولمرة واحدة كنت أشعر أنني متشجعٌ، وأكثر تفاؤلًا مما كنت عليه منذ وقت طويل. ربما هذا ما يفسر سبب إحباطي بعد ذلك. لقد وجدتُّ رجلًا يعيش في حالة بدت وكأنها نوع من القنوط التام، ولم أستطع تقبُّل ما رأيته: صديقي، الألمعي فيما مضى، يتجولُ لساعات في شبه غيبوبة، وبالكاد يمكن تمييزُه عن الرجال المحطمين الذين يستجدون منه المال في الشارع.

عدتُّ إلى المنزل في ذلك المساء وأنا أشعر بغصّةٍ في قلبي. قلت لنفسي: إن الوضع خرج عن السيطرة، وما لم أتصرف بسرعة لن يعود هناك دعاءٌ صالحٌ لخلاص روحه.

دعوتُه إلى تناول الغداء في الأسبوع التالي. في اللحظة التي جلس فيها على كرسيه، اندفعتُ في الحديث عن الكتاب. جرى تداول هذه الفكرة عدة مرات في الماضي، لكن ساكس كان مترددًا في إلزام نفسه على الدوام. لقد شعر أن مقالاته في المجلات هي أشياء راهنة، كُتبت لأسباب معينة في

أوقات محددة، والكتاب سيغدو مكانًا مستدامًا لها. أخبرني ذات مرة أنه يجب السماحُ لها بميتة طبيعية. دع الناس يقرؤونه مرة واحدة ثمَّ ينسونها، لا حاجة لتشييد نُصب. كنت على درايةٍ بهذا الدفاع؛ لذا لم أطرح الفكرة من الناحية الأدبية. تحدّثت عنه حصريًّا على أنه عرضٌ ماليّ، صفقةٌ نقديةٌ باردة. قلت إنه كان يعيش عالةً على فاني خلال الأشهر السبعة الماضية، وربما حان الوقت لينهض بحصته من العمل. إذا لم يكن راغبًا في الخروج والبحث عن وظيفة، فإن أقل ما يمكنه فعله هو نشر هذا الكتاب. قلت له انسَ نفسك لمرة واحدة. افعلها لأجلها.

لا أتذكر أنني تحدثت إليه بشكلٍ قاطع قط. كنت صارمًا، مشحونًا بالحس السليم المتقد، لدرجة أن ساكس أخذ يبتسم قبل أن أصل إلى منتصف خطبتي الرنانة. أفترضُ أنه كان هناك ما هو هزلي في سلوكي بعد ظهر ذلك اليوم، لكن ذلك بسبب عدم توقعي الفوز بهذه السهولة قط. كما تبيّن لاحقًا، ساكس بالكاد كان بحاجة إلى الإقناع. عقد العزم على إعداد الكتاب ما إن سمع عن حديثي مع آن، وكل ما أخبرتُه به بعد ذلك لم يكن ضروريًّا. حاول إقناعي بالتوقف، لكن لأي تخيلت أن هذا يعني أنه لا يريد الحديث في العرض؛ فقد واصلت الجدال معه، وكان الأمر أشبه بإقناع امرئٍ بتناول وجبة كانت بالفعل داخل معدته. أنا واثقٌ أنه وجدني مضحكًا، لكن لا شيء من ذلك يُحدث أي فرقٍ الآن. المهم هو أن ساكس وافق على تنفيذ الكتاب، وفي ذلك الوقت شعرت أنه انتصار كبير، وخطوةٌ عملاقةٌ في الاتجاه الصحيح. بالطبع لم أكن أعرف شيئًا بخصوص فاني، وبالتالي لم يكن لدي أي فكرة أن المشروع كان مجرد ذريعة، خطوة إستراتيجية لمساعدته على إنهاء زواجه. هذا لا يعني أن ساكس لم يكن يخطط لنشر الكتاب، لكن دوافعه كانت مختلفة تمامًا عن تلك التي تخيلتها. لقد رأيت الكتاب كطريقة للعودة إلى العالم، بينما رآه بمثابة مَهرب، كبادرة أخيرة على حسن النية قبل أن ينزلق في الظلام ويختفي.

هكذا وجد الشجاعة لمُفاتحة فاني حول الانفصال المؤقت. كان سيذهب إلى ڤيرمونت للعمل على الكتاب، وتبقى هي في المدينة، وفي غضون ذلك سيكون لديهما فرصةٌ للتفكير فيما يريدان القيام به. أتاح له الكتاب أن يغادر بمباركتها، وأن يتجاهل كلاهما الغرض الحقيقي من رحيله. خلال الأسبوعين التاليين، رتّبت فاني سفرَ بن إلى ڤيرمونت كما لو كان واحدة من واجباتها الزوجية، ففكّكتْ زواجهما بهمّةٍ كما لو أنها تؤمن باستمرار زواجهما إلى الأبد. الاعتناء به بات عادةً تلقائيةً حينئذ، متأصلةً بعمق في شخصيتها، لدرجة أنه ربما لم يخطر ببالها أبدًا التوقف والتفكير فيما كانت تفعله. كانت هذه مفارقةُ النهاية. لقد عشتُ وضعًا مشابهًا مع ديليا: تلك الحاشية الغريبة عندما لا يكون الزوجان مجتمعين ولا غير مجتمعين، عندما يكون آخر شيءٍ يجمعكما معًا هو حقيقة أنكما منفصلان. فاني وبن لم يتصرفا بشكل مختلف. لقد ساعدتُه على الخروج من حياتها، وقبِلَ هذه المساعدة باعتبارها أكثر الأشياء طبيعية في العالم. نَزَلَتْ إلى القبو وسحبتْ حزمًا من المقالات القديمة من أجله؛ صوّرتْ نُسخًا من صفحات أصلية مصفرّة دارسة؛ زارت المكتبة وفتشت بين بكرات الميكروفيلم عن مقالاتٍ ضائعة؛ ثمَّ وضعت كتلة القصاصات والصفحات المنتزعة والأوراق المشرشرة ضمن ترتيب زمني. في اليوم الأخير، ذهبت إلى حد شراء صناديق الورق المقوى لتخزين أوراقه فيها، وفي صباح اليوم التالي، لمّا حان موعد رحيل ساكس ساعدته في حمل هذه الصناديق وإنزالها إلى الطابق السفلي، وحشرها في صندوق السيارة. أيًّا يكن الانفصال هادئ، أيًّا تكن تنحية الإشارات غير المباشرة.. في هذه المرحلة؛ لا أظن أن أيًّا منهما كان يقوى عليها.

كان ذلك في أواخر شهر آذار. مسلِّمًا ببراءةٍ بما أبلغني به ساكس، افترضتُ أنه ذاهب إلى ڤيرمونت من أجل العمل. كان قد سافر وحدَه في مرات سابقة؛ فلم يبدُ بقاءَ فاني وحيدةً في نيويورك استثنائيًّا. في نهاية المطاف، كان لديها وظيفتها، ولمّا لم يذكر أحدٌ كم سيغيب ساكس؛ ظننتُ أنها ستكون رحلة

قصيرة نسبيًّا. ربما شهر، أو ستة أسابيع في أقصى حد. تجميع الكتاب لن يكون مهمةً صعبة، ولم أتخيل أن يأخذ منه أطولَ من ذلك. حتى إن فعلَ فلا شيء يمنع فاني من زيارته في تلك الأثناء. هكذا لم يداخلني ريبٌ في أيٍّ من ترتيباتهما. كلها بدت مفهومة بالنسبة لي، وعندما اتصل بي ساكس لوداعي في الليلة الأخيرة، أبلغتُه بمقدار سعادتي لسفره. قلت له حظًّا سعيدًا، سأراك قريبًا. وهذا كل شيء. أيًّا يكن ما عقد عزمه عليه حينها، فإنه لم ينبس ببنت شفة تجعلني أشك أنه لن يعود.

بعدَ سفر ساكس إلى ڤيرمونت، انتقلت أفكاري إلى مكان آخر. كنت مشغولًا بالكتابة، وحمْل آيريس، ومتاعب ديفيد في المدرسة، ووفاة أقارب من طرفي العائلة، فمضى الربيع سريعًا. لعلني شعرتُ بالتخفف جرّاء سفره، لا أدري، إلّا إنَّه لم يكن هناك شك أن حياة الريف حسّنت من مَعنوياته. تحدثنا عبرَ الهاتف مرةً في الأسبوع تقريبًا، واستخلصتُ من هذه المحادثات أن أموره تسير على ما يرام. أخبرني أنه بدأ العمل على شيء جديد، وعَدَدْتُ ذلك حدثًا بالغ الأهمية، وتحولًا هائلًا عن حالته السابقة، لدرجة أنني سمحت لنفسي فجأة بالتوقف عن القلق بشأنه. حتى عندما استمر في تأجيل عودته إلى نيويورك، وإطالة أمد غيابه حتى نيسان، ثمَّ أيار، ثمَّ حزيران؛ لم أشعر بأي قلق. قلت لنفسي، ساكس يكتب مرة أخرى، ساكس بصحة جيدة مرة أخرى، وبقدر ما كنت مهتمًّا، كان هذا يعني أن العالم بخير.

رأينا فاني، أنا وآيريس، في عدة مناسبات في ذلك الربيع. أتذكر عشاءً واحدًا على الأقل، ووجبة ضُحى يوم أحد، ونزهةً إلى السينما. لأكون صريحًا تمامًا، لم ألاحظ أي علامات توتر أو قلقٍ عليها. صحيح أنها تحدثت عن ساكس أقل من المعتاد (وهو ما كان ينبغي أن ينبّهني إلى شيء ما)، ولكنها كلما تحدثت عنه بدت سعيدةً، بل متحمسةً لما كان يحدث في ڤيرمونت. قالت لنا إنه لم يكن يكتب مجددًا فحسب، بل كان يكتب رواية. كان هذا أفضلَ

بكثير من أي شيء يمكن أن تتخيَّله، ولم يكن هناك فرق في أن كاتب المقالات قد نُحّي جانبًا. قالت إنه كان يشقُّ طريقه في عاصفة، ونادرًا ما يتوقف للنوم وتناول الطعام، وسواء كانت هذه الأخبار مبالغًا فيها أم لا) سواء من قبل ساكس أو من قبلها(، فقد وضعَا حدًّا لأي أسئلة أخرى. لم نسألها أنا وآيريس أبدًا عن سبب عدم ذهابها لزيارة بن. لم نسأل لأنَّ الإجابة كانت واضحةً بالفعل؛ إنه يجتهد في أداء عمله، وبعد انتظارها الطويل لحدوث هذا، لم تكن تفكّر بمقاطعته.

كانت تحجب عنا الكثير، ولكن الأمر الأكثر أهميةً هو أن ساكس اقتُطع من الصورة أيضًا. علمت بذلك لاحقًا، ولكن طوال الوقت الذي أمضاه في ڤيرمونت، يبدو أنه نادرًا ما عرف شيئًا مما تفكر به فاني مثلي أنا في هذه الحالة. لم تكن تتوقع أن تسير الأمورُ على هذا النحو. نظريًّا، كان ما يزال هناك بعضُ الأمل بالنسبة لهما، ولكن ما إن عبأ بن السيارة بمتعلقاته وانطلقَ إلى الريف، أدركتْ أن علاقتهما انتهت. لم يستغرق الأمرُ أكثرَ من أسبوع أو أسبوعين ليحدثَ ذلك. كانت لا تزال تهتم به وتتمنى له التوفيق، ولكن لم تكن لديها رغبةٌ في رؤيته، ولا في التحدث معه، ولا في بذل المزيد من الجهد. تحدثا عن إبقاء الباب مفتوحًا، لكن يبدو الآن كما لو أنَّ الباب قد اختفى. لم يكن الأمر يتعلق بإغلاقه؛ ببساطة لم يعُد موجودًا. وجدتْ فاني نفسَها تنظر إلى جدار فارغ، وبعد ذلك ابتعدت. لم يعودَا متزوجين، وما فعلته بحياتها منذ ذلك الحين كان شأنها الخاص.

في حزيران، التقت برجل يدْعى تشارلز سبيكتور. لا أشعر أنني أمتلك الحقَّ في الحديث عن هذا الأمر، ولكن بقدر ما أثّر في ساكس، فمن المستحيل تجنُّب ذكره. الشيء المهمُّ هنا ليس أن فاني انتهى بها الأمرُ بالزواج من تشارلز (جرى حفل الزفاف قبل أربعة أشهر) ولكن أنها وهي تقع في حبه في ذلك الصيف، لم تتقدمْ لتخبر بن بما كان يحدث. مجددًا، لا يتعلق الأمرُ بإلقاء اللوم.

كانت هناك أسبابٌ لصمتها، وفي ظل هذه الظروف أعتقد أنها تصرفت وفقًا للأصول، دون تلميح بالأنانية أو الخداع. العلاقة مع تشارلز باغتتها على حين غرَّة، وفي تلك المَراحل المُبكرة كانت لا تزال في حيرةٍ من أمرها لإدراك حقيقة مشاعرها؛ لذا بدلًا من التسرُّع في إخبار بن بشيء قد لا يدوم، قررتِ التريثَ لبعض الوقت، لتجنيبه المزيد من المآسي إلى أن تتأكد مما تودُّ القيام به. استمرت فترة الانتظار هذه لفترة طويلة دون أي ذنب من جانبها. عرف بن عنْ تشارلز بالصدفة البحتة- بعد عودته في ليلةٍ إلى منزله في بروكلين ليراه في السرير مع فاني- ولا يمكن لتوقيت هذا الاكتشاف أن يكون أسوأ. بالنظر إلى أن ساكس هو الذي دفع من أجل الانفصال في المقام الأول، فعلى الأرجح لا ينبغي له أن يؤثر. لكنه فعل. كانت هناك عوامل مشتبكةٌ أخرى، لكن هذا العامل كان يعادل أهميتها كلها. لقد أبقى الموسيقى تعمل، إذا جاز التعبير، وما كان له قابلية أن ينتهي عند تلك النقطة لم ينته. استمر فالس الكوارث في العزف، وبعد ذلك استحال إيقافه.

لكن ذلك حدث لاحقًا، ولا أريد أن أسبق نفسي. ظاهريًّا، كانتِ الأمور تسير على ما يرام كما حدثَ في الأشهر العديدة الماضية. عمل ساكس على روايته في ڤيرمونت، وذهبت فاني إلى وظيفتها في المتحف، وانتظرتُ وآيريس ولادة طفلتنا. بعد مولد سونيا (في السابع والعشرين من حزيران)، انقطع اتصالي مع الجميع خلال الأسابيع الستة أو الثمانية التالية. كنتُ وآيريس في «ببي لاند»؛ وهي دولةٌ يحظر فيها النوم، والنهار لا يمكن تمييزُه عن الليل، مملكةٌ محاطةٌ بأسوارٍ تحكمها أهواءُ حاكمٍ مطلقٍ صغيرٍ للغاية. طلبنا من فاني وبن أن يكونا عرّابيْ سونيا، فقبِل كلاهما بتصريحاتٍ مسهبةٍ من الفخر والامتنان. تدفقت الهدايا بعد ذلك، سلّمتْ فاني هداياها شخصيًّا (ملابس، بطانيات، كتب، دببة، بطّات مطاطية) وأرسلها بن بالبريد. تأثرتُ بشكل خاص بردِّ فعْل فاني، حيث كانت تمرّ بعد العمل فقط لتحمل سونيا لمدة خمسة عشر أو عشرين دقيقة، وتهدهدها بكل أنواع البقبقات الحنونة.

بدتْ تتوهجُ والطفلة بين ذراعيها، وكانت تُحزنني دائمًا فكرة كيف لم يكن أيٌّ من هذا ممكنًا لها. كانت تدعو سونيا «جميلتي الصغيرة»، و«ملاكي»، و«زهرة عاطفتي السوداء»، و«قلبي» بطريقته الخاصة. لم يكن ساكس أقل حماسًا مما كانت عليه، واعتبرتُ الطرود الصغيرة التي ظلت تظهر في البريد إشارةً إلى تقدم حقيقي، ودليلًا حاسمًا على أنه كان بصحة جيدة مرة أخرى. في أوائل آب، بدأ يحثنا على القدوم إلى ڤيرمونت لرؤيته. قال إنه كان مستعدًّا ليريني الجزء الأول من كتابه، وأرادنا أن نقدِّمه إلى ابنته بالمعمودية. قال: «لقد أبعدتماها عني لفترة كافية. كيف تتوقعان منّي أن أعتني بها إذا كنت لا أعرف شكلها!؟».

لذا استأجرتُ وآيريس سيارة ومقعدًا للأطفال وتوجهنا شمالًا لقضاء بضعة أيام معه. أتذكر أنني سألتُ فاني عن رغبتها الانضمام إلينا، ولكن بدا أن التوقيت كان سيئًا. كانت قد بدأت لتوِّها كتابة مقالتها في الكتالوج الخاص بمعرض بليكلوك الذي كانت تنسّقه في المتحف في ذلك الشتاء (أهمّ عروضها حتى الآن(، وكانت قلقة بشأن الوفاء بالموعد النهائي. وضّحتْ أنها تخطط لزيارة بن بمجرَّد الانتهاء من ذلك، ولأن هذا بدا عذرًا مشروعًا لم أضغط عليها للذهاب. مرةً أخرى، واجهت دليلاً هامًا، ومُجددًا تجاهلتُه. فاني وبن لم يريا بعضهما البعض منذ خمسة أشهر، ومع ذلك لم يتبادر إلى ذهني أنه كان بينهما أي نوع من المشاكل. لو أنني كلّفت نفسي بفتح عينيّ لبضع دقائق فلربما لاحظت شيئًا ما، لكنني كنت منغمسًا في سعادتي الخاصة، ومنغمسًا في عالمي الصغير لدرجة أنني لم أُعرْ أيَّ اهتمام.

مع ذلك، كانت الرحلة ناجحة. بعد قضاء أربعة أيام وثلاث ليالٍ في صحبته، استنتجتُ أن ساكس كان على أرض صلبة مرة أخرى، وذهبتُ بعيدًا في الشعور بأنني قريب منه كما كنت في الماضي. يغريني القول إن الأمر يشبه الأيام الخوالي، لكن هذا لن يكون دقيقًا تمامًا. لقد حدث له الكثير منذ سقوطه،

وكان هناك الكثير من التغييرات في كل منّا حتى تكون صداقتنا كما كانت بالضبط. لكن هذا لا يعني أن هذه الأوقات الجديدة كانت أقل جودة من أيامنا السالفة. من نواحٍ كثيرةٍ، كانت أفضل؛ من حيث أنها مثّلت شيئًا شعرتُ أنني فقدته، شيئًا كنتُ قد يئستُ من العثور عليه مرة أخرى، كانت أفضل بكثير.

لم يكن ساكس شخصًا منظمًا أبدًا، وقد أذهلني رؤية مدى استعداده لزيارتنا. كانت هناك أزهارٌ في الغرفة حيث نمتُ وآيريس، وكانت مناشف الضيوف مطويةً بإتقان على المكتب، والسرير رُتّب بدقةِ صاحبِ نزلٍ مخضرم. في الطابق السفلي، كان المطبخ مليئًا بالطعام، وكان هناك مخزون وافر من النبيذ والجعة، وكما اكتشفنا كل ليلة، أُعدت قوائم العشاء سلفًا. أحسستُ أن هذه الإشارات الصغيرة مهمة، وقد ساعدتْ في تحديد وتيرة إقامتنا. كانت الحياة اليومية أسهل بالنسبة له مما كانت عليه في نيويورك، وشيئًا فشيئًا تمكّنَ من استعادة السيطرة على نفسه. كما قال لي في إحدى محادثاتنا في وقت متأخر من الليل، كان الأمر أشبه إلى حد ما بالعودة إلى السجن مرةً أخرى. لم تكن هناك أيّ التزامات دخيلة تعطّله. تراجعت الحياة إلى ضرورياتها المجردة، ولم يعُد عليه أن يتساءل كيف ضاع وقته. كان كل يوم تكرارًا لليوم السابق بصورةٍ أو بأخرى. اليوم يشبه الأمس، والغد يشبه اليوم، وما سيحدث الأسبوع المقبل يصيرُ صورةً غائمةً مما حدث هذا الأسبوع. كان في ذلك راحةً له. تبدّد عنصر المفاجأة، وبات يشعر أنه ثاقب، وأقدر على التركيز في عمله.

تابع: إنه أمر غريب، في المرتين اللتين جلست فيهما وكتبت رواية، كنت منفصلًا عن بقية العالم. أولًا في السجن عندما كنت صبيًّا، والآن هنا في ڤيرمونت، أعيش كناسكٍ في غابة. أتساءل ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟

قلت: هذا يعني أنه لا يمكنك العيش بدون الآخرين. عندما يكونون قربك بشحمهم ولحمهم يكون العالم الحقيقي كافيًا. وعندما تكون بمفردك عليك أن تخترع شخصيات خيالية. أنت بحاجةٍ إليها من أجل الرفقة.

طوال الزيارة، انشغلنا نحن الثلاثة بعدم القيام بأي شيء. أكلنا وشربنا، وسبحنا في البركة، وتحدثنا. أقام ساكس ملعبًا لكرة السلة صالحًا لكافة الأحوال الجوية خلف المنزل، ولمدة ساعة أو نحو ذلك كل صباح كنا نطلق التسديدات ونتبارى واحدًا لواحد)كان يجلدني في كل مرة) أثناءَ قيلولة آيريس في فترة بعد الظهر، كنا نتناوب على حمل سونيا حول الفناء، ونهزُّها للنوم بينما نتحدث. في الليلة الأولى، سهرتُ لوقتٍ متأخرٍ وقرأتُ نسخةً مطبوعةً من كتابه قيد الإعداد. في الليلتين الأخريين، سهرنا معًا لوقت متأخر، ناقشنا ما كتبه حتى الآن وما سيأتي بعد. سطعت الشمس في ثلاثة من الأيام الأربعة؛ كانت درجات الحرارة دافئة في ذلك الوقت من العام. بشكل عام، كانت الأجواء مثاليةً تقريبًا.

كتب ساكس ثلثَ روايته فقط في تلك المرحلة، والجزء الذي قرأتُه مازال بعيدًا عن الانتهاء. فهِمَ ساكس ذلك، وعندما أعطاني المخطوطة في أول ليلة هناك لم يكن يبحث عن نقد مفصل أو اقتراحات حول كيفية تحسين هذا المقطع أو ذاك؛ لقد أراد فقط معرفة ما إذا كنت أعتقد أنه يجب أن يستمر.

قال: لقد وصلتُ إلى مرحلةٍ لم أعد أعرف فيها ما أفعله. لا أستطيع معرفة ما إذا كان العمل جيدًا أم سيئًا. لا يمكنني تبيُّن ما إذا كان هذا أفضل شيء فعلته على الإطلاق أو أنه كومة قمامة.

لم تكن قمامة. كان ذلك واضحًا لي من الصفحة الأولى، ولكن بينما كنت أشق طريقي خلال بقية المسودة، أدركتُ أيضًا أن ساكس كان يعمل على شيء رائع. كان هذا هو الكتاب الذي تخيلتُ دائمًا أنه يستطيع كتابته، وإذا كان الأمر قد تطلب كارثة للبدء فيه، فربما لم تكن كارثة على الإطلاق. أو هكذا أقنعتُ نفسي في ذلك الوقت. مهما كانت المشاكل التي وجدتها في المخطوطة، ومهما كان حجم التشذيبات والتغييرات التي يجب إجراؤها، فإن الشيء الأساسي هو أن ساكس قد بدأ، ولن أدعه يتوقف.

أخبرتُه أثناء تناول الإفطار في صباح اليوم التالي: فقط واصل الكتابة ولا تنظر إلى الوراء. إذا تمكنتَ من المضي قُدمًا حتى النهاية، فستكون روايةً رائعةً. تذكّر كلماتي: روايةٌ عظيمةٌ لا تُنسى.

من المستحيل عليّ معرفة ما إذا كان بإمكانه أن ينجح في ذلك. في ذلك الوقت، أيقنتُ أنه سيفعل، وعندما ودّعناه أنا وآيريس في اليوم الأخير، لم يخطر ببالي أبدًا الشك في ذلك. الصفحات التي قرأتُها كانت سببًا، لكنني وساكس تحدثنا أيضًا، واستنادًا إلى ما ذكره عن الرواية خلال الليلتين التاليتين، كنت مقتنعًا بأن الموقف في متناول يده، وأنه فهِمَ ما ينتظره. إن كان هذا صحيحًا فلا يمكنني تخيُّل أي أمرٍ أكثر إثارة للاشمئزاز أو الرعب. من بين كل المآسي التي جلبها صديقي المسكين على نفسه، غدا تركُ هذه الرواية غيرَ مكتملة أصعبَ ما يمكن تحمله. لا أقصد إن الكتب أهمُّ من الحياة، لكن الحقيقة هي أن كل الناس يموتون، كلهم يختفون في النهاية، ولو تمكن ساكس من إنهاء كتابه فهناك احتمال أن يتجاوز حياته. هذا ما اخترتُ تصديقه، على أي حال. أما الآن، فالكتابة ليست أكثر من وعدٍ بكتاب؛ كتاب محتمل مدفون في صندوق يجمع صفحات المخطوطة الفوضوية وقلةً متناثرةً من الحواشي. هذا كل ما تبقى منه، جنبًا إلى جنب مع محادثتينا في وقتٍ متأخرٍ من الليل في الهواء الطلق، جلوسًا تحت سماء غير مقمرة معبأةٍ بالنجوم. ظننتُ أن حياته بدأت من جديد، وأنه قد وصل إلى حافة مستقبل استثنائي، لكن ما تبين أنه هو نفسه الذي يدنو من النهاية. بعد أقل من شهر من رُؤيته في فيرمونت توقفَ ساكس عن العمل في كتابه. خرجَ في نزهةٍ بعد ظهرِ أحد الأيام في منتصف أيلول، وفجأة ابتلعتْه الأرض. هذا هو الملخص، ومنذ ذلك اليوم لم يكتب كلمة أخرى.

من أجل تخليد ما لن يوجد أبدًا، أعطيت كتابي العنوانَ نفسه الذي كان ساكس يخطط لاستخدامه لكتابه: «لوياثان».

4

لم أره مجددًا لما يقرب من عامين. ماريا كانت الشخصَ الوحيد الذي يعرف مكانه، وساكس جعلها تقسمُ على الكتمان. أعتقد أن معظم الناس كانوا سينقضون هذا الوعد، لكن ماريا أعطته كلمتها، ورفضت أن تفتح فمَها مهما بلغ خطرُ سكوتها عليها. صادفتها ستَّ مرات في هذين العامين، ولكن عندما تحدّثنا عن ساكس لم تفشِ أبدًا أنها تعرف عن اختفائه أكثرَ مما أعرف. في الصيف الماضي، عندما علمتُ أخيرًا قدرَ ما كانت تخفي عني غضبتُ لدرجةِ أني أردتُّ خنقَها. لكن هذه كانت مشكلتي، وليست مشكلة ماريا، ولم يكن لديَّ الحق في التنفيس عن إخفاقي عليها. الوعد وعدٌ في النهاية، وعلى الرغم من أن صمتَها نتج عنه الكثير من الضرر؛ فلا أعتقد أنها كانت مخطئةً في فعل ما فعلته. إن كان مِن واجب أحد أن يتكلم، فهو ساكس. كان هو المسئولَ عما حدث، وما ماريا إلّا حافظة سرِّه. لكن ساكس لم يقل شيئًا. لمدة عامين كاملين ظلَّ مختبئًا وما نَبَسَ بكلمة.

علمنا أنه كان على قيد الحياة، ولكن مع مرور الأشهر وعدم تلقي أيِّ رسالة منه، لم يعد هذا مؤكدًا. جُذاذاتُ أخبارٍ هي كل ما بقي من أثره، وبعض الوقائع الشبحية. علمنا أنه غادر ڤيرمونت، وأنه لم يقد سيارته الخاصة، وأن فاني رأته لمدة دقيقة رعبٍ واحدة في بروكلين. وخلاف ذلك، ما تبقى كان محض تكهنات. نظرًا لأنه لم يتصل للإعلان عن قدومه، افترضنا أن لديه شيئًا عاجلًا يبلغها به، ولكن أيًّا يكن ذلك الشيء، فلم يُتح لهما الحديث فيه أبدًا. ظهر في واحدة من الليالي فجأة، وعيناه تفيضان بالاضطراب والجنون، كما وصفت فاني، مقتحمًا غرفة نوم شقتهما. قاد ذلك إلى المشهد المريع الذي ذكرته سابقًا. لو كانت الغرفة مظلمة، لكان الوضع أقل إحراجًا لهم جميعًا، ولكن

تصادف وجود عدة أضواء، وفاني وتشارلز عاريان فوق أغطية السرير، وبن رأى كلَّ شيء. من الواضح أنه آخر شيء توقع أن يجده. قبل أن تتمكن فاني من قول كلمةٍ له، كان قد تراجع بالفعل خارجًا من الغرفة، متمتمًا باعتذار، وأنه لم يعرف، ولم يقصد إزعاجَها. نزلت من السرير، ولكن بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الصالة الأمامية، كان بابُ الشقة قد صُفق بشدة وساكس يُسابق خطواته نازلًا على الدرج. لم تستطع الخروجَ دون ثياب، فاندفعت إلى غرفة المعيشة، وفتحت النافذة، ونادت عليه في الشارع. توقف ساكس للحظة ولوّحَ لها، ثمَّ صرخ بأعلى صوته: «أبارك لكليكما». بعث لها قبلةً في الهواء، واستدار في الاتجاه المعاكس، وجرى مسرعًا في الظلام. اتصلت فاني بنا بعد ذلك مباشرة. ظنّت أنه قد يكون في طريقه إلى منزلنا لاحقًا، ولكن حدسها ثبت خطؤه. سهرتُ وآيريس نصفَ الليل في انتظاره، ولكن ساكس لم يظهر بتاتًا. منذ ذلك الحين، لم تعُد هناك دلائل على مكان وجوده. اتصلت فاني بالمنزل في ڤيرمونت مرارًا وتكرارًا، ولم يرد أحد. كان ذاك ملاذَنا الأخير، ومع مرور الأيام، بدأ احتمال عودة ساكس إلى هناك يضمحل شيئًا فشيئًا. أخذ الذعرُ يدبُّ فينا، وتفشّت عدوى الهواجس المروعة بيننا. فاني، ليس بيدها حيلة أخرى؛ فاستأجرت سيارة في أول عطلة نهاية الأسبوع وتوجَّهت إلى المنزل بنفسها. كما أبلغتني عبرَ الهاتف بعد وصولها، كانت الدلائل محيرة. الباب الأمامي تُرك غير مقفول، والسيارة رابضة في مكانها المعتاد في الفناء، وكتاب بن على المكتب في الأستوديو: صفحات مخطوطة مكدَّسة في كومة واحدة، وأقلام مبعثرة إلى جانبها، وصفحة نصف مكتوبة ما تزال في الآلة الكاتبة. بعبارة أخرى، بدا الأمرُ وكأنه على وشك العودة في أيّ دقيقة. قالت إنه لو خطط للمغادرة لأيِّ فترة من الزمن لكان المنزل مغلقًا، والأنابيب جافة، والكهرباء مفصولة، والثلاجة قد أفرغت. أضفتُ: «وكان سيأخذ مخطوطته. حتى لو كان قد نسيَ كل شيء آخر، فلا سبيل إلى الرحيل بدونها».

لم يبدُ الوضع معقولًا، وبغضِّ النظر عن مدى دقة تحليلنا له، فقد تركنا دائمًا مع اللغز نفسه. من ناحية، كان رحيل ساكس غيرَ متوقع، ومن ناحية أخرى، فقد غادر بمحض إرادته. لولا تلك المواجهة الخاطفة مع فاني في نيويورك، لكُنّا شككنا في وجود جريمة قتل، لكن ساكس نجح في الوصول إلى المدينة سليمًا. مرتبكًا بعض الشيء، ربما، لكنه في الأساس غير مصابٍ بأذى. ومع ذلك، إن لم يحدث له شيء، فلماذا لم يعدْ إلى ڤيرمونت؟ لماذا ترك سيارته وملابسه وعمله؟ تحدثتُ وآيريس عن الأمر مع فاني مرارًا وتكرارًا، وناقشنا الاحتمال تلو الآخر، لكننا لم نصل أبدًا إلى نتيجةٍ مُرضية. كان هناك عددٌ كبير جدًّا من الفراغات، ومتغيرات متعددة، وأشياء كثيرة لم نكن نعرفها. بعد شهر من البحث المضني، اقترحتُ أن تذهب فاني إلى الشرطة وتُبلغ أنَّ بن مفقود. لكنها قاومت الفكرة. قالت إنه لم يعد لها أي استحقاق عليه، ما يعني أنه ليس لها الحق في التدخل. بعد ما حدث في الشقة، كان حرًّا في فعل ما يحلو له، ولم يكن من مسئولياتها جرُّه للعودة. كان تشارلز- الذي كنّا قد التقينا به بحلول ذلك الوقت واتضح أنه ميسور الحال- على استعدادٍ لتوظيف محقق خاصٍّ على نفقته. قال: «فقط لكي نعرف أنَّ بن بخير. لا يتعلق الأمرُ بإجباره على العودة، إنها مسألة معرفة أنه اختفى لأنه أراد أن يختفي». اعتقدتُ وآيريس أنَّ خطة تشارلز كانت معقولة، لكن فاني لم تسمح له بالمضي قُدمًا فيها. قالت: «أعطانا مباركتَه. هذا يماثل قولَه الوداع. عشت معه لعشرين عامًا، وأعرف كيف يفكر. لا يريدنا أن نبحث عنه. لقد خنتُه بالفعل مرَّة، ولست في وارد القيام بذلك مرةً أخرى. علينا تركه وشأنه. سيعود عندما يكون مستعدًّا للعودة، وحتى ذلك الحين علينا الانتظار. صدقوني، هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب القيام به. علينا فقط مراقبة الوضع بهدوء وتعلُّم التعايش معه».

مرَّت أشهر. ثمَّ سنة، ثمَّ سنتان، وبقيَ اللغز دون حل. بحلول الوقت الذي ظهر فيه ساكس في ڤيرمونت في آب الماضي، كنت قد تجاوزت منذ زمن فكرةَ عثورنا على إجابة أبدًا. آيريس وتشارلز افترضا أنه مات، لكن يأسي لم ينبع من أيِّ سبب بهذا الوضوح. لم يكن لدي إحساسٌ راسخٌ ما إذا كان ساكس على قيد الحياة أم ميتًا. لا حدس مفاجئ، ولا فيوضات من معرفةٍ متجاوزة للحواس، ولا مكابدات باطنية. لكنني كنت مقتنعًا إلى حدٍّ ما أني لن أراه مرة أخرى. أقول «إلى حد ما» لأنني لم أكن متأكدًا من أي شيء. في الأشهر الأولى بعد اختفائه، مررتُ بعددٍ من الانفعالات العنيفة والمتناقضة، لكن هذه المشاعر ذَوَت تدريجيًّا، وفي النهاية لم تعد مُصطلحات مثل «الحزن» أو «الغضب» أو «الالتياع» سارية. كنتُ قد فقدتُّ الاتصال به، وبدأ غيابه يتراجع شيئًا فشيئًا عن كونه مسألة شخصية. في كل مرة حاولت التفكير فيه يخذلني خيالي. كان الأمرُ كما لو أن ساكس غدَا فجوة في الكون. لم يعُد صديقي المفقود، بل أحد أعراض جهلي بكل شيء، وشعارًا لما لا يمكن معرفته بحد ذاته. ربما يبدو هذا غامضًا، لكن لا يمكنني الإتيانُ بأفضل من ذلك. أخبرتني آيريس أنني كنت أتحول إلى بوذي، وأفترضُ أن هذا يصفُ حالي بدقةٍ أكثر من أي شيء آخر. قالت آيريس إن فاني كانت مسيحية لأنها لم تتخلّ عن إيمانها بعودة ساكس في نهاية المطاف، بينما هي وتشارلز ملحدان، وأنا مساعد معلم طائفة الزن، ومؤمنٌ بقوة اللاشيء. قالت إنه في كل السنوات التي عرفتني فيها، كانت هذه المرَّة الأولى التي لا أُبدي فيها رأيًا.

تغيرتِ الحياة، واستمرت الحياة، وتعلمنا- كما توسّلت إلينا فاني- أن نتعايش معها. وعاشت هي وتشارلز معًا، وعلى الرغم منا، أجبرنا أنفسنا، أنا وآيريس، على الاعتراف بأنه شخص محترم- في منتصف أواخر الأربعينيات من عمره- مهندس معماري، متزوج سابقًا، وأب لولديْن، ذكي، مغرم للغاية بفاني، لا تشوبه شائبة. شيئًا فشيئًا، تمكنّا من تكوين صداقةٍ معه، وتوطدَ لنا جميعًا واقعٌ جديد. في الربيع الماضي، عندما ذكرتْ فاني أنها لا تخطط للذهاب

إلى ڤيرمونت في فصل الصيف (قالت إنها لا تستطيع، وربما لن تتمكن من ذلك أبدًا)، خطَرَ لها فجأة أنني وآيريس ربما نودّ استخدامَ المنزل. أرادت إعطاءه لنا مجانًا، ولكننا أصررنا على دفع نوع من الإيجار؛ ولذا توصلنا إلى ترتيبٍ يُغطي تكاليفها على الأقل- حصة تناسبية من الضرائب، والصيانة، وما إلى ذلك. هكذا تصادف وجودي فيه عندما ظهر ساكس في الصيف الماضي. وصل دون سابق إنذار، متقدمًا ببطء في الفناء في واحدة من الليالي في سيارة شيفروليت زرقاء محطمة، وأمضى اليومين التاليين هنا، ثمَّ اختفى مجددًا. خلالهما، أفرغ كلَّ ما في رأسه. تحدّث كثيرًا، إلى حدٍّ كاد يخيفني. لم أسمع بقصته إلا في ذلك الحين، وبالنظر إلى مدى إصراره على سردها، لا أعتقد أنه أخفى أي شيء.مكتبة سُر مَن قرأ

***

قال إنه مضى في العمل. بعد أن غادرتُ وآيريس وسونيا، واصلَ العمل لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع أخرى. يبدو أن محادثاتنا حول لوياثان كانت مفيدة، فرمى بنفسه مجددًا على المخطوطة في ذاك الصباح نفسه، وقررَ ألا يغادر ڤيرمونت حتى ينتهي من مسودة الرواية الكاملة. بدا أن كلَّ شيء يسير على ما يرام. كان يحرز تقدمًا كل يوم، ويشعر بالسعادة جراء حياة الرهبان التي يعيشها، مثلما كان سعيدًا قبل سنوات. ثم- في وقت مبكر من إحدى الأمسيات في منتصف شهر أيلول- قرر الخروج في نزهة على الأقدام. أيامها، كان الطقس قد تغير، والهواء نقيًّا مملوءًا برائحة الخريف. ارتدى سترةَ الصيد الصوفية الخاصة به واندفع أعلى التل خلف المنزل متجهًا شمالًا. حسبَ أنَّ هناك ساعة متبقية من ضوء النهار، ما يعني أنه يمكنه المشي لمدَّة نصف ساعة قبل أن يضطر إلى الالتفاف والعودة. عادةً، كان سيقضي تلك الساعة في تسديد كرة السلة، لكن تغيُّر الفصول يجري على قدم وساق وقتها، وأراد إلقاء نظرة على ما كان يحدث في الغابة: رؤية الأوراق الحمراء والصفراء،

ومشاهدة انحدار الشمس للمغيب بين أشجار البتولا والقيقب، والتجوال في وهج الألوان المتدلية. لذلك انطلق في رحلة قصيرة، ولم يكنْ في ذهنه أكثر مما كان سيطبخه على العشاء عندما يعود إلى المنزل.

ومع ذلك، ما إن ولجَ الغابة حتى فقد تركيزه. وبدلًا من النظر إلى الأوراق والطيور المهاجرة، بدأ يفكرُ في كتابه. تسابقتِ المقاطع التي كتبها في وقت سابق من ذلك اليوم مسرعةً إليه، وقبل أن يعي ما كان يفعله صار بالفعل يؤلف جُملًا جديدة في رأسه، ويخطط العمل الذي يريد القيام به في صباح اليوم التالي. واصل المسير، وهو يتخبط فوق الأوراق الميتة وأشواك الأحراش، ويحدّث نفسه بصوتٍ عالٍ، مرددًا عبارات روايته، غير ذي بال إلى مكان وجوده. قال إنه كان بوسْعه الاستمرار على هذا المنوال لساعات، لكنه في مرحلة معينة لاحظ أنه يواجه صعوبة في الرؤية. كانت الشمس قد غربت بالفعل، وبسبب كثافة الغابة، دهم الليل سريعًا. تطلّع حوله على أمل تحديد موقعه ووجهته، إلا إنَّه لم يجد ما هو مألوف، وأدرك أنه لم يمرّ بهذا المكان من قبْل. وكالأحمق استدار وبدأ يركض في الاتجاه الذي قدم منه. كان لديه بضع دقائق فقط قبل أن يختفي كلُّ شيء، وكان يدرك أنه لن ينجح. لم يكن لديه مصباح يدوي، ولا أعواد ثقاب، ولا طعام في جيوبه. النوم في العراء يتوعدُه بتجربةٍ غير سارة، لكنه لم يستطع التفكير في أي بديل. جلس على جذع شجرة وبدأ يضحك. قال إنه وجد نفسه أضحوكة، وشخصية كوميدية من الطراز الأول. سقط الليل غير هازلٍ، فلم يتمكن من رؤية أي شيء. انتظر ظهور القمر، لكن السماء تلبّدت بدلاً من ذلك. ضحك مرة أخرى. أخذ قرارًا بعدم التردد. لقد كان آمنًا حيث هو، وتجميد مؤخرتِه لليلة واحدة لن يقتله. لذلك فعلَ ما في وسعه ليكون مرتاحًا. تمدد على الأرض، وغطى نفسَه ببعض الأوراق والأغصان كيفما اتفق، وحاول التفكير في روايته. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى تمكن من النوم.

استيقظ عند الفجر، مرتجفًا بارد العظام، وثيابه مبللة بالندى. لم يعدِ الوضعُ مضحكًا بعد الآن. كان في حالة مزاجية ثائرة وعضلاتُه تؤلمه. جائعٌ وأشعث، والشيء الوحيد الذي يريده هو الخروجُ من هناك والعثور على طريقه إلى المنزل. اتَّخذ ما ظن أنه نفسُ الطريق الذي سلكه في الليلة السابقة، ولكن بعد أن سارَ لما يقرب من ساعة، بدأ يشك بأنه في الطريق الخطأ. فكر في الالتفاف والعودة إلى المكان الذي بدأ منه، لكنه لم يكن متأكدًا من أنه سيعثر عليه ثانيةً، وحتى لو فعل، فمن المشكوك فيه أنه سيتعرف عليه. السماء متجهّمة ذاك الصباح، وحشودٌ كثيفة من السحب تحجب الشمس. لم يكن ساكس في يوم من الأيام إنسانَ غاب، وبدون بوصلة لتوجيه موقعه لا يستطع معرفة ما إذا كان يمشي شرقًا أم غربًا أم شمالًا أم جنوبًا. ومن ناحية أخرى، لم يبدُ الأمرُ كما لو أنه محاصَر في غابة بدائية. كان لا بد للغابة أن تنتهي عاجلًا أم آجلًا، والاتجاه الذي يتبعه بالكاد يهم، طالما كان يسير في خطٍّ مستقيم. ما إن يصل إلى طريق مفتوح سيقرع بابَ أول بيت يراه. وسيتمكن الأشخاصُ بداخله من إخباره أين هو دون عناء.

مضى وقتٌ طويلٌ قبل أن يحدث أيٌّ من ذلك. وبالنظر لعدم حمله ساعة، لم يعرف أبدًا كم من الوقت بالضبط، لكنه خمنَ أنه ما بين ثلاث إلى أربع ساعات. بحلول ذلك الوقت كان قد استبد به البرَمُ، وصار يشتمُ غباءه على مدى الكيلومترات الأخيرة بشعور متزايد من الغضب. ومع ذلك، بمجرد وصوله إلى نهاية الغابة، ارتفع مزاجُه المظلم، وتوقف عن رثاء حاله. كان على طريق ترابيٍّ ضيق، وحتى لو لم يكن يعرف أين صار، حتى لو لم يكن هناك منزلٌ واحد في الأفق، يمكنه أن يواسي نفسه بفكرة أن الأسوأ صارَ وراءه. مشى لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى، وهو يراهن نفسه على المسافة التي ابتعد بها عن المنزل: إن كانت أقلّ من عشرة كيلومترات سينفق خمسين دولارًا على هدية لسونيا. إن كانت أكثر من عشرة ولكن أقل من عشرين سينفق مائة دولار. أكثر من عشرين ستصبح مائتين. أكثر من خمسة

وعشرين تساوي ثلاثمائة، وأكثر من عشرين تساوي أربعمائة، وهكذا. بينما كان يُمطر هذه الهدايا الخيالية (دببة باندا محشوَّة، بيوت دمى، أقزام خيل) على ابنته بالمعمودية، سمع صوت سيارة تقرقر في المسافة خلفه. توقفَ وانتظرها تقترب. اتضح أنها شاحنة بيك آب حمراء، تسير بسرعة معتدلة. مستنتجًا أنه ليس لديه ما يخسره رفع ساكس يدَه لجذب انتباه السائق. عَبَرت الشاحنة من أمامه، ولكن قبل أن يستدير ساكس مرة أخرى كبحت فراملها بسرعة وتوقّفت. عجعج الحصى المتطاير، وتصاعد الغبار في كل مكان، ثمَّ ناداه صوت، يسأل عما إذا كان يحتاج توصيلة.

كان السائق في أوائل العشرينيات من عمره. قدّر ساكس أنه شابٌّ محلي، عاملُ صيانةِ طرقٍ أو مساعد سباك، ربما، وعلى الرغم من أنه لم يكن يميل كثيرًا للتحدث في البداية، تبين أن الشاب ودودٌ للغاية ومداهنٌ لدرجة أنه سرعان ما دخل في محادثة معه. كان هناك مضرب كرة لينة (سوفتبول) معدني ملقًى على الأرضية أمام مقعد ساكس، وعندما وضع الشاب قدمَه على دواسة الوقود لتنطلق الشاحنة مرة أخرى، ترنَّح المضرب وضرب ساكس في كاحله. تلك فاتحة الحديث، إن جاز التعبير، وما إنِ اعتذر الشابُّ عن الإزعاج قدّم نفسه على أنه دوايت (دوايت ماك مارتين، كما عرف ساكس لاحقًا) وبدءا في حوار حول الكرة اللينة. أخبره دوايت أنه يلعب في فريق ترعاه إدارةُ الإطفاء التطوعية في بلدة نيوفين. انتهى الموسم التمهيدي في الأسبوع الماضي، وكان من المقرر أن تُقام المباراة الأولى من التصفيات في ذلك المساء «إن سمحَ الطقس»، كررها عدةَ مرات، «إن سمح الطقس ولم تسقط الأمطار». كان دوايت أولَ رجلٍ في القاعدة، والضارب الرابع، ويحتل المركزَ الثاني في الدوري في تسجيل النقاط، وأنه لاعب مهمٌّ من طينة اللاعب الشهير موس سكورون. قال ساكس إنه سيحاول الحضورَ إلى الملعب للمشاهدة، أكّد دوايت بكل ثقةٍ أنها ستكون مباراة رائعة. لم يستطع ساكس أن يغالب الابتسام. كان أشعثَ وغيرَ حليق، وهناك أشواك

وجزيئات أوراق ملتصقة بملابسه، وأنفه يسيل مثلَ صنبور. خطر له أنه يبدو مثل المتشرد، ومع ذلك لم يضغط عليه دوايت بأسئلة شخصية. لم يسأله عن سبب سيْره على ذلك الطريق المهجور، ولم يسأله عن مكان إقامته، ولم يكلف نفسَه عناء السؤال عن اسمه. أدرك ساكس أنه إما أن يكون غبيًّا، أو مجرد فتى لطيف، ولكن بطريقة أو بأخرى، كان من الصعب عدمُ تقدير كياسته. فجأة، تمنى ساكس لو أنه لو لم ينطوِ على نفسه خلال الأشهر الماضية. كان عليه أن يخرج ويختلط بجيرانه أكثر. أن يبذل جهدًا لمعرفة شيء عن الأشخاص من حوله. تقريبًا كنقطة أخلاقية، حدّث نفسه أن عليه ألا ينسى لعبة الكرة اللينة في تلك الليلة. رأى أن ذلك سيفيده بعض الشيء، ويمنحه شيئًا يفكر فيه بخلاف كتابه. إذا كان لديه بعض الأشخاص للتحدث معهم فربما لن يتعرض للضياع في المرَّة القادمة التي يسير فيها في الغابة.

عندما أخبره دوايت بمكان وجودهم، ذُهل ساكس من المدى الذي انحرف فيه عن مساره. من الواضح أنه سار فوق التل ونزل على الجانب الآخر، وحطّ على مبعدة بلدتين إلى الشرق حيث كان يعيش. قطع 15 كيلومترًا سيرًا على الأقدام، لكن مسافة العودة بالسيارة كانت تزيد عن الثلاثين. بدون سبب محدد، قرَّر أن يفيض بالمسألة بأكملها إلى دوايت. ربما بدافع الامتنان، أو ببساطة لأنه وجدها الآن مُسلية. ربما ينقلُها الفتى لرفاقه في فريق الكرة اللينة، وسيضحكون جميعًا على حسابه. لم يكترث ساكس. لقد كانت حكاية نموذجية، نكتة كلاسيكية غبية، ولم يكن يمانع أن يغدو أضحوكةً بسبب حماقته. فتى المدينة الأملس يلعب دور المغامر دانيال بون في غابات ڤيرمونت، وانظروا ما حدث له يا رفاق. ولكن ما إن بدأ الحديث عن بلاياه الصغيرة، ردَّ دوايت بتعاطفٍ غير متوقع. أخبر ساكس أنَّ الشيء نفسه حدث له ذات مرة، ولم يكن الأمرُ ممتعًا. كان يبلغ من العمر 11 أو 12 عامًا فقط في ذلك الوقت، وكان خائفًا إلى حدٍّ تجمُّد الدم في عروقه، رابضًا خلف شجرة طوال الليل متوقعًا هجوم دبٍّ عليه. لم يستطع ساكس التثبُّت،

ولكنه شكَّ أن دوايت اخترع هذه القصة لدفعه للشعور بأنه أقل بؤسًا. على أي حال، لم يضحك الفتى عليه. في الواقع، بمجرد أن سمع مقالة ساكس، عرض عليه أن يقلّه إلى بيته. قال إنه متأخرٌ بالفعل، لكن بضع دقائق أخرى لن تضر، بحق الرب، فلو إنه تعرض للموقف الذي تعرض له ساكس لكان توقع من شخص ما أن يفعل الشيء ذاته معه.

كانوا يركبون على طول طريقٍ ممهّدٍ في تلك المرحلة، لكن دوايت قال إنه يعرف طريقًا مختصرًا إلى منزل ساكس. كان ذلك يعني الالتفاف والرجوع بضعة كيلومترات، ولكن ما إن أجرى حساباته في رأسه، قرر أنه من المنطقي تغيير المسار. فارتطم بالمكابح، واستدار في منتصف الطريق عائدًا في الاتجاه المعاكس. تبين أن هذا الطريق المختصر أضيق الممرات الترابية؛ فسحةٌ بعرض حارةٍ واحدةٍ من أرضٍ غير مستويةٍ من الغابة تقطع جزءًا مظلمًا من الأشجار المتشابكة. قال دوايت إنَّ كثيرًا من الناس لا يدرون عنه، ولكن إذا لم يكن مخطئًا، فسيقودهم إلى طريق ترابي أوسع إلى حدٍّ ما، وسيبصقهم الطريق الثاني على طريق المقاطعة السريع على بُعد ستة كيلومترات من منزل ساكس. ربما كان دوايت يعرف ما كان يتحدث عنه، لكنه لم تتحْ له الفرصة لإثبات صحة نظريته. بعد أقل من كيلومتر من بدء السير في أول طريق ترابي صادفوا ما هو غيرُ متوقع. وقبل أن يتمكنوا من اجتيازه، انتهت رحلتهم.

حدثَ كل شيءٍ بسرعة كبيرة. اختبر فيه ساكس خضخضة الأحشاء، ودوران الرأس، وتدافع الخوف في الأوردة. لقد كان منهكًا للغاية، كما أخبرني، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا من بدايتِه إلى نهايته، لدرجة أنه لم يستطع أبدًا استيعابه كحقيقة، ولا حتى في وقتٍ لاحق، وحتى عندما جلس ليرويه لي بعد عامين. في لحظةٍ ما، بينما هما يتجولان في الغابة، كما قال، وفي اللحظة التالية توقفا. كان هناك رجل يقف أمامهما على الطريق، متكئًا على صندوق سيارة تويوتا بيضاء ويدخن سيجارة. بدا أنه في أواخر الثلاثينيات

من عمره: رجل طويل نحيف ويرتدي قميصَ عملٍ مخطط من الصوف وبنطالًا فضفاضًا كاكي اللون. الشيء الآخر الوحيد الذي لاحظه ساكس هو أن لحيةَ الرجل لا تختلف عن لحيته، ولكنها أغمق لونًا. تصوّرَا أن الرجل لديه مشكلة في السيارة؛ لذا قفزَ دوايت من الشاحنة وسار باتجاهه، وسأله عما إذا كان بحاجة إلى المساعدة. لم يستطع ساكس سماع ردِّ الرجل، لكن النغمة بدتْ غاضبة، عدائيةً بلا داعٍ نوعًا ما، وبينما استمرَّ في مشاهدتهما من خلال الزجاج الأمامي، تفاجأ عندما أجاب الرجل على سؤال دوايت التالي بشيءٍ أكثر شراسة: تبًّا لك، أو انقلع من هنا، كلمات بهذا المعنى. عندها بدأ الأدرينالين يضخُّ في جسده، كما قال ساكس، ومد يده بشكل غريزي إلى المَضرب المعدني على الأرض. كان دوايت طيبَ النفس لدرجة أنه لم يلتقط الإشارة. استمرَّ في السير نحو الرجل، متجاهلًا الإهانة وكأنها غير مهمَّة، وكرر أنه يريد المساعدة فقط. تراجع الرجلُ في هياج، ثمَّ ركض نحو مقدمة السيارة، وفتح الباب من جانب الراكب، ومد يدَه لشيء في درج السيارة. عندما اعتدل واقفًا واستدار نحو دوايت مرَّة أخرى، كان هناك مسدس في يده. أطلق النار مرةً واحدة. عوى الفتى وأمسكَ بطنه، ثمَّ أطلق الرجل النار مرة أخرى. صرخَ الصبي للمرة الثانية وبدأ يترنَّح على الطريق، يئن ويبكي من الألم. استدار الرجل يتبعه بعينيه، فقفز ساكس من الشاحنة ممسكًا بالمضرب في يده اليمنى. قال لي إنه لم يفكر. اندفع خلف الرجل تمامًا مع انطلاق الطلقة الثالثة، وتمسّك بمقبض المضرب جيدًا، ورفعه بأقصى ما يستطيع. كان يستهدف رأسَ الرجل ويطمح في فصل جمجمته إلى قسمين، على أمل قتله، على أمل إفراغ دماغه على الأرض. هبط المضرب بقوةٍ مروِّعة، محطمًا مكانًا خلفَ أذن الرجل اليُمنى مباشرة. سمع ساكس دويَّ الاصطدام، وتصدُّع الغضروف والعظام، ثمَّ سقط الرجل. لقد سقط ميتًا في منتصف الطريق، وصمتَ كلُّ شيء.

ركضَ ساكس إلى دوايت، ولكن عندما انحنى لفحص جثة الفتى رأى أن الطلقة الثالثة قد قتلته. اخترقت الرصاصة مؤخرةَ رأسه مباشرة، وتحطمت جمجمته. ضيّع ساكس فرصته. الأمر كله مسألة توقيت، وقد كان بطيئًا للغاية. لو أنه تمكّنَ من الوصول إلى الرجل قبل ذلك بجزءٍ من الثانية فلن تأتي تلك اللقطة الأخيرة، وبدلًا من النظر إلى جثة لكان يضمد جروحَ دوايت، ويفعل كلَّ ما في وسعه لإنقاذ حياته. بعد لحظة من التفكير على هذا النحو، شعر ساكس أن جسدَه بدأ يرتجف. جلس على الطريق، ووضع رأسه بين ركبتيه، وجاهد حتى لا يتقيأ. مرَّ الوقت. شعر بالريح تهبُّ عبر ثيابه. سمع صوت طائر قيق أزرق يصرخ في الغابة؛ فأغمض عينيه. عندما فتحهما مرَّة أخرى التقط حفنة من التراب السائب من الطريق وسحقها على وجهه. وضع التراب في فمه ومضغَه، وترك طحينه يكشط أسنانه، وأحس بالحصى فوق لسانه. مضغَه حتى لم يعد يستطيع تحمله، ثمَّ تجاوز ذلك ولفظ الخبيصة من فمه، وهو يئنُّ مثل حيوانٍ مريضٍ يحتضر.

قال، لو أنَّ دوايت نجا، لكانت القصة كلُّها مختلفة. لم تكن فكرة الهروب لتخطر له أبدًا، وبمجرَّد شطب الاحتمال الأول لم يكن لأيٍّ من الأمور التي أعقبت ذلك أن تحدث. عندما وجد نفسه وحيدًا هناك في الغابة، سقط ساكس فجأة في حالة من الذعر الجامح العميق. مات رجلان، وفكرة الذهاب إلى شرطة الولاية ليست في الوارد. لقد قضى بالفعل فترةً في السجن. كان مجرمًا مُدانًا، وبدون أي شهود لتأكيد قصته، لم يكن أحدٌ ليصدّق أي كلمة يقولها. كان كل شيء غريبًا، وغيرَ قابل للتصديق. بالطبع لم يكن يفكر بوضوح شديد، ولكن أيًّا تكن أفكاره، لم تتركّز بالكامل إلا على ذاته. لم يستطع فعلَ أي شيء من أجل دوايت، لكن على الأقل كان بإمكانه أن ينجو بجلده، وفي حالة ذعرِه كان الحلُّ الوحيد الذي تبادر إليه هو الهرب.

عَلِم أن الشرطة ستكتشف أن رجلًا ثالثًا كان حاضرًا. سيكون من الواضح أنَّ دوايت والغريب لم يقتلا بعضهما البعض؛ لأنَّ رجلًا بثلاث رصاصات في جسده بالكاد لديه القوة لضرب شخص ما حتى الموت، وحتى لو فعلَ فلن يكون قادرًا على المشي 10 أمتار على الطريق بعد ذلك، على الأقل بعد أن استقرَّت واحدة من تلك الرصاصات في جمجمته. عرف ساكس أيضًا أنه سيترك بعضَ الآثار وراءه حتمًا. وبغض النظر عن مدى اجتهاده في التنظيف خلفه، لن تواجه فريق طبٍّ شرعيٍّ كفءٍ أي مشكلة في اكتشاف شيء ما للعمل عليه: بصمة قدم أو خصلة شعر أو هُتامَة مجْهرية. لكن لا شيء من ذلك سيُحدث أي فرق. طالما أنه تمكن من إزالة بصمات أصابعه من الشاحنة، وطالما أنه تذكّر أخْذ المضرب معه؛ فلن يكون هناك أيُّ شيء لاكتشاف أنه هو الرجلُ المفقود. كانت تلك هي النقطة الحاسمة. عليه ضمان أن الرجل المفقودَ يمكن أن يكون أي شخص. بمجرد أن يفعل ذلك، سيكون طليقًا.

أمضى عدةَ دقائق في مسح أسطح الشاحنة: لوحة القيادة، المقعد، النوافذ، مقابض الأبواب الداخلية والخارجية، كل ما خطر بباله. حالما انتهى، فعلَها مرة أخرى، ثمَّ كررها مرة ثالثة على سبيل الاحتياط. بعد أن التقط المضرب من الأرض، فتح باب سيارة الرجل الغريب، فوجد أنَّ المفتاح لا يزال في فتحة التشغيل، فتسلق خلف عجلة القيادة. انطلق المحرك من النَّقرة الأولى. سيكون هناك علامات إطارات بالطبع، وهذه العلامات ستزيل أيَّ شك في وجود رجل ثالث في المكان، لكن ساكس كان مذعورًا للغاية من المغادرة سيرًا على الأقدام. أكثر ما يمكن أن يكون منطقيًّا هو: الفرار، والعودة إلى البيت، ونسيان القضية البغيضة جملةً. قلبه صار ينبض بسرعة كبيرة لهذا السبب، وأفكاره تجمح عن نطاق السيطرة، ولم تعُد الأعمال المدبرة من هذا النوع ممكنة. كان يتحرّق إلى السرعة. تاقَ إلى سرعة السيارة وضجيجها، والآن بعد أن أصبح جاهزًا، كلُّ ما رغب به هو الرحيل، والجلوس في السيارة

والقيادة بأسرع ما يمكن. هذا وحده ما يمكن أن يُضاهي الاضطراب في داخله. هذا وحده يسمح له بإسكات هدير الرعب في رأسه.

***

قاد سيارته شمالًا على الطريق السريع لمدة ساعتين ونصف، متابعًا نهر كونيكتيكت حتى وصل إلى أطراف مدينة باري. كان هذا هو المكان الذي تغلَّبَ فيه الجوع عليه أخيرًا. خشي أن يستفرغ الطعام، لكنه لم يأكل منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، وعلِم أنّ عليه أن يجرب. قطع الطريق السريع عند المخرج التالي، وقاد على طول طريق من مسارين لمدة خمسة عشر أو عشرين دقيقة، ثم توقف لتناول طعام الغداء في بلدة صغيرة لا يتذكر اسمها. لم يخاطر، طلب بيضًا مسلوقًا وخبزًا محمصًا. بعد أن انتهى، دخل إلى حمام الرجال ونظّف نفسه؛ نَقَعَ رأسه في حوضٍ من الماء الدافئ وأزال الأغصانَ وبقع الأوساخ من ملابسه. هذا ما جعله يشعر بتحسُّن كبير. بحلول الوقت الذي دفع فيه فاتورته وخرج من المطعم، أدرك أنَّ الخطوة التالية هي الالتفاف والذهاب إلى نيويورك. سيستحيل عليه الاحتفاظُ بالقصة لنفسه. كان هذا واضحًا الآن، وما إن أدرَكَ أنه يجب عليه التحدثُ إلى شخص ما، عرف أن هذا الشخص ينبغي أن يكون فاني. على الرغم من كل ما حدثَ في العام الماضي، إلا إنَّه فجأة يشتاق لرؤيتها ثانيةً.

بينما كان يسير صوبَ سيارة الرجل الميت، لاحظ ساكس أنها تحمل لوحة أرقام كاليفورنيا. لم يكنْ متأكدًا ما سيستفيد من هذا الاكتشاف، لكنه فاجأه تمامًا. كم من التفاصيل الأخرى فاتته؟ تساءل. قبل أن يعود إلى الطريق السريع ويتَّجه جنوبًا، ترك الطريق الرئيسي وأوقف السيارة عندَ حافة ما بدا أنه محميةُ غابةٍ كبيرة. كانت بقعة منعزلة، ولا علامات لوجود أي شخص لمسافة كيلومترات حولها. شرع ساكس الأبوابَ الأربعة للسيارة، ونزل على يديه وركبتيه، ومشّط الجزءَ الداخلي منها بشكل منهجي. ومع دقته، جاءت

نتائج هذا البحث مخيبة للآمال. وجد بعضَ العملات المعدنية محشورة أسفل المقعد الأمامي، وبضعة أوراق مكوّرة متناثرة على الأرض (أغلفة وجبات سريعة، وأعقاب تذاكر، وعلب سجائر مجعدة)، ولكن لا شيء عليه اسم، ولا شيء يُعلِمه بحقيقة الرجل الذي قتله. كانت درج السيارة فارغًا بالمثل، خاليًا عدا من دليل مالك تويوتا، وعلبة رصاص من عيار 38 ملم، وعلبة غير مفتوحة من سجائر كاميل. بقي الصندوق، وعندما اقترب ساكس أخيرًا لفتحه، أثبت الصندوق أنه أمرٌ مختلف.

كان بداخله ثلاثُ حقائب. أكبرها مليءٌ بالملابس ومعدات الحلاقة والخرائط. في الأسفل، كان هناك جواز سفر مطوي بعيدًا في مظروف أبيض صغير. عندما نظر إلى الصورة في الصفحة الأولى، تعرف ساكس على الرجل من ذلك الصباح وهو الرجل نفسه بدون اللحية. اسم الميلاد: ريد ديماجيو، الحرف الأول من الاسم الأوسط: «ن» تاريخ الميلاد 12 تشرين الثاني .1950 مكان الميلاد: نيو آرك، نيو جيرسي. جواز السفر صدر في سان فرانسيسكو في تموز الماضي، والصفحات الخلفية فارغة، بدون أختامِ تأشيراتٍ أو علاماتٍ جمركية. تساءل ساكس عما إذا كان مزوَّرًا. بالنظر إلى ما حدث في الغابة ذاك الصباح، بدا من شبه المؤكد أن دوايت لم يكن أولَ شخص قتله ديماجيو. وإذا كان سفاحًا محترفًا، فهناك احتمال أنه كان يسافر بوثائق مزوَّرة. ومع ذلك، كان الاسم بطريقة ما استثنائيًّا، وغريبًا بحيث لا يكون حقيقيًّا. لا بد أنه ملك شخصٍ ما، ولعدم وجود أي أدلة أخرى تتعلق بهوية الرجل، قرر ساكس قبول هذا الشخص بوصفه الرجل الذي قتله: ريد ديماجيو. حتى يأتي اسمٌ أفضل، هذا هو الاسم الذي سيطلقه عليه.

الدليلُ التالي عبارة عن حقيبة فولاذية، أحد الصناديق الفضية اللامعة التي يحمل المصورون معداتهم فيها أحيانًا. فُتحت الحقيبة الأولى بدون مفتاح، لكن هذه الحقيبة كانت مقفولة، وأمضى ساكس نصفَ ساعة يكافح

من أجل نزع المفصلات من براغيها. طرقها بين الرافعة وحديد الإطارات، وفي كل مرة يتحرك الصندوق، كان يسمع أجسامًا معدنية تخشخش بداخلها. افترضَ أنها أسلحة: سكاكين، بنادق، رصاص، أدوات عمل ديماجيو. عندما رضخ الصندوق أخيرًا، على أي حال، أسفرَ عن مجموعة محيرة من الخردوات، ما لم يكن يتوقعه ساكس على الإطلاق. وجدَ بكراتٍ من الأسلاك الكهربائية، وساعات منبه، ومفكات، ورقائق دقيقةً، وخيوطًا، وعجينةً، وعدة لفّات من الشريط اللاصق الأسود. واحدًا تلو الآخر، التقط كل عنصر ودرسَه، محاولًا فهمَ الغرض منه، ولكن حتى بعد غربلة محتويات الصندوق بالكامل، مازال غيرَ قادر على تخمين ما تدل عليه هذه الأشياء. لم يطرقه الأمر إلا بعد فترة طويلة من عودته إلى الطريق. أثناء القيادة إلى نيويورك في تلك الليلة، أدرك فجأة أن هذه هي المواد اللازمة لصنع قنبلة.

كانتِ القطعة الثالثة من الأمتعة حقيبة بولينج. لم يكن هناك شيء رائع حولها)حقيبة جلدية صغيرة بخطوط حمراء وبيضاء وزرقاء، وسحاب، ومقبض بلاستيكي أبيض(، لكنها أخافت ساكس أكثرَ من الاثنتين الأخرين، وقد احتفظ بها بشكل غريزي للأخير. أدرك أنه يمكن إخفاء أي شيء هناك. مُفترِضًا أنها تخص رجلًا مجنونًا، مهووسًا بالقتل، وهذا الـ «أي شيء» غدا تصوُّره الأكثرَ فظاعة. بحلول الوقت الذي انتهى فيه من الحقائب الأخرى، كان ساكس قد فقد الشجاعة تقريبًا لفتحها. بدلًا من مواجهة ما وضعه خياله هناك، كاد أن يقنع نفسه برميها بعيدًا. لكنه لم يفعل. وما إن أوشكَ أن يرفعها من الصندوق ويقذفها في الغابة، أغمض عينيه، وتردد، وبعد ذلك، بجرّةٍ واحدة محمومة، فك السحاب.

لم يكن هناك رأسٌ في الحقيبة. لم تكن هناك آذان مقطوعة، ولا أصابع مبتورة، ولا أعضاء حساسة. ما كان هناك هو المال. وليس مجرد القليل من المال، بل الكثير منه، أموال أكثر مما زآه ساكس في مكانٍ واحد من قبل.

كانت الحقيبة مدكوكة من الداخل: حزم سميكة من أوراق المائة دولار مربوطة بشرائط مطاطية، كل حزمة توازي ثلاثة أو أربعة أو خمسة آلاف دولار. عندما انتهى ساكس من عدّها، كان متأكدًا بنسبة كبيرة أن المجموع يقع في مكان ما بين مائة وستين ومائة وخمسة وستين ألفًا. كان ردُّه الأول على اكتشاف النقود هو الراحة، والامتنان لأن مخاوفه عادت صفرًا. ثم، كما أجمَلَ في أوَّل مرة، شعور بالصدمة والدوار. في المرة التالية التي أحصى فيها الأوراق النقدية، وجد نفسه يعتاد عليها. قال لي إن هذا كان أغرب جزءٍ في المسألة: كيف استوعب بسرعةٍ كل بعيدَ احتمالٍ سيحدث. بحلول الوقت الذي عدّ فيه المال مرة أخرى، كان قد بدأ بالفعل في التفكير فيه على أنه ملكه.

احتفظ بالسجائر، ومضرب الكرة اللينة، وجواز السفر، والمال. كل شيء آخر رماه بعيدًا، نثر محتوياتِ الحقيبة والصندوق المعدني بعيدًا في عمق الغابة. بعد بضع دقائق، وضع الأمتعة الفارغةَ في صندوق قمامة على أطراف المدينة. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بحلول ذلك الوقت، وكان أمامه مسافة طويلة بالسيارة. توقف لتناول وجبة أخرى في مدينة سبرينجفيلد، ماساتشوستس، يدخن سجائر ديماجيو بينما كان يملأ جوفه بقهوة زائدة، ثمَّ وصل إلى بروكلين بعد الساعة الواحدة صباحًا بقليل. كان هذا هو المكان الذي تخلى فيه عن السيارة، وتركها في أحدِ الشوارع المرصوفة بالحصى بالقرب من قناة جوانوس؛ وهي منطقة خالية إلا من مستودعات فارغة ومجموعات كلاب هزيلة سائبة. كان حريصًا على تنظيف الأسطح من بصمات الأصابع، لكن هذا كان مجرد إجراء احترازي إضافي. ترك الأبواب غير مقفولة، والمفتاح في مكان التشغيل، ومن المؤكد أن السيارة سُرقت قبل حلول الليل.

سافرَ بقية الطريق سيرًا على الأقدام حاملًا حقيبة البولينج في يد ومضرب الكرة اللينة والسجائر في اليد الأخرى. عند زاوية الجادة الخامسة وشارع بريزيدنت، دسَّ المضرب في وعاء قمامةٍ غاصٍّ، في زاويةٍ بين صحف الأخبار

المتكدسة وقشور البطيخ. كان ذلك آخر جزءٍ عليه التفكير فيه من المسألة. كان ما يزال هناك كيلومترٍ آخر ليقطعه، ولكن مع إجهاده، سارَ نحو شقته بشعورٍ متزايد بالهدوء. كان يعتقد أن فاني ستكون هناك من أجله، وما إن يراها، سينتهي الأسوأ.

***

هذا يفسر الارتباكَ الذي تلى. لا يقتصر الأمر على أن ساكس بُوغت فقط عندما دخل الشقة، لكنه لم يكن في حالةٍ تمكِّنُه من استيعاب أقلِّ حقيقةٍ جديدةٍ عن أي شيء. كان دماغه مثقلًا بالفعل، وحين عاد إلى المنزل وإلى فاني على وجْه التحديد؛ فذلك لأنه افترض أنه لن يجدَ أي مفاجآتٍ هناك، لأنه المكانُ الوحيد الذي يُعوّل على أنه سيلقى فيع العناية. ومن هنا جاء ارتباكه، وردّ فعله المنذهل عندما رآها تتقلّب على السرير مع تشارلز. تلاشى يقينُه إلى خزي، وكل ما قدرَ عليه هو التمتمة ببضع كلمات اعتذار قبل الخروج سريعًا من الشقة. كل شيء حدثَ في آنٍ واحد، وإذ تمكنَ من استعادة رباطة جأشه بما يكفي ليصرخ بمباركةٍ من الشارع، لم يكن ذلك أكثرَ من خدعة، محاولة واهية في اللحظة الأخيرة لحفظ ماء الوجه. بينما في الواقع، شعر كما لو أنَّ السماء سقطت فوق رأسه، وأن قلبه قد اقتلع من صدره.

ركضَ إلى آخر الشارع. ركض فقط ليختفي، دون أدنى فكرة عمّا يجب فعله بعد ذلك. في ناصية الشارع الثالث والجادة السابعة، لمح هاتفًا عموميًّا، وهذا أعطاه فكرةَ الاتصال بي وطلب مكان لقضاء الليل. عندما اتصل برقم هاتفي، كان الخط مشغولًا. لا بدَّ أنني كنت أتحدث إلى فاني في تلك اللحظة (اتصَلَتْ على الفور بعد أن ركض ساكس بعيدًا)، لكن ساكس فسرَ الإشارة المشغولةَ أنّي وآيريس قد رفعنا هاتفنا عن حامله. كان هذا استنتاجًا معقولًا لأنه لم يكنْ من المحتمل أن يتحدث أحدُنا إلى شخص ما في الساعة الثانية صباحًا. لذلك، لم يكلف نفسَه عناء المحاولة مرة أخرى. عندما أعادَ الهاتفُ

قطعتَه النقدية إليه، استخدمها للاتصال بماريا بدلًا من ذلك. سحبها الرنينُ من نومٍ عميق، ولكن ما إن سمعت الإحباطَ في صوته طلبتْ منه أن يَقْدِم من فوره. كانت قطاراتُ الأنفاق شحيحةً في تلك الساعة، وبحلول الوقت الذي استقلَّ فيه القطار من ميدان جراند آرمي وسافر إلى شقتها في مانهاتن، كانت بالفعل مرتديةً ملابسها ومستيقظةً تمامًا، جالسةً إلى طاولة المطبخ تشرب فنجان قهوتها الثالث.

كان هو المكانَ المنطقي ليذهب إليه. حتى بعد ابتعاده إلى الريف، ظلَّ ساكس على اتصال بماريا، وعندما تكلمتُ معها أخيرًا حول كل هذه الأمور في الخريف الماضي، أظهرتْ لي أكثرَ من عشر رسائل وبطاقات بريدية أرسلها إليها من ڤيرمونت. قالت إن هناك عددًا من المكالمات الهاتفية أيضًا، وفي الأشهر الستة التي قضاها خارج المدينة، لم تكن تعتقد أن أكثرَ من عشرة أيام تمرُّ دونَ ورود أخبار منه بشكلٍ أو آخر. النقطة الأساس أن ساكس وثق بها، ومعَ خروج فاني فجأة من حياته (وهاتفي مرفوع ظاهريًّا)، كانت خطوة طبيعية منه أن يلجأ إلى ماريا. منذُ الحادث الذي تعرَّض له في تموز الماضي، كانت هي الشخص الوحيد الذي يفضي إليه، الشخص الوحيد الذي سمح له بالدخول إلى حرم أفكاره. إذا وضعنا كل الحقائق في الاعتبار ربما كانت أقربَ إليه في تلك اللحظة من أي شخص آخر.

ومعَ ذلك، اتضح أنه خطأ فادح. ليس لأن ماريا لم تكن راغبة بمساعدته، ولا لأنها لم تكن مستعدة لطرح كل شيء في سبيل لمساعدته على الخروج من الأزمة؛ ولكن لأنها كانت تمتلك ميزةً واحدة قوية بما يكفي لتحويل بليّةٍ شنيعة إلى مأساة واسعة النطاق. لو لم يذهب ساكس إليها فأنا واثق من أن الأمورَ كانت ستحلّ بوتيرة أسرع. كان سيهدأ بعد ليلة من الراحة، وبعد ذلك يتصل بالشرطة ويُخبرهم بالحقيقة، وبمساعدة محام جيد، كان سيخرج رجلًا حرًّا. ولكن أضيفَ عنصرٌ جديدٌ إلى الخليط غير المستقر أصلًا خلال

الأربع وعشرين ساعة الماضية، وانتهى بإنتاجِ مركبٍ قاتلٍ، ودورقٍ من الحمض الذي هسهست مخاطرُه متصاعدةً في غلالةٍ من دخان.

حتى هذه اللحظة، يصعب عليّ قبولُ أيٍّ منها. وأنا أتكلم كشخصٍ يعرف مصلحته، وكشخص فكرَ طويلًا وجديًّا في الأمور الموضوعة على المحك هنا. أمضيتُ سنيّ رشدي كلها في كتابة القصص، ووضع أشخاصٍ خياليّين في مواقف غير متوقعة، وفي كثير من الأحيان غير محتملة، لكن لم يشهد أيٌّ من شخصياتي شيئًا غير محتمل مثلما شهد ساكس في تلك الليلة في بيتِ ماريا تيرنر. إن كان الإخبار عما حدث لا يزال يصدمني فذلك لأن الحقيقة تتقدم دائمًا على ما يمكن أن نتخيله. بغضِّ النظر عما نتخيله عن مدى جموح ابتداعاتنا، فإنها لا يمكن أن تُضاهي ما لا يمكن التكهن به مما يتقيّأه العالم الحقيقي باستمرار. يبدو أنَّ هذا الدرس لا مفرَّ لي منه الآن. «أي شيء يمكن أن يحدث». وبطريقة أو بأخرى، إنه دائمًا ما يحدث.

كانتِ الساعات الأولى التي أمضياها معًا مؤلمة كفاية، ووصفَها كلاهما كنوع من الزوبعة؛ لكزةٌ في الروح، ودوامة من الدموع، وصمتٌ يتقطع، وكلمات مختنقة. شيئًا فشيئًا، تمكن ساكس من إزاحة القصة عن صدره. وضعتْه ماريا بين ذراعيها خلال معظم حديثه، مستمعةً في ذهولٍ متشكّكٍ وهو يخبرها بالقَدْر الذي تمكّن من قوله. كان ذلك عندما قطعت له وعدًا وأقسمت أن تكتم حوادث القتل. في وقت لاحق، خططت لإقناعه بالذهاب إلى الشرطة، لكن شاغلها الوحيد في الوقت الحالي هو حمايته وإثبات إخلاصها. كان ساكس ينهار، وما إن شرعتِ الكلمات تخرج من فمه، وبمجرد أن بدأ يستمع إلى نفسِه وهو يصف الأفعال التي قام بها؛ حتى استبدَّ به القرف. حاولتْ ماريا إقناعه أنه تصرفَ دفاعًا عن النفس، وأنه ليس مسئولًا عن مقتل الرجل الغريب، لكن ساكس رفض قبول حجتها. شئنا أم أبينا، فقد قتل رجلًا، ولن يمحو أيّ قدر من الكلام هذه الحقيقة.

قالت ماريا إنه لو لم يقتل الغريب، لكان هو الآن قتيلًا. أجاب ساكس، ربما، ولكن على المدى الطويل فهو يفضّل ذلك على الوضع الذي هو فيه الآن. وقال إنه كان من الأفضل له الموت، لو أصيب بالرصاص وقُتل في ذلك الصباح خيرٌ له من حمل هذه الذكرى معه لبقية حياته.

استمرَّا في الحديث، والنسج داخل وخارج هذه الحجج الملتاعة، وموازنة الفعل وعواقبه، ومعايشة الساعات التي أمضاها ساكس في السيارة، ومشهد فاني في بروكلين، وليلته في الغابة، يتناولان المواضيع نفسها ثلاث أو أربع مرات، ولم يستطع أي منهما النوم، وبعد ذلك، في منتصف هذه المحادثة توقف كلُّ شيء. فتح ساكس حقيبة البولينج ليُظهر لماريا ما وجده في صندوق السيارة، وهناك كان جواز السفر ممددًا فوق النقود. أخرجه وسلّمه لها، وأصرَّ على أن تلقي نظرة عليه، عازمًا على إثبات أن الغريب كان شخصًا حقيقيًّا؛ رجل له اسم، وعمر، ومكان ميلاد. قال إن ذلك يجعله راسخًا. لو كان الرجل مجهولَ الهوية فلربما أمكن التفكير به على أنه وحش، ونتخيّل أنه استحقَّ الموت، لكن جواز السفر أزال الأسطورةَ عنه، وأظهر أنه رجلٌ مثل أي رجل آخر. هنا علاماته الحيوية؛ تعريفًا لحياة واقعية. وهنا صورته. وبشكل لا يصدق، الرجل «كان يبتسم» في الصورة. كما أخبر ساكس ماريا عندما وضع الوثيقة في يدها، كان مقتنعًا أنَّ الابتسامة ستدمرُه. أيًّا تكن المسافة التي يقطعها بعيدًا عن أحداث ذلك الصباح، فلن يتمكن من الفرار من ابتسامته أبدًا.

فتحتْ ماريا جواز السفر، وهي تفكر مسبقًا فيما ستقوله لساكس، ملقيةً بالفعل بعض الكلمات التي قد تطمئنه، ونظرتْ إلى الصورة بالداخل، ثمَّ رمقتها ثانية، وحرّكت عينيها ذهابًا وإيابًا بينَ الاسم والصورة، وفجأة (كما حكى لي في العام الماضي) أحستْ كما لو أن رأسها على وشكِ الانفجار. تلك هي الكلمات الدقيقة التي استخدمتها لوصف ما حدث: «شعرت كما لو أن رأسي على وشك الانفجار».

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألها ساكس إن كان بها خطبٌ ما، فقد رأى تغيرَ التعابير في وجهها، ولم يفهم ذلك.

قالت: يا الله!

- هل أنتِ بخير؟
- هذه مزحة، أليس كذلك؟ كلها نكتة غبية، أليس كذلك؟
- أنا لا أفهمك.
- ريد ديماجيو. هذه صورة لريد ديماجيو.
- هذا ما تقوله. ليس لدي أي فكرة عما إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي.
- أنا أعرفه.
- أنتِ ماذا؟
- أنا أعرفه. كان متزوجًا من أعز صديقاتي. حضرتُ عقد قرانهما. أسميا ابنتهما الصغيرة على اسمي.
- ريد ديماجيو؟
- هناك ريد ديماجيو واحد فقط. وهذه صورته. أنا أنظر إليها الآن.
- هذا غير ممكن.
- هل تشك بأنني أختلق الأمر؟
- الرجل كان قاتلًا. قتل فتًى بدمٍ بارد.
- لا يهمني. كنت أعرفه. كان متزوجًا من صديقتي ليليان شتيرن. لولاي لما التقيا أبدًا.

***

كان الفجر قد اقترب في ذلك الوقت، لكنهما استمرا بالحديث لعدة ساعات أخرى، وواصلا السهرَ حتى الساعة التاسعة أو العاشرة صباحًا ريثما روتْ ماريا تاريخ صداقتها مع ليليان شتيرن. ساكس؛ الذي كان جسده ينهار من الإرهاق، قبض على طاقة ثانية ورفض الذهاب إلى الفراش

حتى فرغت. عرفَ عن الأيام الأولى لماريا وليليان في ماساتشوستس، وعن انتقالهما إلى نيويورك بعد المدرسة الثانوية، وعن الفترة الطويلة التي فقدا فيها الاتصال ببعضهما البعض، وعن لمِّ شملهما غير المتوقع في مدخل شقة ليليان. عرّجت ماريا على قصة دفتر العناوين، ونبشتِ الصور التي التقطتها لليليان ونشرتها على الأرض ليراها، كما أخبرته عن تجربتهما في تبادل هويَّتيهما. وأوضحت أن هذا أدى مباشرة إلى لقاء ليليان بديماجيو، وإلى الحبِّ العاصف الذي تلى ذلك. ماريا نفسها لم تُتحْ لها فرصة معرفته عن قربٍ أبدًا، وباستثناء حقيقة أنها استلطفته لم تستطعْ قول الكثير عن هويته. لم يعْلق في ذهنها سوى القليل من التفاصيل العشوائية. تذكرت أنه قاتلَ في فيتنام، ولكن لم تعد تذكر الآن ما إذا كان قد استدعي للتجنيد في الجيش أو أنه تطوع للخدمة. لا بد أنه سُرّح في وقت ما في أوائل السبعينيات، على أي حال، لأنها كانت تعلم حقيقة أنه ذهب إلى الكلية استنادًا إلى وثيقة إعادة تأهيل قدامى الجنود، وعندما التقت به ليليان في عام 1976، كان قد أنهى بالفعل درجة البكالوريوس. وكان على وشك الذهاب إلى بيركلي كطالب دراسات عليا في التاريخ الأميركي. إجمالًا، قابلتْه خمس أو ستَّ مرات فقط، وقد حدثت العديدُ من تلك اللقاءات في البداية، عندما كان وليليان في بداية علاقتهما. انتقلت ليليان معه إلى كاليفورنيا في الشهر التالي، وبعد ذلك رأته ماريا في مناسبتين أخريين فقط: في حفل الزفاف في عام 1977، وبعد ولادة ابنتهما في عام1981 انقضى الزواج في عام .1984 تحدثت ليليان مع ماريا عدةَ مرات خلال فترة الانفصال، ولكن منذ ذلك الحين والاتصالات بينهما متقطعة، مع فترات أطول بين مكالمة وأخرى.

قالت إنها لم تلحظْ أي قسوة في ديماجيو قط، لا شيء يوحي بأنه كان قادرًا على إيذاء أي شخص، ناهيك عن قتل شخص غريب بدمٍ بارد. لم يكن الرجل مجرمًا. كان طالبًا ومثقفًا ومعلّمًا، وقد عاش هو وليليانَ حياةً مملةً إلى حد ما في بيركلي. قام بتدريس الفصول كأستاذ مساعد في الجامعة وعمل على

شهادة الدكتوراه؛ درَسَ التمثيل، واشتغل في وظائف مختلفة بدوام جزئي، وقدّم عروضًا مسرحية محلية وأفلامًا طلابية. ساعدتها مدخرات ليليان في اجتياز العامين الأولين، ولكن بعد ذلك بات المال شحيحًا، وفي كثير من الأحيان كانا يكافحان لتغطية نفقاتها. بالكاد حياة مجرم، كما قالت ماريا.

لم تكن- أيضًا- هي الحياة التي تخيلتْ أن تختارها صديقتُها لنفسها. بعد تلك السنوات الجامحة في نيويورك، بدَا غريبًا أن تستقر ليليان مع شخص مثل ديماجيو. لكنها كانت تفكر بالفعل في مغادرة نيويورك، وكانت ظروف لقائها استثنائية (كانت «تطير من الفرح» على حد تعبير ماريا)، إلى درجةٍ ربما جعلت فكرة الهروب معه لا تقاوم، وليست خيارًا بقدر ما هي مسألة مصير. صحيح أنَّ بيركلي ليست هوليوود، لكن ديماجيو لم يكن أيضًا دودة كتب صغيرة متذمرة بنظاراتٍ ذات إطار سلكي وصدرٍ مخسوف. لقد كان شابًّا قويًّا وسيمًا، ولا يعاني من مشكلةِ جاذبيةٍ جسدية. بنفس القدر من الأهمية، كان أذكى من أي شخص قابلتْه: لقد تحدث بشكلٍ أفضل، وعرف أكثر من أي شخص آخر، وكان لديه عديدٌ من الآراء المثيرة للإعجاب حول كل شيء. لا بد أن ليليان، التي لم تقرأ أكثر من كتابين أو ثلاثة في حياتها، قد خضعت له. وفقًا لماريا، ربما تخيلتْ أن ديماجيو سيغيرها، وأن مجرد معرفتها به ستخرجها من ضَحالتها وتساعدها حتى تنجح في حياتها. أن تغدو نجمة سينمائية كان مجرد حلمٍ طفوليٍّ على أي حال. ربما امتلكت المظهر المناسب له، وربما حازت ما يكفي من الموهبة، ولكن، كما أوضحتْ ماريا لساكس، كانت ليليان أكسل من أن تتمكن من تحقيقه، وابنة ساعتها التي لا تطيق الصبرَ والتركيز، وتفتقر أيضًا إلى الطموح. عندما سألت ماريا النصيحة، قالت ماريا لها بصراحة أن تنسى الأفلامَ وتكتفي بديماجيو. إن كان على استعداد للزواج منها، فعليها أن تلتقط الفرصة. وهذا بالضبط ما فعلته ليليان.

على حدٍّ علم ماريا، بدا أنه زواج ناجح. لم تشكُ ليليان من ذلك مطلقًا في أي حال، ومع أن ماريا بدأتْ تساورها بعض الشكوك بعد أن زارت كاليفورنيا في عام 1981 (وجدت ديماجيو كئيبًا ومتعجرفًا، خاليًا من روح الدعابة)، وأرجعت ذلك إلى التقلبات المبكرة للأبوة واحتفظتْ بأفكارها لنفسها. بعد عامين ونصف، عندما اتصلت ليليان لتعلن عن انفصالهما الوشيك، استولتْ على ماريا الدهشة. زعمت ليليان أن ديماجيو كان يواعد امرأة أخرى، لكنها ذكرت شيئًا ما عن أنَّ «ماضيها يطاردها». لطالما افترضتْ ماريا أن ليليان أخبرت ديماجيو عن حياتها في نيويورك، ولكن يبدو أنها لم تتطرق له أبدًا؛ ومع انتقالهما إلى كاليفورنيا، قررت أنه سيكون من الأفضل لكليهما لو لم يعرف. في إحدى الأمسيات، بينما كانت وديماجيو يتناولان العشاء في مطعم في سان فرانسيسكو، صادف أن جلس أحدُ زبائنها السابقين على الطاولة المجاورة. كان الرجل مخمورًا، وبعد أن رفضت ليليان الاستجابة لنظراته وابتساماته وغمزاته البغيضة، وقف وأبدى بعضَ الملاحظات المهينة بصوتٍ عالٍ، وأفشى سرَّها أمام زوجها. حسبَ ما قالت لماريا، استبدتْ بديماجيو نوبة غضب عندما عادا إلى المنزل. دفعها أرضًا، وركلها، وقذف القدورَ والمقالي على الحائط، وصرخ بأعلى صوته «عاهرة» ولو لم تستيقظ الطفلةُ لكان هناك احتمال أن يقتلها. ومع ذلك، في اليوم التالي، عندما تحدثتْ إلى ماريا مرة أخرى لم تشرْ ليليان أبدًا إلى هذه الحادثة. هذه المرة، كانت قصتها هي أن ديماجيو «أصبح غريبًا عليها»، وأنه كان يتسكع مع «مجموعة من المتطرفين الحمقى» وتحوّل إلى «نذل» لذا سئمت منه أخيرًا وطردته من المنزل. قالت ماريا إن المحصلة هي ثلاث قصص مختلفة، مثال نموذجي على كيفية مواجهة ليليان للحقيقة. قد تكون إحدى القصص حقيقية. حتى إنَّه من المحتمل أن تكون كلها صحيحة، ومن الممكن أيضًا أن تكون زائفة بأسْرها. مع ليليان، لن تتمكن أن تعرف على وجه التأكيد، كما

أوضحت لساكس. على الرغم من كل ما عرفته، ربما كانت ليليان غير مخلصة لديماجيو، وهو الذي هجرها.

ربما الأمر بهذه البساطة. ثمَّ مرةً أخرى، قد لا يكون.

لم يتطلّقا رسميًّا. ديماجيو، الذي أنهى شهادته في عام 1982، كان يدّرس في كلية خاصة صغيرة في أوكلاند خلال العامين الماضيين. بعد القطيعة مع ليليان في خريف 1984، انتقل إلى شقة بغرفة واحدة في وسط بيركلي. خلال الأشهر التسعة التالية، كان يأتي إلى المنزل كل يوم سبتٍ ويصطحب ماريا الصغيرة ليقضي اليوم معها. واظبَ على الحضور في الموعد المحدد في الساعة العاشرة صباحًا، وكان يعيدها في الساعة الثامنة مساءً على الدوام. ثم، بعد ما يقرب من عامٍ على هذه الوتيرة، توقف عن الحضور. لم يكن هناك أي عذرٍ أو كلمة توضيحٍ. اتصلت ليليانُ بشقته عدةَ مرات خلال اليومين التاليين، ولم يجبها أحد. في يوم الاثنين، حاولتِ الاتصال به في العمل، وعندما لم يرفع أحد الهاتف في مكتبه، أعادتِ الاتصال وطلبت سكرتيرةَ قسم التاريخ. عندها فقط علمت أنَّ ديماجيو استقال من وظيفته في الكلية. في الأسبوع الماضي فقط، قالت السكرتيرة، في اليوم الذي سلّم فيه الدرجات النهائية للفصل الدراسي. أخبر رئيس مجلس الإدارة أنه عُيّن في وظيفة ثابتة في جامعة كورنيل، ولكن عندما اتَّصلت ليليان بقسم التاريخ في كورنيل، لم يكن أحد قد سمعَ به. بعد ذلك، لم ترَ ديماجيو أبدًا. خلالَ العامين التاليين، كان الأمر كما لو أنه اختفى من على وجه الأرض. لم يكتب، ولم يتصل، ولم يقمْ بأيِّ محاولة للاتصال بابنته. إلى أن تجسَّد في غابات ڤيرمونت يوم وفاته؛ كانت صفحة هذين العامين بالكامل فارغة.

في غضون ذلك، واصلت ليليان وماريا الحديثَ معًا عبر الهاتف. بعد مرور شهر على فقدِ كلِّ أثرٍ لديماجيو، اقترحت ماريا أن تحزم ليليان حقيبة سفرها وتأتي صحبة ماريا الصغيرة إلى نيويورك. حتى إنَّها عرضت دفعَ الأجرة،

ولكن نظرًا إلى أن ليليان لم يكن لها سارحة ولا رائحة في ذلك الوقت؛ قرَّرتا أنه من الأفضل إنفاق الأموال على تسديد الفواتير. لذلك أرسلت ماريا إلى ليليان قرضًا بقيمة ثلاثة آلاف دولار (كلّ قرش تستطيع الاستغناء عنه)، وتأجلت الرحلة إلى موعد لاحق. مرَّ عامان، ولم يحدث ذلك بعد. ظلت ماريا تتصور أنها ستذهب إلى كاليفورنيا لقضاء أسبوعيْن مع ليليان، ولكن بدا أنه لم يكن هناك وقت مناسب أبدًا، فلم يبق لها سوى مواكبة عملها. بعد السنة الأولى، صارتا تتَّصلان ببعضهما البعض بشكلٍ أقل. في وقت من الأوقات، أرسلت ماريا 1500 دولار أخرى، بعد أن مرت أربعة أشهر على آخر محادثة لهما؛ فاحتملت أنَّ حالة ليليان المادية سيئة نوعًا ما. قالت إنها كانت طريقةً فظيعةً لمعاملة صديق، وهي تستسلم فجأة لدورة جديدة من الدموع. لم تعد تعرف حتى ما كانت تفعله ليليان منذ ذلك الوقت، والآن بعد أن حدثَ هذا الأمر الرهيب، رأت كم كانت أنانية، ووَعَتْ إلى أي مدًى خذلتها.

بعدَ ربع ساعة، تمددَ ساكس على الأريكة في أستوديو ماريا، وانجرف إلى النوم. أمكنه الاستسلام لإعيائه لأنه كان قد وضع خطةً بالفعل، لأنه لم يعدْ يشك فيما يجب فعله بعد ذلك. بمجرَّد أن أخبرته ماريا عن ديماجيو وليليان شتيرن، أدرك أن حدوث الكابوس هو في الواقع حل؛ فرصةٌ في شكل معجزة. كان الشيء الأساسي هو قبول خرق الحادث للطبيعة، لا إنكاره، بل واحتضانه، وإنعاش روحه به كقوةٍ داعمة. بينما أظلمت الدنيا من حوله، وجد الآن نصوعًا رائعًا ومهيبًا. سيذهب إلى كاليفورنيا ويعطي ليليان شتيرن الأموال التي وجدها في سيارة ديماجيو. ليس المال فقط، ولكن المال كرمزٍ لكل ما كان عليه أن يقدمه؛ روحه بأكملها. عدالة القصاص تقتضي ذلك، وبمجرد أن يقوم بهذا الفعل؛ ربما كان ليحظى ببعض السلام، وربما يكون لديه العذرُ للاستمرار في العيش. سلب ديماجيو نفْسًا. هو قتل ديماجيو. الآن جاء دوره، لا بدَّ من أن تُسلب حياته منه. هذا هو القانون الضمني، وما لم يجد الشجاعة لاجتثاث نفسه، فإنَّ دائرة اللعنة لن تنغلق أبدًا. بغضّ النظر

عن المدة التي سيعيشها، فلن تبقى عائدية حياته إليه. بتسليم المال إلى ليليان شتيرن، كان سيضع نفسه بين يديها. هذه هي كفارته: أن يوظف حياته في سبيل منح الحياة لشخص آخر.. أن يعترف.. أن يخاطر بكلِّ شيء في سبيل حلمٍ مجنونٍ بالرحمة والمغفرة.

لَم يخبرْ ماريا بأيٍّ من هذه الأشياء. خشيَ ألّا تفهمه، وأفزعته فكرة إرباكها، والتسبب في مزيد من الهَلع لها. ومع ذلك، فقد أجّل المغادرةَ لأطول فترة ممكنة. احتاج جسده إلى الراحة، وبما أنَّ ماريا لم تكن في عجلة من أمرها للتخلص منه؛ انتهى به الأمر بالبقاء معها لثلاثة أيامٍ أخرى. طوال ذلك الوقت، لم تطأ قدمه خارج شقتها. اشترت ماريا له ملابس جديدة. كانت تتسوَّق من البقالة وتطبخ له وجبات الطعام، وتزوّده بالصحف كل صباح وبعد الظهر؛ عدا قراءة الصحف ومشاهدة الأخبار التلفزيونية، لم يفعل شيئًا تقريبًا. نام. حدّق من النافذة. تأمّل في ضخامة الخوف.

في اليوم الثاني، كان هناك مقال صغيرٌ في صحيفة نيويورك تايمز أفاد باكتشاف الجثتين في ڤيرمونت. كانت هذه هي الطريقةَ التي علم بها ساكس أنَّ الاسم الأخير لدوايت كان ماك مارتين، لكن المقال كانت سطحيًّا للغاية بحيث لم يقدم أيَّ تفاصيل حول التحقيق الدي كان جاريًا على ما يبدو. في صحيفة نيويورك بوست بعد ظهر ذلك اليوم، كانت هناك قصة ثانية أكدتْ مدى حيرة السلطات المحلية من القضية. لكن لا شيء عن رجل ثالث، لا شيء عن سيارة تويوتا بيضاء مهجورة في بروكلين، ولا شيء عن أي دليل من شأنه أن يؤسس صلة بين ديهاجيو وماك مارتين. أذاع العنوان: «لغزٌ في الغابة الشمالية». في تلك الليلة على الأخبار الوطنية، التقطت إحدى الشبكات القصة، لكن بخلاف مقابلة قصيرة مبتذلة لها مع والديْ ماك مارتين (الأم تبكي أمام الكاميرا، والأب ذو وجهٍ حجري ومتجهم) ولقطة منزل ليليان شتيرن «السيدة ديهاجيو رفضت التحدث إلى المراسلين»،

لم تكن هناك تطورات مهمة. ظهر متحدث باسْم الشرطة وقال إنَّ اختبارات البارافين أثبتت أنَّ ديهاجيو أطلق البندقية التي قتلت ماك مارتين، لكن مقتل ديهاجيو نفسه لا يزال غيرَ مبرر. وأضاف أنه من الواضح أن رجلاً ثالثًا متورطًا، لكنهم مازالوا لا يعرفون مَن هو أو إلى أين ذهب. أما فيما خصّ الغاية والدوافع، فكانت القضية لغزًا.

طوالَ الوقت الذي أمضاه ساكس مع ماريا، استمرت في الاتصال برقم ليليان في بيركلي. في البداية، لم يكن هناك جواب. ثم، عندما حاولت مرة أخرى بعد ساعة، استقبلتها إشارة الخط المشغول. بعد عدةِ محاولات أخرى، اتصلت بالبدالة وسألت عما إذا كانت هناك مشكلة في الخط. لا، أُبلغت، الهاتف مرفوعٌ عن حامله. بمجرد عرض التقرير على التلفزيون مساء اليوم التالي، صارت إشارةُ الخط المشغول مفهومة. كانت ليليان تحمي نفسها من المراسلين، وطوال فترة بقاء ساكس في نيويورك، لم تتمكن ماريا من الوصول إليها. وربما كان الحال نفسه على المدى الطويل. بغضّ النظر عن مدى رغبتها في التحدث إلى صديقتها بشكل عاجل، وجدت ماريا صعوبةً في إخبارها بما تعرفه: أن قاتل ديهاجيو كان صديقًا لها، وأنه كان يقف بجانبها في تلك اللحظة بالذات. كانت الأمور فظيعةً بما فيه الكفاية دون الحاجة إلى التعثر بين الكلمات لشرح كل ذلك. من ناحية أخرى، ربما كان من المفيد لساكس لو تمكنتْ ماريا من التحدث إلى ليليان قبل مغادرته. كان بوسعها تمهيدُ الطريق له، إذا جاز التعبير، فتصير ساعاته الأولى في كاليفورنيا أقل عسرًا. ولكن كيف لماريا أن تعرف ذلك؟ لم يقل لها ساكس شيئًا عن خطته، وبخلاف مذكرة الشكر القصيرة التي وضعها على طاولة المطبخ عندما كانت تتسوق لوجبة العشاء في اليوم الثالث، لم يقلْ لها حتى كلمة وداع. أحرجه تصرُّفه على هذا النحو، لكنه كان يعلم أنها لن تسمح له بالذهاب دون توضيح، وآخر شيء يريده هو أن يكذب عليها. لذا بمجرد خروجها للتسوق، جمع متعلقاته كلها ونزل إلى الشارع. تمثلت أمتعته في كيس البولينج وكيس بلاستيكي

(ألقى فيه معدات الحلاقة وفرشاة أسنانه وبعض الملابس التي جلبتها له ماريا) من هناك مشى إلى غرب برودواي، ولوّح لسيارة أجرة، وطلب من السائق أن يقلّه إلى مطار كينيدي. بعد ساعتين، ركب طائرة متجهةً إلى سان فرانسيسكو.

***

عاشت في منزل صغير مجصَّص باللون الوردي في شقق بيركلي؛ وهو حيٌّ فقيرٌ بمروجٍ مبعثرةٍ وواجهاتٍ متقشرة وممراتٍ جانبيةٍ مزروعة بالحشائش. توقف ساكس في سيارة بليموث مستأجرة بعد العاشرة صباحًا بقليل، لم يردّ أحد على الباب عندما قرع الجرس. كانت المرةَ الأولى التي يزور فيها بيركلي، ولكن بدلًا من الانطلاق لاستكشاف المدينة والعودة لاحقًا، أوقف سيارته على الدرجات الأمامية وانتظر ظهور ليليان شتيرن. كان الهواء ينبض بحلاوةٍ غير مألوفة. بينما كان يتصفح نسخته من صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل، اشتمَّ رائحةَ شجيرات الجكرندة، وأزهار صريمة الجدي، وأشجار الأوكالبتوس؛ صدمةُ كاليفورنيا في إزهارها الأبدي. لا يشغله كم من الوقت سيضطر للجلوس هناك. غدا الحديث مع هذه المرأة هو هدفَ حياته الوحيد، وإلى أن يحدث ذلك، بدا له أن الوقت قد توقف، وكأنه ليس لشيء أن يكمن فيه خلا تشويق الانتظار. حدّث نفسه: عشر دقائق أو عشر ساعات، لا فرق، طالما أنها ستظهر.

كان هناك مقال في صحيفة كرونيكل لذلك الصباح عن ديماجيو، وقد أثبت أنه أطول وأكمل من أيِّ شيء قرأه ساكس في نيويورك. وفقًا لمصادر محلية، كان ديماجيو منخرطًا مع مجموعة بيئية يسارية؛ ثلة صغيرة من الرجال والنساء الذين يطالبون بإغلاق محطات الطاقة النووية وشركات قطع الأخشاب وغيرهم من «لصوص الأرض» تكهن المقال بأن ديماجيو ربما كان في مهمة لهذه المجموعة وقت وفاته، وهو اتهامٌ نفاه بشدة رئيس فرع بيركلي

لجماعة «أطفال الكوكب»، الذي أصرَّ أنّ منظمته تعارض أيديولوجيًّا جميع أشكال الاحتجاج العنيف. من ثمَّ ذهب المراسل ليقترح أن ديماجيو كان يتصرف بمفرده، وأنه عضو منشق من «الأطفال» لاختلافه مع المجموعة حول أساليبهم التكتيكية. لم يثبت أيٌّ من هذا، إلا أنَّه صدَمَ ساكس بمعرفة أن ديماجيو لم يكن مجرمًا عاديًّا. لقد كان شيئًا مختلفًا تمامًا: مثاليٌّ مجنون، صاحب قضية، شخصٌ كان يحلم بتغيير العالم. هذا لا يلغي حقيقة أنه قتل فتًا بريئًا، لكنه بطريقة ما جعل الأمر أسوأ. لقد حارب هو وساكس للأسباب ذاتها. حتى أنهما، في زمنٍ ومكان آخريْن، قد يصبحان صديقين.

أمضى ساكس ساعةً مع الصحيفة، ثمَّ ألقى بها جانبًا وحدق في الشارع. مرت عشراتُ السيارات أمام المنزل، لكنَّ المشاة الوحيدين كانوا إما هرمين أو أطفالًا: أطفالٌ صغار مع أمهاتهم، رجل عجوز أسمر يتوكأ على عصا، امرأة آسيوية بيضاء الشعر مع مشاية من الألومنيوم. في الساعة الواحدة، ترك ساكس موقعه مؤقتًا للبحث عن شيء يأكله، لكنه عاد في غضون عشرين دقيقة وأكل وجبة غدائه السريعة على الدرج. كان يعوّل أن تأتي بحلول الساعة الخامسة والنصف أو السادسة، على أمل أن تكون قد خرجت لعملها في مكان ما، حيث تؤدّي وظيفتها كما تفعل دائمًا، وهو يواصل محاولة تتبع خطوات روتينها المعتاد. لكن هذا كان مجردَ تخمين. لم يكن يعلم أن لديها وظيفة، وحتى لو كان لديها عمل، فليس من المؤكد بأيِّ حالٍ من الأحوال أنه يقع في المدينة. إذا كانت المرأة قد اختفت، فإن خطته ستغدو دون قيمة، ومع ذلك فإن الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي الاستمرار في الجلوس حيث هو. لقد عانى وسطَ صخب الترقب خلال ساعات المساء الأولى، وهو يراقب الغيوم تُظلم في السماء مع استحالة الغسق إلى ليل. الساعة الخامسة صارت السادسة، والسادسة صارت السابعة، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا كان كل ما في وسعه هو مغالبةَ الاحتراق بسبب خيبة الأمل. ذهب للحصول على المزيد من الطعام في الساعة السابعة والنصف، لكنه عاد مرةً أخرى إلى المنزل، وظل

ينتظر مجددًا. قال لنفسه إنها قد تكون في مطعم، أو تزور أصدقاء، أو تفعل أي عدد من الأشياء الأخرى التي من شأنها أن تفسر غيابها. وإذا عادت، كان من الضروري أن يكون هناك. ما لم يتحدث إليها قبل دخولها المنزل، فقد يفقد فرصته إلى الأبد.

مع ذلك، حتى وهي تظهر أخيرًا، أُخذ ساكس على حين غرَّة. كانت قد انقضت بضع دقائق على منتصف الليل، ولأنه بحلول ذلك الوقت لم يعُد يتوقعها، فقد سمح لتيقّظه بالتراخي. كان قد أرخى كتفه على سور من الحديد الزهر، وأغلق عينيه، على وشك أن يغلبه النعاس، عندما أعادَه صوت محرك السيارة تُبطئ إلى استنفاره. فتح عينيه ورأى السيارة تتوقف في ساحة انتظارٍ على الجانب الآخر من الشارع مباشرة. بعد لحظة، توقف المحرك عن العمل وأطفِئت المصابيحُ الأمامية. مازال غير متأكد ما إذا كانت ليليان شتيرن؛ قام ساكس على قدميه وراقب من موقعه على الدرجات. قلبه يتلاطم، والدم يصدح في دماغه.

جاءت نحوَه ومعها طفلة نائمة بين ذراعيها، ولم تكلف نفسها عناء إلقاء نظرةٍ على المنزل وهي تعبرُ الشارع. سمعها ساكس تهمس بشيء في أذن ابنتها، لكنه لم يستطع تبيُّن ما كان. أدرك أنه ليس أكثرَ من ظل؛ شخصية غير مرئية مختبئة في الظلام، وفي اللحظة التي يفتح فيها فمه للكلام، ستموت المرأةُ من الذعر. تردد لعدة ثوان. ثم، وهو لا يزال غير قادر على رؤية وجهها، اندفع أخيرًا، وكسر الصمت عندما بلغت منتصف الطريق الأمامي.

قال: «ليليان شتيرن؟»، وفي اللحظة التي سمع فيها كلماته، علِم أن صوته قد خانه. كان يرغب لو حمل السؤال بعض الدفء والود، لكنه خرج متوترًا وعدوانيًّا، كما لو أنه كان يخطط لإيذائها.

سمع صوتَ شهقة سريعة مرتعشة تفرّ من حلق المرأة. توقفتْ لوهلةٍ قصيرة، وأحكمت إمساك الطفلة بين ذراعيها، ثمَّ أجابت بصوت منخفض يغمره الغضب والإحباط: «انقلع عن منزلي يا هذا. أنا لا أتحدث إلى أحد» قال ساكس وهو يبدأ في نزول الدرجات: «أريد فقط كلمة معك». لوَّح بيديه المفتوحتين ذهابًا وإيابًا في إيماءة النفي، وليثبت أنه جاء مسالمًا. «لقد كنت أنتظر هنا منذُ الساعة العاشرة هذا الصباح. يجب أن أتحدث إليكِ. الأمر مهم للغاية».

- أنا لا أتحدث إلى أي صحفي.
- لست مراسلًا. أنا صديق. لستِ مضطرة لقول كلمة واحدة لي إذا كنت لا تريد ذلك. أنا فقط أطلب منكِ الاستماع.
- لا أصدقك، أنت مجردُ شخص آخر من هؤلاء الوقحين القذرين.
- أنت مخطئة. أنا صديق. أنا صديق ماريا تيرنر. هي مَن أعطتني عنوانك.

«ماريا؟»، قالت المرأة. كان هناك خفة مفاجئة لا لبس فيها في صوتها. «هل تعرف ماريا؟».

- أعرفها جيدًا. إذا كنت لا تصدقينني، يمكنك الدخول والاتصال بها. سأنتظر هنا حتى تُنهي المكالمة.

وصل إلى أسفل الدرج، وواصلت المرأة تقدُّمها نحوه، وكأنها قد تحررت توًّا لتتحرك بعد ذكر اسْم ماريا. كانا يقفان على الممرِّ المبلَّط على مبعدة خطوتين من بعضهما البعض، وللمرة الأولى منذ وصولها، تمكن ساكس من تحديد ملامحها. لقد رأى الوجه الاستثنائي نفسه الذي رآه في الصور في منزل ماريا، والعينين السوداوين نفسيهما، والعنق نفسه، والشعر القصير نفسه، والشفاه الممتلئة نفسها. كان أطول منها بقدم تقريبًا، وأشرف عليها من أعلى وهو ينظر إلى رأس الفتاة الصغيرة مستلقيًا على كتفها، أدرك ذلك؛ على الرغم من الصور، لم يكن يتوقع أن تكون بهذا الجمال.

سألتْ: من أنت؟

- اسمي بنيامين ساكس.
- وماذا تريد منّي، يا بنيامين ساكس؟ ماذا تفعل هنا أمام منزلي في منتصف الليل؟
- حاولتْ ماريا الاتصال بكِ. اتصلت بك لعدة أيام، ولما لم تتمكن من محادثتك، قررتُ القدوم إلى هنا بدلًا من ذلك.
- قطعتَ كل هذه المسافة من نيويورك؟
- لم يكنْ هناك أي خيار آخر.
- ولم رغبت أنت بفعل ذلك؟
- لأن لديَّ شيئًا مهمًّا أخبرك به.
- لا أحبُّ الطريقة التي يبدو بها ذلك. آخر شيء أحتاجه هو المزيد من الأخبار السيئة.
- إنها ليست أخبارًا سيئة. أخبارٌ غريبةٌ، ربما، أو حتى أخبار لا تصدق، لكنها بالتأكيد ليست سيئة. بالقدر الذي يعنيك، فهي ممتازة. مذهلةٌ، في الواقع. حياتك كلها على وشك أن تأخذ منعطفًا إلى الأفضل.
- أنت واثق من نفسك كثيرًا، أليس كذلك؟
- فقط لأنني أعرف ما أتحدث عنه.
- وهذا لا يمكن أن ينتظر إلى الصباح؟
- لا، يجب أن أتحدث إليكِ الآن. فقط أعطيني نصف ساعة، وبعد ذلك سأتركك وشأنك. أعدُكِ.

دون أن تنطقَ بكلمة أخرى، أخرجت ليليان شتيرن مجموعة من المفاتيح من جيب معطفها، وصعدت الدرج وفتحت باب المنزل. تبعها ساكس عبر العتبة ودخل الردهة المظلمة. لا شيء حدث كما كان يتخيله، وحتى بعد أن أضاءت الأنوار، وبعد أن شاهدها وهي تحمل ابنتها إلى الفراش في الطابق

العلوي، كان يتساءل كيف سيجد الشجاعة للتحدث معها، ليخبرها بما قطع خمسة آلاف كيلومترٍ ليقوله.

سمعها تغلق باب غرفة نوم ابنتها، لكن بدلًا من النزول مرة أخرى، دخلت غرفةً أخرى واستخدمت الهاتف. سمعها بوضوحٍ تطلب رقمًا، ولكن بعد ذلك، ما إن نطقت باسْم ماريا صُفق البابُ وتاهت عنه المحادثة التي تلت. رشحَ صوتُ ليليان عبر السقف إلى الأسفل قعقعةً صامتة، وهمهمةً زائغةً من الزفرات والوقفات والصرخات المكتومة. بينما كان يحاول يائسًا معرفة ما كانت تقوله، ولكن أذنيه لم تكونا حادتين كفاية؛ فتخلّى عن العناء بعد دقيقة أو دقيقتين. كلما طالت مدةُ المحادثة استطال توترُه. غير عارفٍ ما يفعل، ترك بقعته في أسفل الدرج وبدأ يتجولُ داخل وخارج غرف الطابق الأرضي. لم يكن هناك سوى ثلاثةٍ منها، وكل واحدة منها في حالةِ فوضى مزرية. الأطباق المتسخة مكدسة في حوض المطبخ؛ غرفة المعيشة مليئة بالوسائد المتناثرة والكراسي المقلوبة ومنافض السجائر الممتلئة؛ طاولة غرفة الطعام مُنهارة. في غرفة تلو الأخرى، أشعل ساكس الأنوار ثم أطفأها. اكتشف أنه كان مكانًا وضيعًا، بيتًا من التعاسة والأفكار المضطربة، وقد صعقه مجرد النظر إليه.

استمرتِ المحادثة الهاتفية خمسَ عشْرة أو عشرين دقيقة أخرى. بحلول الوقت الذي سمع فيه ليليان تغلق الخط، كان ساكس في الصالة مرَّة أخرى، ينتظرها في أسفل الدرج. نزلت ووجهها متجهمٌ وكالح، ومن الارتجاف الخافت الذي لاحظه في شفتها السفلى، أدركَ أنها كانت تبكي. زالَ المعطف الذي كانت ترتديه في وقت سابق واستبدلَ ثوبَها بنطالُ جينز أسود وقميصٌ أبيض. لاحظ أن قدميها كانتا حافيتين، وأظافرهما مطلية باللون الأحمر الزاهي. ومع إنه كان ينظرُ مباشرة إليها طوال الوقت، إلا إنَّها لم تتطلع إليه وهي تهبط الأدراج. عندما وصلت إلى الأسفل، تحرك جانبًا مفسحًا لها

المجالَ بالمرور، وعندها فقط، عندما كانت في منتصف الطريق إلى المطبخ، توقفت وأدارت رأسها، مخاطبةً إياه من فوق كتفها الأيسر.

قالت: ماريا تقرؤك السلام، وهي أيضًا تقول إنها لا تعرف لمَ أنت هنا.

ودونما انتظارٍ لإجابته، واصلت طريقها إلى المطبخ. لم يتبيّن ساكس إن كانت تريده أن يتبعها أو أن يبقى مكانه، ولكنه قررَ الدخول خلفها على أي حال. أشعلتْ ضوء السقف، أطلقتْ آهة هادئة بينها وبين نفسها عندما رأت حال المطبخ، وأدارت ظهرها له وفتحت خزانة. استخرجت قنّينة جوني والكر، ووجدت كأسًا فارغةً في خزانةٍ أخرى، وسكبت لنفسها كأسًا. كان من المستحيل عدمُ الالتفات إلى العدوانية الدفينة في تلك الحركة. لم تقدم له شرابًا ولم تطلب إليه الجلوس، فانتبه ساكس فجأة إلى أنه مهددٌ بخسارة الموقف. هذا مشهده، في نهاية الأمر، وها هو الآن معها، مضطربًا دون سببٍ واضح ومنعقد اللسان، غير عارفٍ من أين يبدأ.

أخذتْ رشفة من شرابها وتطلعت صوبَه من طرف الغرفة، وأعادت كلامها: «ماريا لا تعرف لمَ أنت هنا». صوتها مبحوح وخالٍ من التعبير، ومع ذلك، حمل تسطّحه التهكم؛ تهكمٌ يميل إلى التحقير.

ردَّ ساكس: لا، لا أتصور أنها تعرف.

- إن كان لديك شيء تقوله لي؛ فمن الخير لك قوله الآن، وبعد ذلك اذهب في سبيلك. هل تفهم ذلك؟ تذهب في سبيلك، وتخرج من هنا.
- لن أتسبب لك بالمتاعب.
- أنت تعلم أن لا شيء يقف بيني وطلب بالشرطة. كل ما عليّ فعله التقاط سماعة الهاتف؛ لتذهبَ حياتُك هباءً. أعني، في أي كوكبٍ لعينٍ وُلِدتَ على أي حال؟ تطلقُ النار على زوجي، ثمَّ تأتي إلى هنا وأنت تتوقع أن أكون لطيفة معك؟

- لم أطلق النارَ عليه. لم أحمل سلاحًا في حياتي.
- لا يهمني ما فعلت، ولا علاقة لي به.
- له علاقة. له علاقة بكِ دونما أدنى شك. وله علاقة بكلينا أيضًا.
- تريدني أن أغفرَ لك، أليس كذلك؟ لهذا السبب أتيت؛ أن تقع على ركبتيك وتطلب العفو. حسنًا، لست مهتمَّة. العفو عن الناس ليست وظيفتي. هذا ليس مجال عملي.
- مات والدُ طفلتك الصغيرة، وأنت تقولين لي إنَّ الأمر لا يعنيكِ؟
- هذا ليس من شأنك.
- ألم تذكر ماريا المال؟
- المال؟
- ألم تخبركِ؟
- لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.
- لديَّ مال لكِ. لهذا السبب أنا هنا. لأعطيكما المال.
- لا أريد أموالك. لا أريد شيئًا لعينًا منك. أريدك فقط أن تخرج.
- أنت ترفضينني قبل أن تسمعي ما لدي.
- لأنني لا أثق بك. أنت تسعى إلى شيءٍ ما، ولا أعرف ما هو. لا أحد يتبرع بالمال مقابل لا شيء.
- أنتِ لا تعرفينني، يا ليليان. ليس لديكِ أدنى فكرة عما أنا بصدده.
- عرفتُ ما يكفي. لقد عرفتُ ما يكفي لأعلمَ أنّي لا أحبك.
- لم آتِ إلى هنا لأكون محبوبًا. جئت لمساعدتك، هذا كل شيء، وما تظنين بي ليس مهمًّا.
- أنت مجنون، هل تعرف ذلك؟ أنت تتحدث تمامًا مثل رجلٍ مجنون.
- الشيء الوحيد المجنون هو أن تنكري ما حصل. لقد أخذتُ شيئًا منك، والآن أنا هنا لأعطيك شيئًا عوضًا عنه. بهذه البساطة. أنا لم

أخترِكِ. الظروف أعطتكِ لي، والآن عليّ أن أقومَ بدوري من الصفقة على أكمل وجْه.

- لقد بدأت تتحدث مثل ريد. ابن عاهرة سريع الكلام، منفوخٌ بحججك ونظرياتك الغبية. لكنَّها لا تصمد، يا بروفيسور. لا توجد صفقة. كل هذا في رأسك فقط، وأنا لست مدينةً لك بشيء.
- تمامًا. لستِ مدينةً لي. أنا من يدينُ لكِ.
- هراء.
- إن كانت أسبابي لا تهمك، فلا تفكري بها. ولكن خذي المال. إن لم يكن من أجلكِ، فعلى الأقل من أجل طفلتك الصغيرة. أنا لا أطلب منك أي شيء. أنا فقط أريدك أن تأخذيه.
- ثمَّ ماذا؟
- ثمَّ لا شيء.
- سأكون مدينةً لك، أليس كذلك؟ هذا ما تريدني أن أفكر به. بمجرد أن آخذ أموالك، ستعتقد أنك تملكني.

ردّ ساكس، وهو يستسلم فجأة لسخطه: «أملكك؟ أملكك؟ أنا لا أحبك أصلًا. من الطريقة التي تصرَّفت بها معي الليلة، كلما قلت معرفتي بك كان ذلك أفضل».

في تلك اللحظة، وبدون أدنى تلميح لما سيأتي، بدأت ليليان تبتسم. كان ذاك انقطاعًا عفويًّا، واستجابة لاإرادية تمامًا لحرب الأعصاب التي كانت تتصاعد بينهما. على الرغم من أنها لم تستمرّ أكثر من ثانية أو اثنتين، إلا إنَّ ساكس تشجّع. شعر أن رسالةً ما وصلت، وقدرًا ضئيلًا من التواصل قد تحقق، وعلى الرغم من أنه لم يستطع تحديد نوعه، فقد أحسَّ أن الحالة المِزاجية تغيرت. لم يضيع أيَّ وقت بعد ذلك. اغتنم الفرصة التي أتيحت لتوِّها له، وطلب منها البقاءَ حيث هي، وغادر الغرفة، ثمَّ خرج لجلب النقود من

السيارة. لم يكن هناك جدوى من شرح أسبابه لها. حانتِ اللحظة التي ينبغي بها تقديم الدليل، وإزاحة الأفكار المجردة وترك المال يتحدث عن نفسه. هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلها تصدقه: السماح لها بتلمسه، والسماح لها برؤيته بأم عينيها.

لكن لم يعُد أي شيء بسيطًا الآن. بعد أن فتح صندوق السيارة ونظر إلى الحقيبة مرة أخرى، تردَّد في اقتفاء اندفاعه. طيلة الوقت، كان يتخيل نفسه يعطي المال لها دفعة واحدة: يدخل منزلها، ويسلّم الحقيبة، ثم يخرج. كان من المفترض أن تكون بادرةً سريعةً شبيهةً بالحلم، وفعلًا لا يستغرق وقتًا على الإطلاق. يَهوي مثل ملاك الرحمة ويغمرها بالثروة، وقبل أن تُدركَ وجوده، سيختفي. أما الآن وبعد أن تحدث معها، الآن بعد مواجهتهما في المطبخ، رأى كم كانت تلك القصة الخيالية سخيفة. لقد أخافته عدوانيتها وأضعفت معنوياته، ولم يكن لديه أيّ وسيلة للتنبؤ بما سيحدث بعد ذلك. إذا أعطاها المال دفعة واحدة، فسيخسر أي ميزة لا يزال يتمتع بها عليها. سيكون أي شيء ممكنًا بعد ذلك، أي نوع من التقلبات البشعة قد تلي هذا الخطأ. قد تُهينه برفضها، على سبيل المثال، أو أسوأ من ذلك: أن تأخذ المال ثمَّ تستدير وتتصل بالشرطة. سبق لها أن هدّدت بذلك، وبالنظر إلى عمق غضبها وشكوكها، لم يستبعد منه أن تقدم على ذلك.

عوضًا عن حمل الحقيبة إلى المنزل، أحصى خمسين ورقة نقدية من فئة المائة دولار، ودفع النقود في جيبيْ سترته، ثمَّ أغلق سحاب الحقيبة مرة أخرى وأغلق الصندوق. لم يعد لديه أي فكرةٍ عما كان يفعله بعد الآن. كان عملًا مرتجلًا خالصًا، وقفزةً عمياء نحو المجهول. عندما استدار صوب المنزل مجددًا، رأى ليليان واقفة في المدخل، جسمٌ صغيرٌ مضاءٌ ويداها على وركيها، تراقب باهتمام ما كان يصنع في الشارع الساكن. قطع المرج متيقنًا أن عينيها مثبتتان عليه، منتشيًا فجأة بانعدام يقينه، وبجنون أيًا فظاعة كانت على وشك الحدوث.

عندما وصل إلى قمة الدرج، تحركت جانبًا للسماح له بالدخول ثم أغلقت الباب خلفه. لم ينتظر دعوةً هذه المرة. دخل المطبخ قبل أن تدخل، مشى إلى الطاولة، سحب أحد الكراسي الخشبية المتهالكة، وجلس. بعد لحظة جلست ليليان أمامه. لم يعد هناك المزيد من الابتسامات، ولا مزيد من ومضات الفضول في عينيها. لقد حوّلت وجهها إلى قناع، وبينما كان ينظر إليها بحثًا عن إشارة، بحثًا عن دليل يساعده على البدء، شعر وكأنه يدرس جدارًا. لم تكن هناك طريقةٌ للوصول إليها، ولا سبيل لاختراق ما كانت تفكر فيه. أيٌّ منهما لم يتكلم. أحدهما ينتظر الآخر أن يبدأ، وكلما طالت مدة صمتها بدا أنها تقاومه بعنادٍ أكبر. في مرحلة معينة، أدرك ساكس أنه على وشكِ الاختناق، وأن صرخةً بدأت تتجمع في رئتيه، رفع ساكس ذراعه اليمنى كنس بهدوء كلَّ شيء أمامه إلى الأرض. سقطت الأطباق المتسخة، وأكواب القهوة، ومنافض السجائر، والأواني الفضية بقعقعة عاتية، منكسرةً ومنزلقةً على مشمع الأرضية الأخضر. حدّق مباشرة في عينيها، لكنها لم ترد، وواصلت الجلوس هناك وكأن شيئًا لم يحدث. شعر أنها لحظة سامية؛ لحظة من أجل العصور الغابرة، بينما كانا ينظران إلى بعضهما البعض، أوشك أن يرتجفَ من السعادة الجامحة المنبثقة من خوفه. ثم- دون أن تفوته شاردة- سحب حزمتي النقود من جيبيه وصفعهما على المنضدة، ودفعهما تجاهها.

قال: هذا لكِ. إنه لكِ إذا كنتِ تريدينه.

نظرت إلى النقود لجزء من الثانية لكنها لم تقم بأيِّ خطوة للمسها.

قالت: أوراق مائة دولار. أم أن هذه فقط هي الورقة العلوية؟

- كلها مئات على طول الطريق. تساوي خمسة آلاف دولار.

- خمسة آلاف دولار ليست صفرًا. حتى الأثرياء لن يعطسوا في وجه خمسة آلاف دولار. لكن هذا ليس بالضبط نوعَ المال الذي يغير حياة أي شخص.

- هذه البداية فقط. ما يمكن أن نطلق عليه دفعة أولى.
- فهمت. وما هي الميزانية التي تتحدث عنها؟
- ألف دولار في اليوم، وألف دولار في اليوم بقدر ما يتطلب الأمر.
- وكم يستغرق ذلك؟
- وقتًا طويلًا. فترةٌ كافيةٌ لسداد ديونك وترك وظيفتك. طويلة بما يكفي للابتعاد عن هنا. فترة كافية لتشتري لنفسك سيارة جديدة وثيابًا جديدة. وما إن تنتهي من كل ذلك، سيظل لديكِ أكثر ممّا تعرفين ما تفعلين به.
- وماذا يفترض أن تكون أنت، عرابتي الساحرة؟
- مجرَّد رجل يسدد دينًا، هذا كل شيء.
- وماذا لو أخبرتك أنه يعجبني هذا الترتيب؟ ماذا لو قلت إنَّني أفضّل الحصول على المال دفعة واحدة؟
- كانت تلك هي الخطة الأصلية، لكن الأمور تغيّرت بعد وصولي إلى هنا. نحن الآن على الخطة البديلة.
- اعتقدت أنك تحاول أن تكون لطيفًا معي.
- بالفعل. لكني أريدك أن تكوني لطيفةً معي أيضًا. لو فعلنا ذلك بهذه الطريقة، فهناك فرصة أفضل لإبقاء الأمور متزنة.
- أنت تقول إنك لا تثق بي، أليس كذلك؟
- موقفكِ يجعلني متوترًا بعض الشيء. أنا واثق أنك تفهمين ذلك.
- وماذا يحدث بينما تعطيني هذه الدفعات اليومية؟ هل تحضر كل صباح في ساعة محددة، وتسلم المال، ثمَّ تنقشع، أم أنك تفكر في البقاء لتناول الفطور أيضًا؟
- قلت لكِ آنفًا: لا أريد شيئًا منكِ. تحصلين على المال مجانًا بشكل واضح، ولا تدينين لي بشيء.

- طيب، حسنًا، دعنا نوضح الأمورَ بشكل صحيح، يا شاطر. لا أعرف ما أخبرتك ماريا عني، لكن شرفي ليس للبيع. ليس مقابل أيِّ مبلغ من المال. هل تفهم ذلك؟ لا أحد يجرُّني إلى السرير. أنا أنام مع مَن أريد، وتحتفظ العرابة الساحرة بعصاها لنفسها. هل هذا واضح؟
- أنت تقولين إنني لستُ في خططك، وقد انتهيت للتَّو من إخبارك أنكِ لست في خططي. لا أرى كيف يمكن أن يكون الأمرُ أوضح من ذلك.
- جيد. الآن أعطني بعض الوقت للتفكير في كل هذا. أنا منهكة، ويجب أن أنام.
- ليس عليك التفكير. أنتِ تعرفين الإجابة سلفًا.
- ربما، وربما لا. لكنني لن أتحدث عن ذلك بعد الآن. لقد كان يومًا عصيبًا، وأنا على وشك السقوط. ولكن فقط لأريك كم يمكنني أن أكون لطيفة؛ سأدعك تنام على الأريكة في غرفة المعيشة. من أجل ماريا. هذه المرة فقط. إنه منتصف الليل، ولن تجد فندقًا أبدًا حتى لو بدأت البحث الآن.
- ليس عليكِ القيام بذلك.
- لست مضطرة لفعل أي شيء، لكن هذا لا يعني أنني لا أستطيع. إذا كنت تريد البقاء؛ فابْق. إذا لم تُردْ فلا تفعل. لكن من الأفضل أن تقرر الآن، لأنني ذاهبة إلى النوم.
- أشكركِ، وأقدر لكِ ذلك.
- لا تشكرني، اشكرْ ماريا. غرفة المعيشة مقلوبة. إذا كان هناك شيء ما في طريقك، ما عليك سوى إزاحته. لقد أريتني بالفعل أنك تعرف كيف تقوم بذلك.

- أنا عادة لا ألجأ إلى مثل هذه الأشكال البدائية من التواصل.
- طالما أنك تكفُّ عن التواصل معي هذه الليلة، لا يهمني ما يحدث بالأسفل هنا. أما الطابق العلوي فهو خارج الحدود. هل تفهم؟ هناك مسدس في منضدة سريري الجانبية، وإذا تجوّل أحدٌ خلسةً فسيكون الوقت المناسب لاستخدامه .
- سيكون هذا مثلَ قتل الأوزة التي تبيض ذهبًا.
- لا، لن يكون. قد تكونُ الأوزة، لكن البيض في مكان آخر. كله راقدٌ في صندوق سيارتك، هل تذكر؟ حتى لو قُتلت الإوزة فمازلت أحتفظ بكل البيض الذي أحتاجه.
- هل عدنا إلى التهديد؟
- أنا لا أؤمن بالتهديدات. أنا فقط أطلب منك أن تكون لطيفًا معي، هذا كل شيء. أن تكون لطيفًا للغاية. وألّا تُدخل أي أفكارٍ غريبةٍ في رأسك حول من أكون. إذا لم تفعل ذلك عندها قد نكون قادرين على القيام بصفقةٍ معًا. أنا لا أُقدّم أي وعود، ولكن إذا لم تفشل، فقد أتعلّمُ حتى أن أتوقف عن بغضك.

***

استيقظ في صباح اليوم التالي على أنفاسٍ دافئةٍ تهفهف على خده. عندما فتح عينيه، وجد نفسه ينظر إلى وجه طفلة؛ فتاة صغيرة جامدة في التركيز، تزفر بنعومة من فيها. جثت على ركبتيها بجانب الأريكة، ورأسها دانٍ من رأسه إلى حدٍّ توشك فيه شفتاهما أن تتلامسا. من خُفوتِ الضوء الذي كان يتسلل عبر شعرها، أدرك ساكس أن الساعة كانت السادسة والنصف أو السابعة فقط. نام لمدة تقل عن أربع ساعات، وفي تلك اللحظات الأولى بعد أن فتح عينيه، شعرَ بالخمول والثقل الشديد لدرجة لا تُمكِّنه من تحريك عضلةٍ واحدة. أراد أن يغمض عينيه مرةً أخرى، لكن الفتاة الصغيرة كانت

تراقبه باهتمام شديد؛ لذا واصل التحديق في وجهها، مدركًا تدريجيًّا أن هذه هي ابنة ليليان شتيرن.

«صباح الخير». قالت أخيرًا، مستجيبة لابتسامته كدعوة للحديث. «اعتقدتُ أنك لن تستيقظ أبدًا».

- هل تجلسين هنا منذ زمن طويل؟

- حوالي مائة عام، على ما أعتقد. نزلت للبحث عن دميتي، فرأيتك تنام على الأريكة. أنت رجلٌ طويلٌ جدًّا، هل تعرف ذلك؟

- نعم، أعرف. أنا مَن يسمونه شجرة الفاصوليا العملاقة.

قالت الفتاة بتمعُّن: السيد شجرة الفاصوليا العملاقة. هذا اسمٌ جيد.

- وأراهن أن اسمكِ ماريا، أليس كذلك؟

- بالنسبة لبعض الناس، هو كذلك، لكني أحب أن أسمي نفسي رابونزيل. إنه أجمل بكثير، ألا تعتقد ذلك؟

- أجمل بكثير. وكم عمرك، يا آنسة رابونزيل؟

- خمسة وثلاثة أرباع.

- آه، خمسة وثلاثة أرباع. عمر ممتاز.

- سأكون في السادسة من عمري في كانون الأول. عيد ميلادي هو اليوم التالي لعيد الميلاد.

- هذا يعني أنك تحصلين على الهدايا في يومين على التوالي. لا بد أنك فتاة ذكية لوضع نظام كهذا.

- بعض الناس لديهم كل الحظ. هذا ما تقوله ماما.

- إذا كان عمرك خمسة وثلاثة أرباع، فمن المحتمل أنكِ بدأتِ الدراسة، أليس كذلك؟

- روضة الأطفال. في فصل السيدة وير. غرفة واحد صفر أربعة. يناديها الأطفال السيدة ويرد [غريبة].

- هل تبدو كساحرة؟
- ليس كثيرًا. لا أظن أنها تبلغ من العمر ما يكفي لتكون ساحرة. لكن لها أنف طويل بشكل رهيب.
- ألا يجب أن تستعدي للذهاب إلى روضة الأطفال الآن؟ لا تريدين أن تتأخري.
- ليس اليوم، أيها السخيف. لا توجد مدرسة يوم السبت.
- بالطبع. أنا أخرق أحيانًا، ولا أعرف حتى ما هو اليوم.

كان مستيقظًا في ذلك الوقت، مستيقظًا بدرجة كافية ليشعر بالحاجة إلى الوقوف. سأل الفتاة إذا كانت مهتمةً بتناول الإفطار، ولمّا أجابت أنها تتضور جوعًا، تدحرج من فوره عن الأريكة وارتدى حذاءه، مبتهجًا بوجود هذه الوظيفة الصغيرة أمامه. تناوبا على استخدام الحمام في الطابق السفلي، وبمجرد أن أفرغ ساكس مثانته ورشَّ بعض الماء على وجهه، انتقل إلى المطبخ للبدء. أول شيء رآه هناك كان خمسة آلاف دولار لا تزال راقدةً على الطاولة، في المكان نفسه الذي وضعها فيه الليلة الماضية. حيرّه أن ليليان لم تأخذها معها إلى الطابق العلوي. وتساءل، ألهذا معنًى خفيّ، أم أنه نتيجة إهمالٍ من جانبها حسب؟ لحسن الحظ، كانت ماريا لا تزال في الحمام في ذلك الوقت، وبحلول الوقت الذي انضمت إليه في المطبخ، كان قد رفع النقود من الطاولة ووضعها على رفٍّ في إحدى الخزائن.

حظيَ الفطور ببداية متداعية. الحليب في الثلاجة صار حامضًا؛ ما قضى على إمكانية تناول حبوب الإفطار، وبما أن مخزونَ البيض قد استنفد أيضًا، لم يكن قادرًا على صنع الخبز الفرنسي المحمص أو عجة البيض. ومع ذلك، تمكن من العثور على حزمة من شرائح خبز القمح الكامل، وما إن تخلص من القطع الأربع العلوية، التي توزع عليها عفنٌ ضارب إلى الزرقة، حتى استقرّا على وجبة من الخبز المحمص ومربى الفراولة. أثناء تسخين الخبز في

المحمصة، اكتشف ساكس علبةً من عصير البرتقال المجمد مغطاةً بالثلج في الجزء الخلفي من الفريزر، وخلطه في إبريق بلاستيكي- كان عليه غسله أولًا- وقدّمه مع الطعام. لم تكن هناك قهوة حقيقية في متناول اليد، ولكن بعد بحث مستفيض في الخزائن، اكتشف أخيرًا جرة من القهوة منزوعة الكافيين. وبينما كان يشرب الخليط المر، كان يصنع وجوهًا غريبة ويمسك برقبته. ضحكت ماريا من العرض، ما ألهمه بالتأرجح في أرجاء الغرفة وإصدار سلسلة من الأصوات الشديدة المختنقة. همس، وهو يغوص ببطء إلى الأرض، «السم، لقد سممني الأوغاد» هذا جعلها تضحك أكثر، ولكن ما إن انتهت اللعبة، وجلس على كرسيه مرة أخرى، سرعان ما تلاشت التسلية، ولاحظ نظرةً مكدَّرةً في عينيها.

قال: كنت أتظاهر فقط.

قالت: أعلم. كل ما في الأمر أنني لا أحب أن يموت الناس.

عندها فهمَ خطأه، لكن الوقت كان فات على جبر الضرر.

قال: لن أموت.

- بلى ستفعل. الجميع يجب أن يموت.
- لا أقصد اليوم. وليس غدًا أيضًا. سأكون هنا لفترة طويلة قادمة.
- هل هذا هو سبب نومك على الأريكة؟ هل ستعيش معنا الآن؟
- لا أعتقد ذلك. لكنني هنا لأكون صديقًا لك ولأمك أيضًا.
- هل أنت رجل ماما الجديد؟
- لا، أنا فقط صديقها. إن سمحت لي؛ فسوف أساعدها.
- هذا جيد. إنها بحاجة إلى شخص ما يساعدها. إنهم يضعون بابا في الأرض اليوم، وهي حزينةٌ جدًّا.
- هل هذا ما قالته لك؟
- لا، لكنني رأيتها تبكي. هكذا أعرف أنها حزينة.

- هل أنتما ذاهبتان إلى هناك اليوم؟ لمشاهدتهم وهم يضعون والدك في الأرض؟
- لا، لن يسمحوا لنا. قال الجد والجدة إننا لا نستطيع.
- وأين يعيش جدك وجدتك؟ هنا في كاليفورنيا؟
- لا أعتقد ذلك. إنهما في مكان ما بعيد. عليك صعود طائرة للوصول إلى هناك.
- في مكان ما في الشرق، ربما.
- إنها تسمى ميبلوود. لا أعرف مكانها.
- ميبلوود، نيو جيرسي؟
- لا أعرف. إنها بعيدة جدًّا. كلما تحدث والدي عنها، قال إنها في نهاية العالم.
- يحزنك أن تفكري في والدك، أليس كذلك؟
- لا يمكنني منع ذلك. قالت أمي إنه لم يعُد يحبنا، لكن لا يهمني، أتمنى أن يعود.
- أنا متأكد من رغبته في ذلك.
- هذا ما أعتقده. لكنه لم يكن قادرًا، هذا كل شيء. حصل له حادث، وبدلًا من العودة إلينا، صار عليه أن يذهب إلى الجنة.

كانت صغيرة للغاية، فكّر ساكس، ومع ذلك تمكنت من التعامل مع الأمر برباطة جأشٍ مخيفةٍ تقريبًا، وعيناها الصغيرتان الشرستان تحفران بثبات فيه كلما تحدثت. لا تتزعزع، دون أدنى هزةٍ من ارتباك. أدهشه أنها تستطيع تقليد أساليب البالغين بشكل جيد؛ فتُظهر أنها رصينةٌ بينما هي في الحقيقة لا تعرف شيئًا. لا تعرف شيئًا على الإطلاق. أشفق عليها بسبب شجاعتها، على البطولة الزائفة في وجهها المشرق والصادق، وتمنى أن يستعيد كل ما قاله ويُعيدها طفلةً مرة أخرى، شيء آخر غير هذه الناضجة المنمنمة المثيرة

للشفقة بأسنانها الساقطة ومشبك الشعر ذو الشرائط الصفراء التي تتدلى من شعرها المجعد.

بينما كانا يقضيان على آخر شظايا الخبز المحمص، رأى ساكس في ساعة المطبخ أنه لم تمض على السابعة والنصف إلا بضع دقائق. سأل ماريا إلى متى تعتقد أن والدتها ستستمر في النوم، وعندما قالت إن الأمر قد يستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات أخرى، خطرت له فكرة. قال، دعينا نخطط لمفاجأة لها. إذا بدأنا الآن، فقد نتمكن من تنظيف الطابق السفلي بالكامل قبل أن تستيقظ. ألن يكون ذلك لطيفًا؟ ستأتي إلى هنا وتجد كل شيءٍ أنيقًا ومتألقًا. هذا لا بد أن يجعلها تشعر بتحسن، ألا تعتقدين ذلك؟ ظنت الفتاة الصغيرة ذلك. أكثر من ذلك؛ فقد بدت متحمسة للفكرة، كما لو أنها ارتاحت لعلمها أن شخصًا ما تدخّل أخيرًا لإدارة الأمور. قال ساكس، ولكن علينا أن نفعل بهدوء، واضعًا أصبعه على شفتيه. مثل هدوء العفاريت الصغار.

لذلك شرع الاثنان في العمل، يتحركان في المطبخ بتناغم سريعٍ وصامتٍ حيث نظفا الطاولة، وأزالا الأواني الخزفية المكسورة من الأرض، وامتلأت المغسلة بالرغوة الدافئة. من أجل الحد من الصخب كشطا الأطباق بأصابعهما العارية، وملطخين أيديهما بالقمامة أثناء إلقاء الطعام غير المأكول والسجائر المسحوقة في كيس ورقي. كان عملًا فظيعًا، وقد ضمّنا اشمئزازهما في إخراج ألسنتهما والتظاهر بالتقيّؤ. مع ذلك، قامت ماريا بدورها، وما إن أصبح المطبخ في حالة معقولة خرجت إلى غرفة المعيشة بحماس لم يفتر، متلهفةً للمضي قُدمًا في المهمة التالية. كانت الساعة تقترب من التاسعة بحلول ذلك الوقت، وضوء الشمس يتدفق عبر النوافذ الأمامية، ما يضيءُ آثار الغبار في الهواء. أثناء فحصهما للفوضى التي أمامهما، ومناقشة أفضل السبل لمهاجمتها، غزتْ نظرة توجّس وجهَ ماريا. دون أن تنطق بكلمة واحدة، رفعت ذراعها وأشارت إلى إحدى النوافذ. استدار ساكس، ورآه أيضًا بعد لحظة:

رجلٌ يقف على العشب ويستطلع المنزل. كان يرتدي ربطة عنق بمربعات وسترةً بُنيّةً من القطيفة. شاب ذو شَعر تهاوى قبل الأوان بدا وكأنه يحدّث نفسه في صعود الدرج وقرع الجرس. ربّت ساكس على رأس ماريا وطلب منها أن تعود إلى المطبخ وتصبّ لنفسها كأسًا آخر من العصير. بدت وكأنها على وشك الرفض، ولكنها بعد ذلك، غير راغبةٍ في خذلانه، أومأت برأسها وفعلت على مضض ما قيل لها. شقّ طريقه بعد ذلك عبر غرفة المعيشة إلى الباب الأمامي، وفتحه بهدوءٍ قدر استطاعته، وخطا إلى الخارج.

بادره: أهناك شيء يمكنني القيام به من أجلك؟

أجاب الرجل: توم مولر. سان فرانسيسكو كرونيكل. أتساءل إذا كان بإمكاني التحدث مع السيدة ديماجيو.

- آسف. إنها لا تجري أي مقابلات.
- لا أريد مقابلة، أريد فقط أن أتحدث إليها. صحيفتي مهتمةٌ بسماع روايتها من القصة. نحن على استعداد لدفع ثمن مقال حصري.
- آسف، لا جدوى. السيدة ديماجيو لا تتحدث مع أي شخص.
- ألا تعتقد أنه يجب أن تتاح للسيدة فرصة ردّي بنفسها؟
- لا، لا أعتقد ذلك.
- ومَن أنت، وكيل السيدة ديماجيو الصحافي؟
- صديق للعائلة.
- فهمت. وأنت مَن تتحدث بالنيابة عنها.
- هذا صحيح. أنا هنا لحمايتها من أشخاص مثلك. طالما قمنا بالإجابة عن هذا السؤال، أعتقد أن الوقت قد حان لتغادر.
- وكيف تقترح أن أتواصل معها؟
- يمكنك أن تكتب لها رسالة. هكذا يتم ذلك بشكل عام.

- فكرة جيدة. سأكتب لها خطابًا، وبعد ذلك يمكنك التخلص منه قبل أن تقرأه هي.
- الحياة مليئة بالخيبات، يا سيد مولر. والآن لو سمحت، أعتقد أن الوقت قد حان لكي تكون في طريقك. أنا متأكد من أنك لا تريدني أن أتصل بالشرطة. لكنك تقف على ممتلكات السيدة ديماجيو، كما تعلم.
- نعم، أعرف. شكرًا جزيلًا يا صديقي. لقد قدمتَ مساعدةً رائعة.
- لا تشعر بالسوء. كل هذا سيمرق. في غضون أسبوع آخر، لن يكون هناك شخص في سان فرانسيسكو يمكنه تذكُّر ما كانت القصة. إذا ذكر شخص ما ديماجيو أمامهم، فإن الشخص الوحيد الذي سيفكرون فيه هو «جو[1]».

خُتمت بذلك المحادثة، ولكن حتى بعد أن غادر مولر الفناء، بقي ساكس واقفًا أمام الباب، مصممًا على عدم التحرك حتى رأى الرجل وهو يقود سيارته مبتعدًا. عبر المراسل الشارع، وصعد إلى سيارته، وشغل المحرك. كإيماءة وداع، رفع وسطى يده اليمنى بينما كان يبتعد بسيارته عن المنزل، لكن ساكس تجاهل الإشارة الفاحشة، مدركًا أنها ليست بشيء، وأنها تثبت فقط مدى حسن إدارته للمواجهة. عندما استدار عائدًا إلى الداخل، لم يستطع إلا أن يتبسّم لغضب الرجل. لم يكن يبدو وكأنه مراسلٌ قدرَ ما يُشعرك أنه مارشال البلدة، وفي نهاية المطاف، لم يكن شعورًا مزعجًا تمامًا.

في اللحظة التي دخل فيها المنزل مرة أخرى، نظر إلى الأعلى فرأى ليليان واقفة في أعلى الدرج. كانت ترتدي روبًا من القماش الأبيض، شعثاء منتفخة العينين، وتكافح لطرد النوم من جسدها.

---

(1) لاعب كرة قاعدة شهير راحل. (المترجم)

قالت، وهي تمرر يدَها عبر شعرها القصير: «أعتقد أنني يجب أن أشكرك على ذلك».

«شكرًا لي على ماذا؟»، قال ساكس متظاهرًا بالجهل.

- للتخلص من هذا الرجل. كنت سلسًا جدًّا حيال ذلك. لقد تأثرت.

- ذاك؟ عذرًا. ذاك لا شيء، يا سيدتي. أنا فقط أقوم بعملي، هذا كل شيء. فقط أقوم بعملي.

ابتسمت لفترة وجيزة على ردّه الذي خلطه بغُنَّةٍ ريفية.

- إذا كانت هذه هي الوظيفة التي تريدها فعندئذ يمكنك الحصول عليها. أنت أفضل منّي بكثير فيها.

قال وهو يتحدث بصوته الطبيعي مرة أخرى: «قلتُ لكِ إنني لست سيئًا تمامًا. لو منحتِني فرصة فقد تكتشفين أني مفيد».

قبل أن تتمكن من الرد على هذه الملاحظة الأخيرة، جاءت ماريا راكضة إلى الرواق. حوّلت ليليان عينيها بعيدًا عن ساكس، وقالت، «مرحبًا حبيبي. استيقظتِ باكرًا، أليس كذلك؟». قالت الفتاة الصغيرة: «لن تحزري أبدًا ما كنا نفعله. لن تصدق عينيك يا ماما».

- سأنزل في غضون دقائق. يجب أن أستحمَّ أولًا ثمَّ أرتدي بعض الملابس. تذكّري، نحن اليوم ذاهبتان إلى منزل بيلي ودوت، ولا نريد أن نتأخر.

اختفت مرة أخرى في الطابق العلوي، وفي غضون الثلاثين أو الأربعين دقيقة التي استغرقتها في الاستعداد، استأنف ساكس وماريا هجومهما على غرفة المعيشة. أنقذا النضائد والوسائد من الأرض، وألقيا الصحف والمجلات المبللة بالقهوة، وشفطا رماد السجائر من السجادة الصوفية. وكلما زاد عدد المناطق التي تمكنا من مسحها- مع منح أنفسهما مساحة أكبر للتحرك فيها بشكل تدريجي- زادت سرعتهما في العمل، واقترابًا من النهاية، صارا يشبهان شخصيتين معجّلتين في فيلمٍ بالأبيض والأسود.

كان من الصعب على ليليان ألا تلاحظ التغيّر، ولكن بمجرد نزولها إلى الطابق السفلي، استجابت بحماسٍ أقل مما توقعهُ ساكس. ولو من أجل ماريا فقط. قالت، وهي تتوقف لبرهة عند العتبة وتومئ برأسها: «لطيف. لطيف للغاية. عليّ أن أنام متأخرةً أكثر». ابتسمت، وأبدت امتنانها المحدود، وبعد ذلك، دون تجشم عناء التطلع من حولها، اتجهت إلى المطبخ للبحث عن شيء تأكله.

تلطف شعور ساكس قليلًا من القبلة التي زرعَتها على جبين ابنتها، ولكن ما إن أرسلت ماريا إلى الطابق العلوي لتغيّر ثيابها، لم يعد يعرف ماذا يفعل بنفسه بعد ذلك. لم تعطه ليليان سوى أقل قدرٍ من الاهتمام؛ حيث تنقّلت في المطبخ ضمن عالمها الخاص، لذا تسمّر في مكانه عند المدخل، واقفًا هناك في صمت بينما كانت تُخرج كيس قهوة حقيقية من الفريزر، حيث لم يتمكن من ملاحظته، ووضعت غلاية ماء على الموقد. كانت ترتدي ثيابًا غير رسمية: بنطالًا داكنًا، وكنزة بيضاء ذات قبة عالية، وحذاءًا مسطحًا. لكنها كانت تضع أحمر شفاه وظلال عيون، وكانت هناك رائحة عطر واضحة في الهواء. مرة أخرى، لم يكن لدى ساكس أي فكرة عن كيفية تفسير ما يحدث. لا يمكنه سبر غور سلوكها؛ في لحظةٍ تكونُ ودودة، وفي لحظةٍ أخرى منغلقةً على نفسها، حذرةً في لحظة، مشتتةً في لحظة أخرى، وكلما حاول فهم شيء منه؛ قلّ فهمه.

في النهاية، دعته إلى فنجان قهوة، لكنها حتى حينها بالكاد تحدثت، واستمرت في التصرف وكأنها غير متأكدة مما إذا كانت تريده أن يظل هناك أم يختفي. في سبيل إيجاد شيء لإطلاق حوار، بدأ يتحدث عن الخمسة آلاف دولار التي وجدها على المنضدة في ذلك الصباح، ففتح الخزانة وأشار إلى المكان الذي وضع فيه المال. لا يبدو أنه كان له تأثير كبير عليها. لم تزد سوى أن قالت: «أوه» وهي تومئ برأسها عندما رأت النقود، ثمَّ استدارت ونظرت من النافذة إلى الفناء الخلفي، وشربت قهوتها في صمت. غير متأثّرٍ، وضع ساكس فنجانه وأعلن أنه سيعطيها دفعة اليوم. دون انتظار إجابة،

خرج إلى سيارته وجمع النقود من كيس البولينج في صندوق السيارة. عندما عاد إلى المطبخ بعد ثلاث أو أربع دقائق، كانت لا تزال تقف في نفس الوضع، وتحدق من النافذة، بيدٍ واحدةٍ على وركها، مُتابِعةً بعض الأفكار الخافية. سار نحوها مباشرة، خفق الألف دولار أمام وجهها، وسألها أين يجب أن يضعها. قالت حيثما تريد. بدأت سلبيتها تثير أعصابه، فبدلًا من وضع النقود على المنضدة توجَّه ساكس نحو الثلاجة، وفتح الباب العلوي، وألقى بالأوراق في الفريزر. أتى الفعل بنتيجته المرجوة. التفتت إليه بنظرة حيرة على وجهها وسألته لماذا فعل ذلك. وبدلًا من الرد عليها، عاد إلى الخزانة، ورفع الخمسة آلاف دولار الأولى من الرف، ووضع تلك الحزمة في الفريزر أيضًا. ثم، وهو يربِّت على باب الفريزر، التفت إليها وقال: «أصول مجمدة. بما أنك لن تخبريني إن كنت تريد المال أم لا، سنضع مستقبلك في الجليد. جيد إلى حد ما، أليس كذلك؟ سوف ندخر مالك في الثلج، وعندما يحلّ الربيع ويبدأ الجليد في الذوبان، ستُلقين نظرةً هنا وتكتشفين أنك غنية».

بدأت ابتسامة غامضة تتشكل في زوايا فمها، ما يشير إلى أنها أوهنت، وأنه نجح في جذبها إلى اللعبة. تناولتْ رشفة أخرى من القهوة، واشترت لنفسها القليل من الوقت بينما كانت تُعِدُّ ردّها. قالت أخيرًا: لا يبدو هذا استثمارًا جيدًا بالنسبة لي، إذا كان المال موجودًا هناك، فلن يجمع أي فائدة، أليس كذلك؟

- أخشى أنه لن يفعل. لن تكون هناك فوائد حتى تبدئي في الاهتمام. بعد ذلك، السماء هي الحد الأقصى.
- لم أقل إنني غير مهتمة.
- صحيح. لكنك أيضًا لم تقولي إنك مهتمة.
- طالما أنني لا أقول لا، فمن الجائز أنني أقول نعم.

- أو ربما لا تقولين شيئًا. لهذا السبب لا ينبغي لنا الحديث عن الأمر بعد الآن. حتى تعرفي ما تريدين فعله، سنُبقي أفواهنا مغلقة، اتفقنا؟ سوف نتظاهر بأن ذلك لن يحدث.

- هذا يناسبني.

- جيد. بعبارة أخرى، كلما قل الكلام فهو أفضل.

- لن نقول كلمة واحدة. وفي يوم من الأيام سأفتح عينيّ، ولن تكون هناك بعدها.

- بالضبط. سوف يزحف الجني مرة أخرى إلى زجاجته، ولن تضطري أبدًا إلى التفكير به مرة أخرى.

يبدو أن إستراتيجيته نجحت، ولكن بخلاف التسبب في تغيرٍ عامٍّ في الحالة المزاجية، كان من الصعب معرفة ما أنجزته هذه المحادثة. عندما أتت ماريا تتقافز إلى المطبخ بعد لحظات قليلة، مرتدية سترة من اللونين الوردي والأبيض وحذاءً من الجلد اللامع، اكتشف أنها أنجزت الكثير. لاهثةً ومتحمسةً، سألت أمها عما إذا كان ساكس سيذهب معهم إلى منزل بيلي ودوت. أجابت ليليان «لا، لن يأتي»، وكان ساكس على وشك أن يأخذ ذلك كإشارة لركوب سيارته والبحث عن نزل عندما أضافت ليليان أنه على الرغم من ذلك فهو مرحب به للبقاء، لأنه نظرًا لأنها ستغادر هي وماريا حتى وقت متأخر من تلك الليلة؛ فلا سبب للتعجيل بمغادرته المنزل. قالت إنه يمكنه الاستحمام والحلاقة إذا أراد ذلك، وطالما أنه يغلق الباب خلفه بقوة ويتأكد من أنه مقفول؛ فلا يهم متى يغادر. لم يعرف ساكس بالكاد كيفية الرد على هذا العرض. قبل أن يفكر في أي شيء يقوله، كانت ليليان قد حثّت ماريا على الدخول إلى الحمام في الطابق السفلي لتمشيط شعرها، وبحلول الوقت الذي خرجتا فيه مرة أخرى، كان من المؤكد أنهما ستخرجان قبله. كل هذا عدّه ساكس لافتًا، وتحوُّلًا يتحدى الفهم. ولكن ها هو ذا،

وكان آخر ما يود القيام به هو الاعتراض. بعد أقل من خمس دقائق، خرجت ليليان وماريا من الباب الأمامي، وبعد أقل من دقيقة من ذلك، غادرتا تذرعان الشارع بسيارتهما الهوندا الزرقاء الكالحة، واختفتا في شمس منتصف النهار الساطعة.

***

أمضى ما يقرب من ساعة في الحمام في الطابق العلوي؛ ينتقع أولًا في حوض الاستحمام، ثمَّ يحلق أمام المرآة. أدرك أن وجوده هناك شاذٌّ برمته؛ مستلقيًا عاريًا في الماء وهو يحدق في أغراض ليليان: عبوات الكريمات والمستحضرات التي لا حصر لها، وأوعية أحمر الشفاه وعبوات تحديد العيون، والمنظفات وملمع الأظافر والعطور. كان في الأمر حميمة قسرية أثارته وصدّته في آن. سُمح له بالدخول إلى عالمها السري، المكان الذي مارست فيه طقوسها الأكثر خصوصية، ومع ذلك، حتى هنا، وهو جالس في قلب مملكتها، لم يكن أقرب إليها مما كان عليه من قبل. يمكنه الشم والفحص ولمس كل ما يودّ. يمكنه أن يغسل شعره بشامبوها، ويحلق لحيته بشفرتها، ويغسل أسنانه بفرشاتها، ومع ذلك فإن سماحها له بفعل هذه الأمور لا تثبت إلا ضآلته في عينها.

مع ذلك، فقد ساعد الاستحمام في استرخائه، وجعله ميالًا قليلًا إلى النعاس، ولعدة دقائق كان يتجول داخل غرف الطابق العلوي ويخرج منها، ويجفف شعره بمنشفة وهو شارد الفكر. هناك ثلاث غرف نوم صغيرة في الطابق الثاني؛ واحدة منها لماريا، والأخرى لليليان، والثالثة، بالكاد أكبر من خزانة كبيرة، كان من الواضح أنها بمثابة غرفة دراسة أو مكتب ديماجيو. تأثث بمكتب وخزانة كتب، ولكن حُشرت كثير من الخردة في حدوده الضيقة: صناديق من الورق المقوى، وأكوام من الملابس والألعاب القديمة، وجهاز تلفزيون أبيض وأسود. فلمْ يُكلّف ساكس نفسه أكثر من مدّ وجهه هناك قبل إغلاق الباب مرة أخرى. ذهب بعد ذلك إلى غرفة ماريا، يقلّب

بين دُماها وقصصها، وصورها في الحضانة على الحائط، وألعابها والحيوانات المحشوة. على الرغم من اضطراب الغرفة، إلا أنها بدتْ في حالٍ أفضل من غرفة ليليان. تلك كانت عاصمة الفوضى، ومقر الكارثة الرئيس. لاحظ السرير غير المرتب، وكتل الملابس والملابس الداخلية المهملة، والتلفاز المحمول المتوج بفنجانيْ قهوة ملطخين بأحمر الشفاه، والكتب والمجلات المبعثرة على الأرض. مرّ ببصره على بعض العناوين عند قدميه: دليلٌ مصوّر للتدليك الشرقي، ودراسة عن التناسخ، وروايتان بوليسيتان بغلاف ورقي، وسيرة لويز بروكس الذاتية. وتساءل عما إذا أمكن استخلاص أي استنتاجات من هذه المجموعة. ثم، في شبه نشوة، بدأ في فتح أدراج المكتب والنظر في ملابس ليليان، متفحصًا سراويلها الداخلية وحمّالاتها وجواربها وسواها، ممسكًا بكل قطعة في يده للحظة قبل الانتقال إلى التالية. بعد أن فعل الشيء نفسه مع الأشياء الموجودة في الخزانة، حوّل انتباهه إلى الطاولات على جانبي السرير، مستذكرًا فجأة التهديد الذي وجهته إليه في الليلة السابقة. بعد أن نظر فيهما، خلُص إلى أنها كانت تكذب. لم يكن هناك أي مسدس ليُعثر عليه في أي مكان.

فصلتْ ليليان الهاتف، وفي اللحظة التي وصله فيها إلى مقبس الجدار، بدأ يرن. أجفله الصوت، ولكن بدلًا من رفع السماعة عن الخطاف، جلس على السرير وانتظر استسلام المتصل. رنَّ الهاتف ثمانية عشر أو عشرين مرة أخرى. وما إن توقف، أمسك ساكس بالسماعة واتصل برقم ماريا تيرنر في نيويورك. الآن وبعد أن تحدثت إلى ليليان، لم يعُد بإمكانه تأجيل مهاتفتها. لم يتعلق الأمر فقط بتنقية الأجواء بينهما، بل يتركز على إراحة ضميره. لو لم يكن هناك سبب آخر، فهو مدين لها بتفسير، واعتذار لأنه هرب منها بالطريقة التي فعلها.

كان يعلم أنها ستكون غاضبة، لكنه لم يكن مستعدًّا لسيل الإهانات الذي انهمر عليه. في اللحظة التي سمعت فيها صوته، انهالت عليه بالشتائم: أحمق، نذل، مخادع. لم يسمعها توجّه مثل هذا الكلام من قبل، لا لأحد، ولا تحت أي ظرف، وثار غضبها كبيرًا، وهائلًا، حتى إنه مرت عدة دقائق قبل أن تسمح له بالتحدث. أُهين ساكس وأُذِلّ، بينما كان يقبع هناك منصتًا إليها، وأدرك أخيرًا ما كان أغبى من أن يستوعبه في نيويورك. ماريا وقعت في حبه، وبغض النظر عن كل الأسباب المباشرة لهجومها (رحيله المفاجئ، نكرانه المهين لجميلها عليه)، كانت تتحدث معه كعاشقة مهجورة، وامرأة تخلى عنها من أجل أخرى. وما زاد الطين بلة أنها تخيّلت أن تلك الأخرى هي أعزُّ صديقاتها. صارع ساكس في سبيل تخليصها من هذه الفكرة. قال لها إنه ذهب إلى كاليفورنيا لأسباب خاصة به، وإن ليليان لا تعني له شيئًا، وإنه لا يقوم بما اعتقدته، وما إلى ذلك. إلا أنه قام بذلك بطريقة خرقاء؛ فاتّهمته ماريا بالكذب. كانت المحادثة تنحدرُ لتصبح قبيحة، لكن ساكس نجح بطريقة ما في تجنب الرد عليها، وفي النهاية انتصر إباء ماريا على غضبها، ما يعني أنها لم تعُد ترغب في متابعة إهانته؛ فبدأت تضحك عليه بدلًا من ذلك، أو ربما تضحك على نفسها، وبعد ذلك، دون أي سبب واضح، انقلب الضحك إلى البكاء؛ نوبةٌ من النحيب الفظيع الذي جعله يشعر بالبؤس مثلها تمامًا.

استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تمرَّ العاصفة، ولكنهما بعد ذلك تمكنا من التحدث. لا يعني ذلك أن الحديث قادهما إلى أي مكان، ولكنه بالحد الأدنى دفع الحقد. أرادته ماريا أن يتصل بفاني- لإعلامها فقط بأنه على قيد الحياة- لكن ساكس لم يرغب ذلك. قال إن الاتصال بها سيكون محفوفًا بالمخاطر؛ فما إن يبدأ الحديث سيضطر إلى إخبارها عن ديباجيو، وهو لا يريد توريطها في أيٍّ من مشاكله. كلما قلّت معرفتها، كانت أكثر أمانًا، ثم ما الداعي إلى جرِّها إلى المسألة عندما لا يكون ذلك ضروريًّا؟ أكدت ماريا أنه الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله. أعاد ساكس حججه مرة أخرى،

واستمرًّا في التحدث في دوائر خلال نصف الساعة التالية، ولم يتمكن أي منهما من إقناع الآخر. لم يعد هناك صواب أو خطأ، فقط الآراء والنظريات والتفسيرات، مستنقعٌ من الكلمات المتضاربة. ولأنها لم تُجدِ نفعًا؛ كان من الأجدر بهما الاحتفاظ بالكلمات لنفسيهما.

قالت ماريا أخيرًا: لا فائدة. صوتي لا يصل إليك، أليس كذلك؟

أجاب ساكس: أنا أسمعكِ، ولكنني لا أتفق معه ما تقولينه فقط.

- لن تفلح إلا في تعقيد الأمور بالنسبة لك يا بن. كلما احتفظت بها لنفسك، يصير الحديث عنها أصعب عندما تضطر لذلك.
- لن أضطر للتحدث أبدًا.
- لا يمكنك معرفة ذلك. قد يجدونك، وبعد ذلك لن يعود لديك أي خيار.
- لن يجدوني أبدًا. الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يحدث بها ذلك هي أن يشي بي أحدهم، وأنتِ لن تفعل ذلك بي. على الأقل لا أعتقد أنك ستفعلين ذلك. أيمكنني أن أثق بك بهذا القدر؟
- يمكنك الوثوق بي. لكنني لست الشخص الوحيد الذي يعرف. ليليان مشتركة أيضًا فيه الآن، ولست متأكدة أنها جيدة في الاحتفاظ بالوعود مثلي.
- لن تتحدث. من غير المنطقي لها أن تتحدث. حينئذ ستخسر الكثير.
- لا تعتمد على المنطق عندما تتعامل مع ليليان. إنها لا تفكر مثلك، ولا تلتزم بقواعدك. إذا لم تكن قد فهمت ذلك بعد، فأنت تسعى خلف مشكلة.
- المشاكل هي كل ما لدي على أي حال. المزيد لن يؤذيني.
- غادرْ فورًا يا بن. لا يهمني إلى أين تذهب أو ماذا تفعل، لكن اركب سيارتك وابتعد عن ذلك المنزل. الآن، قبل أن تعود ليليان.

- لا يمكنني فعل ذلك. لقد بدأتُ بالفعل هذا الشيء، ولا بد لي من المضي فيه حتى النهاية. لا توجد طريقة أخرى. هذه فرصتي، ولا يمكنني إفسادها بالخوف.
- سوف تُغرقك.
- هذا ما أنا عليه الآن. بيت القصيد هو الخروج من القاع.
- هناك طرق أبسط.
- ليس بالنسبة لي.

كان هناك وقفة طويلة على الطرف الآخر، التقاط أنفاس، وقفة أخرى. عندما تحدثت ماريا مجددًا، كان صوتها يرتجف.

- أحاول أن أقرر ما إذا كان عليّ أن أشفق عليك أو أفتح فمي وأصرخ.
- ليس عليكِ القيام بأيٍّ منهما.
- بلى، لا أعتقد أن علي أفعل. يمكنني أن أنسى كل شيء يخصك، أليس كذلك؟ هناك دومًا هذا الخيار.
- يمكنك أن تفعلي ما تشائين، يا ماريا.
- صحيح. وإذا كنت تريد الانزلاق إلى القاع فهذا شأنك. لكن تذكر فقط أنني أخبرتك بذلك. حسنًا؟ فقط تذكر أنني حاولت التحدث معك كصديق.

اهتزَّ بشدة بعد أن أغلقت المكالمة. كلمات ماريا الأخيرة كانت نوعًا من الوداع، إعلان أنها لم تعُد معه. لا يهم ما الذي أدى إلى الخلاف: هل هو بدافع الغيرة أو القلق الصادق أو مزيج من الاثنين. كانت النتيجة أنه لن يكون قادرًا على اللجوء إليها بعد الآن. حتى لو لم تقصد أنها لا ترحبُ بالسماع منه مرة أخرى، فقد تركت المحادثة وراءها الكثير من الغيوم وتبدُّد اليقين. كيف يمكن أن يلجأ إليها لطلب الدعم في حين أن الحديث معها قد يسبب لها الألم؟ لم يكن ينوي الذهابَ إلى هذا الحد، ولكن بعد أن قيلت الكلمات،

أدرك أنه فقد أفضل حليف له، الشخص الوحيد الذي كان يمكن الاعتماد عليه للمساعدة. لقد كان في كاليفورنيا لما يزيد قليلًا عن يوم، وها هي جسوره بالفعل تحترق خلفه.

كان بوسعه جبرُ الضرر بمعاودة الاتصال بها، ولكنه لم يفعل. وعوضًا عنه، عاد إلى الحمام وارتدى ملابسه، ومشط شعرَه بفرشاة ليليان، وقضى ثماني ساعات ونصف الساعة التالية في تنظيف المنزل. بين الحين والآخر، كان يتوقف قليلًا لتناول وجبة خفيفة، ماسحًا الثلاجة وخزائن المطبخ بحثًا عن شيء صالح للأكل)حساء معلب، وسجق الكبدة، والمكسرات(، ولكن بخلاف ذلك التزم بمهمّته، واجتهد دون توقف حتى تجاوزت الساعة التاسعة. كان هدفه جعل المنزل نظيفًا، وتحويله إلى نموذج للسكينة والهدوء. بالطبع، لم يكن بإمكانه فعل أي شيء حيالَ الأثاث المتهالك، أو الأسقف المتصدعة في غرف النوم، أو المينا الصدئة في الأحواض، لكنه على الأقل يمكنه تنظيف المكان. كان يعالج غرفة واحدة في كل مرة، يمسحها ويزيل الغبارَ وينظفها ويعيد ترتيبها، سائرًا بشكل منهجي من الخلف إلى الأمام، ومن الطابق الأول إلى الطابق الثاني، من فوضى كبيرة إلى صغيرة. غسل المراحيض، وأعاد ترتيب الأواني الفضية، وطوى الملابس ووضعها بعيدًا، وجمع قطع ألعاب التركيب، وأواني أطقم الشاي المصغرة، وأطراف الدمى البلاستيكية المبتورة. أخيرًا، أصلح أرجل طاولة غرفة الطعام، وأعادها إلى مكانها بمجموعة من المسامير والبراغي وجدها في أسفل درج المطبخ. الغرفة الوحيدة التي لم يلمسها كانت مكتب ديماجيو. كان مترددًا في فتح الباب مرة أخرى، ولكن حتى لو أراد الدخول إلى هناك، فلن يعرف ماذا يفعل بكل الحطام. كان الوقت ينفد بحلول ذلك الوقت، ولم يكن لينهي المهمة.

كان يعلم أنه عليه المغادرة. أوضحت ليليان أنها ترغب بخروجه من المنزل قبل أن تعود، ولكن بدلًا من القيادة للبحث عن فندق، عاد إلى غرفة المعيشة، وخلع حذاءه، واستلقى على الأريكة. أراد أن يستريح لبضع دقائق فقط. لقد كان متعبًا من العمل الذي أنجزه، ولم يبدُ أن هناك أي ضررٍ في التباطؤ. ومع ذلك، بحلول الساعة العاشرة مساءً، لم يكن قد تحرك صوب الباب الأمامي. كان يعلم أنّ تجاوُز ليليان يمكن أن يكون خطيرًا، لكن فكرة الخروج في الليل ملأته بالرعب. كان المنزل يشعره بالأمان أكثر من أي مكان آخر، وحتى إذا لم يكن لديه الحق في أخذ هذه الحرية، فقد توهم أنه قد لا يكون أمرًا سيئًا بالنسبة لها أن تدخل وتجده هناك. ربما ستصاب بالصدمة، ولكن في الوقت نفسه ستتحقق نقطة مهمة، النقطة الوحيدة التي يجب إبرازها فوق كل النقاط الأخرى. سترى أن لا سبيل للخلاص منه، وأنه كان بالفعل حقيقة لا مفرَّ منها في حياتها. اعتمادًا على ردها؛ سيكون قادرًا على الحكم ما إذا كانت تفهم ذلك أم لا.

خطته هي التظاهر بالنوم عند وصولها. لكن ليليان عادت إلى المنزل في وقت متأخر، بعد وقت طويل من الساعة التي ذكرتها في ذلك الصباح، وبحلول ذلك الوقت كانت عينا ساكس قد غفتا ونام بالفعل. تلك زلة لا تغتفر- وهو ممدَّد على الأريكة وكل الأضواء مشتعلة من حوله- ولكن في النهاية لم يبدُ الأمر مهمًّا. أجفله صوت صفق الباب في الساعة الواحدة والنصف، وكانت ليليان أول شيء رآه في المدخل مع ماريا بين ذراعيها. التقت أعينهما، وللحظة قصيرة ظهرت ابتسامة على شفتيها. ثم، دون قول أي كلمة له صعدت الدرج مع ابنتها. افترَض أنها ستنزل مرة أخرى بعد وضع ماريا في الفراش، لكن كما هو الحال مع عديد الافتراضات الأخرى التي وضعها في ذلك المنزل، كان مخطئًا. سمع ليليان تدخل الحمام في الطابق العلوي وتنظف أسنانها، وبعد ذلك، بعد فترة، تتبّع صوت خطواتها وهي تدخل غرفة نومها وتشغّل التلفاز. كان مستوى الصوت منخفضًا، والشيء

الوحيد الذي استطاع أن يميّزه هو ضبابية من الأصوات الغامضة، وطنين من الموسيقى يضيع في الجدران. جلس على الأريكة، واعيًا تمامًا الآن، متوقعًا منها أن تنزل في أي لحظة وتتحدث معه. انتظر عشر دقائق، ثمَّ عشرين دقيقة، ثمَّ نصف ساعة، وأخيرًا انطفأ التلفاز. انتظر عشرين دقيقة أخرى بعد ذلك، وعندما لم تنزل بحلول ذلك الوقت أدرك أنها لا تنوي التحدث معه، وأنها قد نامت. شعر أنه كان نصرًا من نوع ما، ولكنه الآن بعد أن تم، لم يعُد متأكدًا تمامًا مما سيفعله بانتصاره. أطفأ المصابيح في غرفة المعيشة، وتمدد على الأريكة مرة أخرى، ثمَّ استلقى في الظلام وعيناه مفتوحتان، مُصغيًا إلى سكون المنزل.

***

بعد ذلك، لم يرِد حديثٌ عن الانتقال إلى فندق. أصبحت أريكة غرفة المعيشة سرير ساكس، وكان ينام هناك كل ليلة. كلهم عدُّوا هذا أمرًا مسلمًا به، ولم تُذكر حتى حقيقة أنه صار من أهل البيت. كان تطورًا طبيعيًّا، وظاهرة لا تستحق المناقشة مثل شجرة أو حجر أو جزيء من الغبار في الهواء. كان هذا بالضبط ما تمنّاه ساكس، ومع ذلك لم يتم تحديدُ دوره بينهم بشكل واضح. أُعدّ كل شيء وفقًا لتفاهمٍ سرّي غيرِ معلن، وكان يعلم غريزيًّا أنه سيكون من الخطأ مواجهة ليليان بأسئلةٍ حول ما تريده منه. كان عليه أن يكتشف بمفرده، وأن يجد مكانًا لنفسه بناءً على أساس أصغر التلميحات والإيماءات، والملاحظات والمراوغات الأكثر غموضًا. لم يكنِ الأمر أنه خائفٌ مما قد يحدث لو فعل الشيء الخطأ (مع أنه لم يشك أبدًا بأن الموقف قد ينقلب عليه، وتنفذ تهديدها وتطلب الشرطة)، بل كان يريد لسلوكه أن يكون نموذجيًّا. كان هذا هو السبب في قدومه إلى كاليفورنيا في المقام الأول: لإعادة اختراع حياته، لتجسيد نموذج الخير الذي من شأنه أن يضعه في علاقة مختلفة تمامًا مع نفسه. ليليان كانت الوسيلة التي اختارها، ومن خلالها فقط يمكنه تحقيق

هذا التحول. لقد عدّها رحلة؛ رحلة طويلة في ظلمة روحه، أما الآن، وبعد أن مضى في طريقه، لم يكن متأكدًا مما إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح أم لا.

ربما لن يكون الأمر بهذه الصعوبة عليه لو كانت ليليان شخصًا آخر، لكن إرهاق النوم تحت نفس السقف معها كل ليلة أبقاه في حالة اختلال توازن دائم. بعد يومين فقط، روّعه اكتشاف رغبته الشديدة في لمسها. أدرك أن المشكلة لم تكن في جمالها، ولكن حقيقة أن جمالها كان الجزءَ الوحيد من نفسها الذي سمحت له بمعرفته. لو كانت أقل عنادًا، وأقل عزوفًا عن التعاطي معه بطريقة شخصية مباشرة، لكان لديه شيء آخر يفكر فيه، ولربما تهشمت تعويذة الرغبة. ظلت كما هي؛ رفضت الإفصاح له، ما يعني أنها لم تصبح أبدًا أكثر من كائن، لا أكثر من مجموع جسدها. وكانت تلك الذات الجسدية تحمل في داخلها قوة هائلة: لقد أبهرت وانقضّت، وسارعت النبض، ودمرت كل عزيمة سامية. لم يكن هذا نوع النضال الذي استعدَّ له ساكس، ولم يتناسب مع المخطط الذي وضعه بعناية شديدة في رأسه. أضيف جسده إلى المعادلة الآن، وما كان يبدو يومًا بسيطًا تحول إلى شراكٍ من إستراتيجيات محمومة ودوافع مكتومة.

أخفى عنها كل هذا. في ظل تلك الظروف، كان ملجؤه الوحيد هو التوفيق بين اللامبالاة والهدوء الذي يصعب استثارته، والتظاهر بأنه سعيد تمامًا بالطريقة التي تدور بها الأشياء بينهما. لقد طغت عليه سمةٌ مرحةٌ عندما كان معها؛ فاتر، وودود، ومريح؛ ابتسم كثيرا؛ لم يشتكِ قط. ولأنه كان يعلم أنها متحرزةٌ منذ البداية، وأنها اشتبهت مسبقًا بالفعل بالمشاعر التي هو مذنبٌ بها الآن، كان من المهم بشكل خاص ألا تراه أبدًا ينظر إليها بالطريقة التي يريدها. نظرة واحدة بمقدورها أن تدمره، خاصة مع امرأة ذات خبرة مثل ليليان. لقد أمضت حياتها كلها يحدق بها الرجال، وستكون حساسة للغاية لنظراته، ولأقل تلميح من هذا المعنى في عينيه. أنتج هذا توترًا لا يطاق تقريبًا

كلما صارت بجواره، لكنه تمسّك بشجاعة ولم يتخلّ عن الأمل أبدًا. لم يطلب منها شيئًا، ولم يتوقع منها شيئًا، وكم تمنّى أن يُضعفها في النهاية. كان هذا هو السلاح الوحيد بحوزته، وقد أخرجه في كل فرصة، مذلًّا نفسه أمامها لهذا الغرض، مثل نكران الذات المتحمس هذا؛ حوّل ضعفه أصبح إلى شكلٍ من أشكال القوة.

في أول اثني عشر أو خمسة عشر يومًا، نادرًا ما كانت تتفوَّه بكلمة. لم يكن لديه أي فكرة عما تفعله أثناء غياباتها الطويلة والمتكررة من المنزل، وعلى الرغم من أنه كان سيُقدم على أي شيء تقريبًا ليعرف، إلا إنه لم يجرؤ أبدًا على السؤال. شعر أن التكتم أكثر أهمية من المعرفة، وبدلًا من المخاطرة بالإساءة إليها، احتفظ بفضوله لنفسه وانتظر ليرى ما سيحدث. في معظم الصباح، كانت تغادر المنزل بحلول الساعة التاسعة أو العاشرة. في بعض الأحيان، كانت تعود في المساء، وفي أوقات أخرى تبقى بالخارج لوقت متأخر، ولا تعود إلا بعد منتصف الليل. في بعض الأحيان، كانت تخرج في الصباح، وتعود إلى المنزل في المساء لتغيير ملابسها، ثمَّ تختفي لبقية الليل. في مناسبتين أو ثلاث عادت في صباح اليوم التالي، وعند هذه النقطة كانت تدخل المنزل وتغير ملابسها ثمَّ تغادر على الفور مرة أخرى. افترض ساكس أنها قضت تلك الليالي المتأخرة بصحبة رجال -ربما رجلًا واحدًا، أو رجالًا مختلفين- ولكن كان من المستحيل معرفة إلى أين تذهب خلال النهار. جازَ أن لديها وظيفة ما، لكن هذا كان مجرد تخمين. لم يعرف شيئًا، كان من المحتمل أنها تقضي وقتها في الدوران في سيارتها، أو تذهب إلى السينما، أو تقف قرب البحر تراقب الأمواج.

على الرغم من هذين المجيء والذهاب الغامضين، لم تفشل ليليان أبدًا في إخباره متى يتوقع حضورها مرة أخرى. كان هذا من أجل ماريا أكثر منه من أجله، وحتى لو كانت الساعات التي قدمتها تقريبية فقط) «لن أعود إلا

متأخرًا»، «أراك غدً» فقد ساعده ذلك في تنظيم وقته الخاص والحفاظ على الأسرة من الوقوع في إرباك. مع رحيل ليليان كثيرًا، سقطت مهمة رعاية ماريا بالكامل تقريبًا على عاتق ساكس. لقد كان هذا هو أغرب تطورٍ على الإطلاق، كما وجد، على الرغم من قدر الفظاظة والتحفظ الذي قد تكون عليه عندما يكونون معًا، فإن حقيقة أن ليليان لم تُظهر أي تردد في السماح له برعاية ابنتها تثبت أنها تثق به بالفعل، وربما أكثر مما تدرك هي نفسها. حاول ساكس أن يتأسّى بهذه الحالة الشاذة. لم يشك أبدًا أنها كانت تستغله على مستوًى أول -تتخلى عن مسئولياتها لمتطوعٍ أبله- ولكن على مستوى آخر، بدت الرسالةُ واضحة تمامًا: لقد شعرت بالأمان معه، عِلمتْ أنه لم يكن ليؤذيها. مكتبة سُر مَن قرأ

أصبحت ماريا رفيقته، وجائزة ترضيته، والمكافأة التي لا تمحى. كان يطبخ لها الإفطار كل صباح، ويصطحبها إلى المدرسة، ويعيدها في فترة ما بعد الظهر، وينظف شعرها، ويحممها، ويضعها في الفراش. كانت هذه ملذات لم يكن يتوقعها، وعندما أصبح مكانه في روتينها أكثر رسوخًا، تفتّحت المودة بينهما. في الماضي، اعتمدت ليليان على امرأة تسكن في آخر الشارع لرعاية ماريا، ولكن بقدر ما كانت السيدة سانتياغو لطيفة، إلّا إن لديها عائلة كبيرة خاصة بها ونادرًا ما تولي اهتمامًا كبيرًا لماريا إلا عندما كان أحد أطفالها يسيء معاملتها. بعد يومين من انتقال ساكس، أعلنت ماريا بجديّة أنها لن تذهب إلى منزل السيدة سانتياغو ثانيةً. قالت إنها تفضِّل طريقته في رعايتها، وإذا لم يزعجه الأمر فستقضي وقتها معه من فورها. أخبرها ساكس أنه سيستمتع بذلك. كانا يسيران في الشارع في ذلك الوقت، في طريقهما إلى المنزل من المدرسة، وبعد لحظة من إجابته، شعر أن يدها الصغيرة تمسك بإبهامه. سارا لمدة نصف دقيقة في صمت، ثمَّ توقفت ماريا وقالت: «إلى جانب ذلك، للسيدة سانتياغو أطفالها، وليس لديك أي فتيات أو فتيان، أليس كذلك؟» كان ساكس قد أخبرها بالفعل أنه لا أطفال لديه، لكنه هزَّ رأسه ليُظهر لها أن

منطقها كان صحيحًا». ليس من العدل أن يكون لدى شخص ما الكثير وأن يكون الشخص الآخر بمفرده، أليس كذلك؟» واصلت. مرة أخرى، هزَّ ساكس رأسه ولم يقاطع. قالت: «أعتقد أن هذا أمر جيد». «ستأخذني الآن، وتأخذ السيدة سانتياغو أطفالها، وسيكون الجميع سعداء».

في أول يوم اثنين، استأجر صندوق بريد في مكتب بريد بيركلي ليعطي لنفسه عنوانًا، وأعاد سيارة البليموث إلى الفرع المحلي لوكالة التأجير، واشترى بويك سكايلارك عمرها تسع سنوات مقابل أقل من ألف دولار. في يومي الثلاثاء والأربعاء، فتح أحد عشر حساب توفير مختلف في بنوك مختلفة في جميع أنحاء المدينة. كان حذرًا من إيداع كل الأموال في مكان واحد، وبدا إنشاء حسابات متعددة أكثر حكمة من الدخول إلى مكان ما بحزمة تزيد عن مائة وخمسين ألف دولار نقدًا. إلى جانب ذلك، لن يلفت الانتباه عندما يقوم بسحوباته اليومية لصالح ليليان. سيُبقي العملية في تناوب دائم، وهذا من شأنه أن يمنع الصرافين أو مديري البنوك من التعرف عليه جيدًا. في البداية، ظنّ أنه سيزور كل بنك مرةً كل أحد عشر يومًا، ولكن عندما اكتشف أن سحب ألف دولار يتطلب توقيعًا خاصًا من المدير بدأ بالذهاب إلى بنكين مختلفين كلَّ صباح واستخدام ماكينات الصرف الآلي؛ والتي صرفت بحد أقصى خمسمائة دولار لكل معاملة. وكان ذلك بمثابة سحب أسبوعي قدره خمسمائة دولار فقط من كل بنك، وهو مبلغ ضئيل بكل المقاييس. لقد كان ترتيبًا فعالًا، وفي النهاية فضّل إدخال بطاقته البلاستيكية في الفتحة والضغط على الأزرار على الاضطرار إلى التحدث إلى شخص حي.

الأيام القليلة الأولى مرتْ ثقيلة عليه على أي حال. كان يشتبه في أن الأموال التي وجدها في سيارة ديماجيو مسروقة، ما يعني أن الأرقام التسلسلية على الأوراق جرى تعميمها بواسطة الكمبيوتر على البنوك في جميع أنحاء البلاد. ولكن إزاء الاختيار بين المخاطرة أو الاحتفاظ بالمال في المنزل، قرر المخاطرة.

كان من السابق لأوانه معرفة ما إذا كان يمكن الوثوق بليليان أم لا، ولن يكون ترك المال تحت أنفها طريقة ذكية للتأكد. في كل بنك ذهب إليه، ظل يتوقع من المدير أن يلقي نظرة سريعة على الأموال، ويستأذن لأمر ما، ثمَّ يعود إلى المكتب يجرُّ شرطيًّا خلفه. لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل على الإطلاق. كان الرجال والنساء الذين فتحوا حساباته مهذبين للغاية. كانوا يحسبون أمواله بمهارة سريعة تشبه الروبوت؛ ابتسموا وصافحوه وأخبروه عن مدى سعادتهم لكونه عميلهم. كمكافأة لدخوله مع إيداعات أولية تزيد عن عشرة آلاف دولار، حصل على خمسة آلات تحميص، وأربعة أجهزة راديو على شكل ساعة، وجهاز تلفزيون محمول، وعلم أميركي.

بحلول بداية الأسبوع الثاني، صارت أيامه تسير إلى نمط دوريّ. بعد اصطحاب ماريا إلى المدرسة، كان يسير عائدًا إلى المنزل، وينظف أطباقَ الإفطار، ثمَّ يقود سيارته إلى البنكين المقررين في قائمته. بمجرد أن يكمل عمليات السحب (مع زيارة عرضية إلى بنك ثالث ليأخذ أموالًا له)، كان يذهب إلى أحد مقاهي الإسبريسو على طول جادة تلغراف، ويستقر في زاوية هادئة، ويقضي ساعة يشرب الكابتشينو بينما يقرأ صحيفتي سان فرانسيسكو كرونيكل ونيويورك تايمز. اتضح أن القدْر الذي نقلته الصحيفتان عن القضية تضاءل بشكل مفاجئ. توقفتِ التايمز عن الكتابة عن وفاة ديماجيو حتى قبل رحيل ساكس من نيويورك، وباستثناء مقابلة متابعة قصيرة مع نقيب من شرطة ولاية ڤيرمونت، لم يُنشر أي شيء آخر. أما بالنسبة للكرونيكل، فقد بدا أنهم سئموا الموضوع أيضًا. بعد سلسلة من المقالات حول حركة حماية البيئة وأطفال الكوكب (كلها كتبها توم مولر)، لم يعد يرد اسم ديماجيو. أراح ذلك ساكس، إنما على الرغم من الضغط المنحسر، لم يذهب أبدًا إلى حد الافتراض أنه لا يمكن زيادته مرة أخرى. طوال فترة إقامته في كاليفورنيا، واصل فحص الصحف كل صباح. أصبح ذلك دينَه الخاص، وشكل صلاته اليومية. افحص الصحف واحبس أنفاسك، وتأكد

أنهم ليسوا وراءك. تأكد من أنك تستطيع مواصلة العيش لأربع وعشرين ساعة أخرى.

كرّس بقية الصباح وبعد الظهر للمهام العملية. مثل أيّ ربة بيت أميركية أخرى، كان يتسوق بحثًا عن الطعام، وينظف، ويأخذ الملابس المتسخة إلى المغسلة، ويقلق بشأن شراء العلامة التجارية المناسبة من زبدة الفول السوداني لوجبات الغداء المدرسية. في الأيام التي كان لديه فيها بعض الفراغ، كان يتوقف عند متجر الألعاب المحلي قبل أن يأخذ ماريا. ليلاقيها بعد المدرسة بالدمى وشرائط الشعر، وبكتب القصص وأقلام التلوين، مع علكة، مع يويو، وبالأقراط اللاصقة. لم يفعل هذا لرشوتها. لقد كان تدفقًا بسيطًا من المودة، وكلما توطدت معرفته بها أكثر أخذ مهمة إسعادها بجدية أكبر. لم يقضِ ساكس كثيرًا من الوقت مع الأطفال، وقد أذهله اكتشاف مقدار الجهد المبذول في العناية بهم. تطلب الأمر تعديلًا داخليًّا هائلًا، ولكن بمجرد أنِ استقرَّ على إيقاع مطالب ماريا، بدأ في الترحيب بهم، والاستمتاع بالجهد بحد ذاته. حتى عندما تغيب، كانت تبقيه مشغولًا. وجد ذلك علاجًا ضد الشعور بالوحدة، ووسيلة لتخفيف عبء الاضطرار دائمًا إلى التفكير بنفسه.

كل يوم كان يضع ألف دولار أخرى في الفريزر. حُفظت الأوراق النقدية في كيس بلاستيكي لحمايتها من الرطوبة، وفي كل مرة يضيف ساكس قسطًا جديدًا، كان يتحقق لمعرفة ما إذا كان قد أزيل أي قدر من الأموال. إلّا إنه لم تُلمس ورقة واحدة. مرَّ أسبوعان، واستمرَّ المبلغ في زيادة قدرها ألف دولار في اليوم. لم يكن لدى ساكس أي فكرة عما يجب أن يستنتج من هذا الانفصال، وهذا التجاهل الغريب لما منحها إياه. هل يعني أنها لا تريد أي جزء منه، وأنها ترفض قبول شروطه؟ أم أنها كانت تقول له إن المال غير مهم، وأنه لا علاقة له بقرارها السماح له بالعيش في منزلها؟ كان كلا التفسيرين منطقيًّا، ومن ثمَّ فقد ألغيا أحدهما الآخر، ما تركه دون سبيل لفهم ما كان يحدث في ذهن ليليان، ولا أي طريقة لفك رموز الحقائق التي واجهته.

حتى قربه المتزايد من ماريا بدا أنه لم يؤثر بها. لم يثر ذلك نوبات غيرة، أو ابتسامات تشجيعية، أو رد فعل يستطيع قياسه. كانت تدخل إلى المنزل بينما كان هو والفتاة الصغيرة مستلقيين على الأريكة يقرآن كتابًا، أو يجلسان على الأرض يرسمان، أو يرتبان حفلة شاي لغرفة مليئة بالدمى، وكل ما تفعله ليليان هو قول مرحبًا، وتمنح ابنتها قبلة روتينية على خدها، ثمَّ تنطلق إلى غرفة نومها، حيث ستغير ملابسها وتستعد للمغادرة مجددًا. لم تكن أكثر من ظل؛ طيف جميل يتطوّف داخلًا المنزل وخارجًا منه على فترات غير منتظمة ولا تترك وراءها أي أثر. لمس ساكس أنها تعرف ما كانت تفعله من دون شك، وأن هناك سببًا لهذا السلوك الغامض، ولكن كل الأسباب التي جاء بها لم تفلح في إرضائه أبدًا. في الغالب، خلص إلى أنها كانت تختبره، وتستثيره بلعبة الغميضة هذه لترى المدة التي يمكنه تحملها. أرادت أن تعرف ما إذا كان سيتصدع، وأرادت معرفة ما إذا كانت إرادته قوية مثل إرادتها.

ثم- وبدون سبب واضح- تغير كل شيء فجأة. في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام في منتصف الأسبوع الثالث، دخلت ليليان إلى المنزل وهي تحمل كيسًا من البقالة وأعلنت أنها المسئولة عن العشاء في تلك الليلة. كانت في حالة معنوية عالية، زاخرة بالنكات والكلمات الهزلية المسلية، والاختلاف فيها كبيرًا، ومربكًا للغاية، لدرجة أن التفسير الوحيد الذي تمكن ساكس من التفكير به هو أنها تحت تأثير المخدرات. حتى ذلك الحين، لم يكن الثلاثة قد جلسوا أبدًا لتناول وجبة معًا، لكن يبدو أن ليليان لم تلاحظ ما يمثله هذا العشاء من تقدم غير عادي. دفعت ساكس خارج المطبخ وعملت باهتمام لمدة ساعتين تاليتين، لتحضير ما اتضح أنه خليط لذيذ من الخضار ولحم الضأن. أُعجب ساكس بذلك، ولكن بالنظر إلى كل ما سبق هذا الأداء، لم يكن مستعدًّا تمامًا لقبوله في ظاهره. شعر أنه قد يكون فخًّا، مكيدةً لخداعه كي يتخلى عن حذَره، ومع إنه لم يكن يرغب بشيء أكثر من مسايرتها، وأن ينضم إلى تدفق ابتهاج ليليان، لم يستطعْ قسرَ نفسه للقيام بذلك. صار متيبسًا

ومُربَكًا، وفي حيرة من أمره، والطريقة اللطيفة التي عمل بجد للتأثير بها عليها تخلت عنه فجأة. أدارت ليليان وماريا معظم الحديث، وبعد فترة لم يعد أكثر من مجرد مراقب، كان حضورًا كالحًا رابضًا حول أطراف الحفلة. كره نفسه لأنه يتصرف على هذا النحو، وعندما رفض كوبًا ثانيًا من النبيذ كانت ليليان على وشك أن تصبه له، بدأ يفكر في نفسه باشمئزاز، على أنه بصراحةٍ غبي.

قالت، وهي تصبُّ في كأسه على أي حال: «لا تقلق. لن أعضك». أجاب ساكس: «أنا أعلم. هذا فقط لأنني فكرت...» قاطعته ليليان قبل أن يُتمّ الجملة: «لا تفكر كثيرًا. فقط خذ النبيذ واستمتع به. إنه جيد لك».

لكن في اليوم التالي، بدا الأمر وكأن شيئًا من هذا لم يحدث. غادرت ليليان المنزل في وقت مبكر، ولم تعد إلا في الصباح التالي، وظلت طوال باقي ذاك الأسبوع تظهر بأقل ندرةٍ ممكنة. شعر ساكس بأنه مخدّرٌ بالارتباك. حتى شكوكه صارت الآن موضع شك، وشيئًا فشيئًا كان يشعر بأنه ينهار تحت وطأة المغامرة الرهيبة بأكملها. فكّر أنه ربما كان عليه أن ينصت إلى ماريا تيرنر. ربما لم تكن لديه مصلحة في الوجود هناك وعليه أن يحزم حقائبه ويخرج. حتى إنه لعدة ساعات في إحدى الليالي، بات يغازل فكرة تسليم نفسه للشرطة. على الأقل سينتهي العذاب حينها. بدلًا من إلقاء المال على شخص لا يريده، ربما يجب عليه استخدامه لتوكيل محام، ربما يجب عليه البدء في التفكير في كيفية إبعاد نفسه عن السجن.

ثمَّ بعد أقل من ساعة من التفكير في هذه الأفكار، انقلب كل شيء رأسًا على عقب مرة أخرى. كانت عقارب الساعة في مكان ما بين الثانية عشرة والواحدة بعد منتصف الليل، وساكس ينجرف للنوم على أريكة غرفة المعيشة. بدأت خطوات في التحرك في الطابق الثاني. ظن أنها ماريا في طريقها إلى المرحاض، ولكن ما إن بدأ ينجرف مرة أخرى؛ حتى سمع صوت شخص

ينزل على الدرج. قبل أن يتمكن من دفع البطانية والوقوف، أُضيء مصباح غرفة المعيشة، وغمر الضوء سريرَه المؤقت. غطى عينيه تلقائيًّا، وعندما أجبرهما على الفتح بعد ثانية، رأى ليليان جالسةً في كرسي بذراعين مقابل الأريكة مباشرة، مرتدية روبها الأبيض. قالت: «علينا أن نتحدث». درسَ وجهها في صمت وهي تسحب سيجارة من جيب ردائها وتشعله بكبريت. تلاشت الثقة المشرقة والتحدي السافر من الأسابيع الماضية، وحتى صوتها بدَا له مترددًا الآن، وأكثر ضعفًا مما كان عليه أبدًا. وضعت أعواد الثقاب بينهما على طاولة القهوة. تابع ساكس حركة يدها، ثم ألقى نظرة خاطفة على الكتابة الموجودة على غلاف دفتر أعواد الثقاب، مشتتًا للحظات مع الأحرف الخضراء المزخرفة على الخلفية الوردية. اتضح أنه إعلانٌ لممارسة الجنس عبر الهاتف، حينها فقط، في واحدة من ومضات البصيرة تلك التي تحل من تلقاء نفسها، خطر بباله أنه لا يوجد شيء بلا معنى، وأن كل شيء في العالم مرتبطٌ بكل شيء آخر.

قالت ليليان: «لقد قررت أنني لا أريدك أن تفكر بي كوحش بعد الآن.» كانت تلك هي الكلمات التي بدأت بها، وفي الساعتين التاليتين حدثته عن نفسها أكثر مما فعلت طوال الأسابيع السابقة مجتمعة، وتحدثت معه بطريقة أدت تدريجيًّا إلى تآكل الاستياء الذي كان يئويه ضدَّها. لم يكن الأمر أنها خرجت واعتذرت عن أي شيء، ولم يكن أنه قفز لتصديق ما قالته، ولكن شيئًا فشيئًا، على الرغم من جذره وشكّه، أدرك أنها ليست أفضل حالًا مما هو عليه، وأنه جعلها بائسة بالقدر الذي فعلت معه.

استغرقه الأمر بعض الوقت، ولكنه في البداية، افترض أن الأمر كله تمثيلية، وحيلة أخرى لإبقاء أعصابه مشدودة. في دوامة الهراء التي اقتحمته، تمكن حتى من إقناع نفسه بأنها كانت تعلم أنه يخطط للفرار، وكأنها تستطيع قراءة أفكاره، كما لو كانت قد دخلت دماغه وسمعته يفكر في تلك الأفكار. لم تنزل للتصالح معه. لقد فعلت ذلك لتليينه، للتأكد من أنه لن يرحل قبل

أن يعطيها كل المال. بحلول ذلك الوقت، كان على وشك الهذيان، ولو لم تذكر ليليان المال بنفسها، فلن يدرك أبدًا مدى سوء ظنّه بها. كانت تلك هي اللحظة التي تحولت فيها المحادثة. بدأت تتحدث عن المال، وما قالته لا يشبه كثيرًا ما كان يتخيل أنها ستقوله، شعرَ فجأة بالخجل من نفسه، بالخجل بما يكفي لبدء الاستماع إليها بجدية.

قالت: لقد أعطيتني ما يقرب من ثلاثين ألف دولار. يستمرُّ المال في القدوم، المزيد والمزيد منه كلَّ يوم، وكلما زادَ المال أشعر بالخوف منه. لا أعرف كم من الوقت تخطط لمواصلة هذا الأمر، ولكن ثلاثين ألف دولار كافية. أكثر من كافية، وأعتقد أنه يجب علينا التوقفُ قبل أن تخرج الأمورُ عن السيطرة.

وجدَ ساكس نفسه يقول لها: لا يمكننا التوقف. للتَّو بدأنا.

- لست متأكدة من أنني أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك.
- يمكنكِ ذلك. أنت أقوى شخص رأيته في حياتي، يا ليليان. طالما لا يساورك القلق، ستبلين بلاءً حسنًا.
- أنا لست قوية. لست قوية، ولست جيدة، ما إن تتعرف عليّ، حتى ستتمنى لو لم تطأ قدمك هذا البيت أبدًا.
- المال لا علاقة له بالاستقامة. إنه يتعلق بالعدالة، وإذا كانت العدالة تعني شيئًا، فيجب أن تكون واحدةً للجميع، سواء أكانوا جيدين أم لا.

شرعت حينها بالبكاء، محدقة في وجهه مباشرة تاركةً الدموع تنهمر على خديها، دون أن تلمسَها، كما لو أنها لا تريد الاعتراف بوجودها هناك. كان ذلك نوعًا من البكاء الأبيّ، كما شعرَ ساكس، كشفٌ عن حزنٍ ورفضٍ للخضوع له في آن؛ جعله يحترمها لتماسكها بقوة كما فعلت. طالما تجاهلتها، طالما أنها لم تمسحها، فإن تلك الدموع لن تهينها أبدًا.

قامتْ ليليان بمعظم الحديث بعد ذلك، وهي تدخن بشراهة في طريقها عبر مونولوج طويل من الحسرات ولوم الذات. كان من الصعب على ساكس تتبع الكثير منها، لكنه لم يجرؤ على المقاطعة، خوفًا من أن تؤدي كلمة خاطئة أو سؤال في توقيت سيئ إلى توقفها. تذمرت لبعض الوقت من رجلٍ يدعى فرانك، ثمَّ تحدثت عن رجل آخرَ يدْعى تيري، ثم، بعد لحظة، عبرت إلى السنوات الأخيرة من زواجها من ديماجيو. أوصل ذلك إلى شيء يتعلق بالشرطة (التي يبدو أنها استجوبتها بعد اكتشاف جثة ديماجيو)، ولكن قبل أن تنتهي من ذلك، كانت تخبره عن خطَّتها للانتقال، ومغادرة كاليفورنيا والبدء من جديد في مكان آخر. قالت إنها نَوَت فعل ذلك إلى حدٍّ كبير، لكنه بعد ذلك ظهر على عتبة بابها، وانهار كل شيء. لم تعد قادرة على التفكير بشكل صحيح، ولم تكن تعرف ما إذا كانت قادمة أم راحلة. كان يتوقع منها أن تستمر في ذلك لفترةٍ أطول قليلًا، لكنها بعد ذلك استطردت في موضوع العمل، وتحدثت بتفاخرٍ تقريبًا عن كيف تمكنت من تدبيرِ أمورها بنفسها دون ديماجيو. أخبرته أن لديها ترخيصًا كمدلكة مدرَّبة، وعملت كموديل أزياء لكتالوجات المتاجر الكبرى، وبشكل عام استطاعت التغلب على مشاكلها. ولكن بعد ذلك، فجأة، تركت الموضوع كما لو أنه ليس ذا أهمية وبدأت في البكاء ثانية.

قال ساكس: كلُّ المشاكل ستحل. سترين. كلُّ الأشياء السيئة خلفك الآن. أنتِ لم تدركي ذلك بعد.

ذاك كان الشيء الصحيحَ ليقال، وينهي المحادثة بملاحظة إيجابية. لم يحلّ أي شيء، ولكن بدتْ ليليان مرتاحة لملاحظته، متأثرة بتشجيعه. عندما أعطته عناقَ شكرٍ سريع قبل أن تصعد للنوم، قاوم إغراءَ الضغط بقوة أكبر مما يجب. كانت تلك لحظة رائعة بالنسبة له، لحظة تواصلٍ حقيقيٍّ لا يمكن إنكاره. لقد شعر بجسدها تحت الرداء، وقبّلها برفق على خدِّها، وفهمَ أنهما عادَا الآن إلى البداية، وأن كل ما حدث قبل هذه اللحظة قد شُطب.

في صباح اليوم التالي، غادرت ليليان المنزل في وقتها المعتاد، حيث تختفي بينما يكون ساكس وماريا في طريقهما إلى المدرسة. لكن هذه المرة كانت هناك ملاحظة في المطبخ عندما عاد، وهي رسالة قصيرة بدا أنها تدعم آماله الأكثر جموحًا والأقل احتمالًا. كتبت: «شكرًا على الليلة الماضية». «XXX». أحبّ أنها استخدمت علامات القبلة بدلًا من التوقيع باسمها. حتى لو أنها وُضعتْ هناك بأكثر النوايا براءة- كردِّ فعل، كتغيير عن التحية المعتادة- فإن ثلاثَ علامات X تلمح إلى أشياء أخرى أيضًا. كان رمز الجنس نفسه الذي رآه على غلاف دفتر الثقاب في الليلة السابقة، وأثاره أن يتخيل أنها فعلتْ ذلك عن قصد، وأنها قد استبدلت هذه العلامات باسْمها من أجلِ زرع هذا الارتباط في ذهنه.

بناءً على قوة هذه الملاحظة، مضى قُدمًا وفعل شيئًا يعلم أنه لا ينبغي أن يفعله. حتى أثناء قيامه بذلك، أدرك أنه خطأ، وأنه بدأ يفقد عقله، لكنه لم يعد لديه ما يكبحه من التوقف. بعد أن أنهى جولاته الصباحية، بحث عن عنوان أستوديو التدليك الذي أخبرته ليليان أنها تعمل فيه. كان في مكان ما في جادة شاتوك في شمال بيركلي، ومن دون أن يكلف نفسه عناء طلب موعد، صعد إلى سيارته وتوجه إليه. أراد أن يفاجئها، أن يدخل دون سابق إنذار ويقول مرحبًا بشكلٍ عرضي للغاية، كما لو كانا أصدقاء قدامى. إن كانت غير مشغولة في تلك اللحظة، سيطلب تدليكًا. من شأن ذلك أن يعطيه عذرًا شرعيًّا لكي تلمسه ثانية، وحتى عندما يستمتع بملمسِ يديها على جلده؛ لا يزال بإمكانه أن يعطل ضميرَه عند فكرة أنه كان يساعدها في كسب عيشها. سيقول لها لم أتلقَّ تدليكًا من قِبَل محترف، وأردت فقط أن أعرف كيف هو الشعور. لقد وجد المكانَ دون صعوبة، ولكن عندما دخل وسأل المرأة في مكتب الاستقبال عن ليليان شتيرن، حصل على استجابة فجة باردة. أجابت المرأة: «استقالت ليليان شتيرن في الربيع الماضي، ولم تُظهر وجهها هنا منذ ذلك الحين».

كان هذا آخرَ ما توقعه، وخرج من هناك وهو يشعر بالخيانة، محروقًا بالكذبة التي أخبرته بها. لم تعدْ ليليان إلى المنزل في تلك الليلة، وكان سعيدًا تقريبًا بتركه لنفسه، وليجتنب الإحراج الناتج عن رؤيتها. بالنتيجة، لم يكن هناك شيء يسعه أن يقوله. لو ذكر أين كان في عصر ذلك اليوم، سينكشف سرُّه، وهذا من شأنه أن يدمر أيّ فرصة ما تزال موجودة له معها. على المدى الطويل، ربما كان محظوظًا لأنه مر بهذا الآن وليس لاحقًا. قال لنفسه إنَّ عليه أن يكون أكثر حذرًا مع مشاعره. لا مزيد من التصرفات المندفعة. لا مزيد من جولات الحماس. كان ذلك درسًا يجب أن يتعلمه، وكان يأمل ألا ينساه.

لكنه فعل. ليس بعد مدة، إنما في اليوم التالي. مرة أخرى، كان الوقت بعد حلول الظلام. مرة أخرى، كان قد وضع ماريا توًّا في الفراش، ومرة أخرى وهو يعسكر على أريكة غرفة المعيشة. ما يزال مستيقظًا هذه المرة، يقرأ أحد كتب ليليان عن التناسخ. أذهله أنها يمكن أن تكون مهتمة بمثل هذه الهراء، وقرأ بنوع من السخرية الانتقامية، ودرس كل صفحة كما لو كانت شهادة على غبائها، وعلى ضحالة عقلها المذهلة. حدّث نفسه أنها جاهلة، وأنها عبارة عن مزيج بلا عقل من البدع والأفكار نصف المخبوزة، وكيف يمكن أن يتوقع من شخص مثل هذا أن يفهمه، ويستوعب العُشر مما كان يفعله؟ ولكن بعد ذلك، بينما كان على وشك ترك الكتاب وإطفاء الضوء، سارت ليليان عبر الباب الأمامي، ووجهها محتقن من أثر الشراب، مرتديةً أضيَقَ وأصغرَ فستان أسود رآه على الإطلاق، ولم يتمالك سوى أن ابتسم عندما رآها. كانت ساحرةً إلى هذا الحد. والآن بعد أن صارت تقف في الغرفة معه، لم يستطع أن يدير عينيه بعيدًا عنها.

قالت: مرحبًا، يا صغيري. هل افتقدتني؟

«دون توقف»، أجاب. «من اللحظة التي رأيتك فيها آخر مرة وحتى هذه اللحظة». ألقى العبارة بما يكفي من الشجاعة ليجعلها تبدو وكأنها مزحةٌ، وشيءٌ من الملاطفة المضحكة، لكن الحقيقة هي أنه كان يقصدها.

- جيد، لأنني اشتقت إليك أيضًا.

توقفت أمام طاولة القهوة، وأطلقت ضحكة قصيرة، ثمَّ دارت دورة كاملة، ناشرةً ذراعيها كعارضة أزياء تدور ببراعة على أصابع قدميها. «كيف تجد فستاني؟»، سألت. «بستمائة دولار في التخفيضات. صفقة رائعة، ألا توافقني».

- يستحق كل بنس. والقياس مناسب أيضًا. لو كان أصغر، سيُخرج الخيال عن نطاق العمل. لكُنتِ بالكاد ترتدين شيئًا عندما ترتدينه.
- هذه هي الطلّة. بسيطة ومغوية.
- لست متأكدًا جدًّا من البساطة. الشيء الآخر، نعم، لكنه ليس بسيطًا ألبتة.
- لكن ليس مبتذلًا.
- لا، على الإطلاق. كأنه صنع لكِ.
- جيد. أخبرني أحدهم أنه مبتذل، وأردتُّ الحصولَ على رأيك قبل خلعه.
- هل تقصدين أن عرض الأزياء انتهى؟
- انتهى تمامًا. لقد تأخر الوقت، ولا يمكنك أن تتوقع أن تقف عاهرة قديمة مثلي على قدميها طوال الليل.
- يا للأسف. عندما بدأت الاستمتاع به فقط.
- أنت بليد نوعًا ما في بعض الأحيان، أليس كذلك؟
- ربما. أنا أجيد الأشياء المعقدة غالبًا. أما الأشياء البسيطة فتميل إلى إرباكي.
- مثل خلع فستان، كما أفترض. إذا تأخرتَ أكثر، فسوف أضطر إلى خلعه بنفسي. وهذا لن يكون جيدًا، أليس كذلك؟

- لا، ألبتة. خاصة أنه لا يبدو صعبًا جدًّا. لا أزرار أو أحزمة للعبث بها، ولا توجد سحابات يمكن أن تتعطل. ما عليك سوى سحبه من الأسفل لينزلق.

- أو ابدأ من الأعلى وانزل في طريقك. الخيار لك يا سيد ساكس.

بعد لحظة، كانت تجلس بجانبه على الأريكة، وبعد لحظات كان الفستان على الأرض. هاجمته ليليان بمزيج من الغضب والمزاح، تنهال على جسده باندفاعات قصيرة لاهثة، ولم يفعل في أي وقتٍ أي شيء لإيقافها. عرف ساكس أنها كانت ثملة، ولكن حتى لو كان كل ذلك مجرد حادث، حتى لو كانت الخمرُ والملل هما ما دفعاها بين ذراعيه، فقد كان على استعداد لقبول ذلك. قال لنفسه إنَّه قد لا تكون هناك فرصة أخرى على الإطلاق، وبعد أربعة أسابيع من انتظار حدوث هذا الشيء بالتحديد، لم يكن يتصور الامتناع عنها.

تضاجعَا على الأريكة، ثمَّ في سرير ليليان بالطابق العلوي، وحتى بعد أن تلاشت آثار الكحول ظلَّت متقدةً كما كانت في اللحظات الأولى، حيث قدمت نفسها له بانصراف تام وتركيز أبطل أيَّ شكوك باقية لديه. جرفته بعيدًا، وأفرغته، وفككته. والشيء الرائع أنه في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، عندما استيقظا ووجدا بعضهم البعض في السرير، فعلاها مجددًا، وهذه المرة، مع الضوء الباهت المنتشر في زوايا الغرفة الصغيرة، قالت إنها تحبه، وساكس؛ الذي كان ينظر مباشرة في عينيها تلك اللحظة، لم يرَ في تينك العينين شيئًا يجعله يجحدها.

كان من المستحيل معرفة ما حدث، ولم يجد أبدًا الشجاعة للسؤال. لقد ذهب معها ببساطة، طافيًا على موجةٍ من السعادة التي لا يمكن تفسيرها، لا يريد شيئًا سوى أن يظل في مكانه تمامًا. بين عشية وضحاها، أصبح هو وليليان عشيقين. صارت الآن تبقى في المنزل معه خلال النهار، وتشارك

في الأعمال المنزلية، وتتحمل مسئولياتها كأمٍّ لماريا مرة أخرى، وفي كلِّ مرة نظرت إليه، كان الأمرُ كما لو أنها تكرر ما أخبرته به في ذلك الصباح الأول في السرير. مرَّ أسبوع، وكلما قل احتمال تراجعها؛ زاد تقبُّله لما كان يحدث. لعدة أيام متتالية، اصطحب ليليان في الخارج لشراء الفساتين والأحذية، والملابس الداخلية الحريرية، والأقراط الياقوتية وأطواق اللؤلؤ. كانا يسهران في المطاعم الجيدة ويتناولان الشراب باهظ الثمن، تكلما، ووضعَا الخطط، ومارسا الجنس لوقت طويل. ربما كان الأمر أفضل من أن يُصدّق، لكن بحلول ذلك الوقت لم يعد قادرًا على التفكير فيما هو أفضل أو ما يصدق. عندما وصل الأمر إليه لم يعدْ قادرًا على التفكير في أي شيء.

لم يكنْ هناك ما ينبئ بعمر هذه العلاقة. لو كان الأمر مقتصرًا على كليهما، لكان الاثنان قد صنعا شيئًا من هذا الانفجار الشهواني، وهذه الرومانسية الغريبة وغير المعقولة. على الرغم من مَضامينها الشيطانية، فمن الجائز أن يكون ساكس وليليان قد استقرَّا في مكان ما وعاشا حياة حقيقية معًا. لكن حقائق أخرى أثرت عليهما، وبعد أقل من أسبوعين من بدء هذه الحياة الجديدة صارتْ بالفعل موضع شك. وقعا في الحب، ربما، لكنهما أيضًا أخلّا بتوازن الأسرة، وماريا الصغيرة كانت أقلهم سعادة بهذا التغيير. أُعيدت والدتها إليها، لكنها فقدت شيئًا بالمقابل، ومن وجهة نظرها هذه الخسارة كانت تعني انهيارَ العالم. لما يقرب من الشهر، عاشت هي وساكس معًا فيما يشبه الجنة. كانت هي الهدفَ الوحيد لعواطفه، وقد دلّلها وشغِف بها بطرق لم يفعلها أيُّ شخص آخر من قبل. الآن، دون كلمة تحذير واحدة، تخلى عنها. انتقل إلى سرير والدتها، وبدلًا من البقاء في المنزل، والبقاء برفقتها، كان يتركها مع جليسات الأطفال ويخرج كل ليلة. لقد استاءت من كلِّ هذا. استاءت من والدتها لمجيئها بينهما، واستاءت من ساكس لأنه خذلها، وبحلول الوقت الذي نفدَ فيه صبرها بعد ثلاثة أو أربعة أيام، تحوَّلت ماريا

المطيعة والرقيقة عادةً إلى رعب؛ محرّكٌ صغير من العبوس ونوبات السخط والدموع الغاضبة.

في يوم الأحد الثاني، اقترح ساكس نزهةً عائلية إلى حديقة الورود في تلال بيركلي. في البداية، بدت ماريا في حالة معنوية جيدة، وبعد أن جلبت ليليان لحافًا قديمًا من خزانة الطابق العلوي، صعد الثلاثة إلى البويك وتوجهوا إلى الطرف الآخر من المدينة. كل شيء سار على ما يُرام في الساعة الأولى. ساكس وليليان استلقيا على اللحاف، ولعبت ماريا على الأراجيح، وأحرقتِ الشمس ما تبقى من ضباب الصباح. حتى عندما خبطت ماريا رأسها في ملعب الحديقة بعدَ فترة وجيزة، لم يبدُ أن هناك أيَّ سبب يدعو للقلق. جاءت إليهما وهي تبكي، تمامًا كما يفعل أيُّ طفل آخر، وعانقتها ليليان وهدأتها، وقبّلت الأثر الأحمر على صدغها بعنايةٍ وحنانٍ خاصّين. أحس ساكس بأنه دواء جيد؛ العلاج المُكرَّس على مر الزمن، ولكنه في هذه الحالة كان له تأثير ضئيلٌ أو معدوم. استمرت ماريا في البكاء، رافضة أن تعزيها والدتها، ومع أن الإصابة لم تكن أكثرَ من خدشٍ إلا أنَّها اشتكت من ذلك بشدة، وكانت تبكي بحرارة إلى درجة أنها كادت تختنق. عانقتها ليليان غير مستراعةٍ مرة أخرى، لكن ماريا تراجعت عنها هذه المرة، متهمةً والدتها بالضغط عليها بشدة. استطاع ساكس أن يرى الألم في عيني ليليان عندما حدث هذا، وبعد ذلك، عندما دفعت ماريا ليليان بعيدًا عنها، ظهر وميضٌ من الغضب أيضًا. من العدم، بدَا أنهم على وشك الدخول في أزمةٍ عارمة. كان بائع الآيس كريم قد أقامَ موقفًا على بُعد حوالي عشرين مترًا من لحافهم، فعرضَ ساكس- ظانًّا أنه قد يكون إلهاءً مفيدًا- أن يشتري لماريا الآيسكريم. قال، وهو يبتسم بتعاطفٍ قدر استطاعته، سيجعلكِ تشعرين بتحسُّن، ثمَّ ركض إلى المظلة متعددة الألوان المتوقفة على ممرِّ المشاة أسفلهما مباشرة. اتضح أنَّ هناك ستَّ عشرة نكهة مختلفة للاختيار من بينها. لم يكن يعرف أيّها يختار، استقرَّ على مزيج من الفستق وتوتي فروتي. ظنّ أنَّ اسمَ المزيج قد يروق لها، إن لم

ينجح أي شيء آخر. لكنه لم ينجح. على الرغم من أنَّ دموعها قد خمدت بحلول الوقت الذي عاد فيه، إلا إنَّ ماريا نظرت إلى الآيس كريم الأخضر بريبة، وعندما سلمها إياه وأخذت أول قضمة صغيرة اضطرمتِ الجحيمُ مرة أخرى. تصنّعت وجهًا فظيعًا، وبصقت الآيس كريم كما لو كان سمًّا، وصرخت: «إنه مثير للاشمئزاز.» أدى ذلك إلى نوبة أخرى من النحيب، وبعد ذلك، مع تصاعُد غضبها أخذت الآيسكريم في يدها اليمنى وألقته على ساكس. ضربتْهُ بشكلٍ مباشرٍ في بطنه، مُتناثرًا على قميصه. بينما كان ينظر إلى الضرر. هُرِعت ليليان إلى حيث كانت تقف ماريا وصفعتْها على وجهها.

«أنت شقية» صرختْ في وجه الفتاة الصغيرة. «أنتِ بائسة، شقية جاحدة! سأقتلك، هل تفهمين! سأقتلكِ هنا أمام كل هؤلاء الناس!» وبعد ذلك، قبل أن تحصل ماريا على الوقت الكافي لرفع يديها وحماية وجهها، صفعتْها ليليان مرةً أخرى.

«توقفي»، قال ساكس. كان صوته ثقيلًا، معبأً بالغضب، وفي لحظةٍ كان يميلُ إلى دفع ليليان إلى الأرض: «لا تجرُئي على وضع يدك على هذه الطفلة، هل تسمعينني؟».

ردّت: «ابقَ بعيدًا، يا سيد»، وهي مغضَبةٌ بقدر ما كان غاضبًا. «إنها طفلتي، وسأفعل معها ما يحلو لي».

- لا ضرب. لن أسمح بذلك.

- إن كانت تستحق الضرب فسأضربها. ولا أحد يتدخل. ولا حتى أنت، أيها الذكي المتعجرف.

ساءتِ الأمور قبل أن تتحسَّن. صرخ ساكس وليليان على بعضهما البعض خلال الدقائق العشر التّالية، ولو لم يكونا في مكان عام، يتجادلان أمام عشرات من المتفرجين، فإن الله وحده يعلم إلى أيِّ مدى كان يمكن أن يصل الأمر. وهكذا، تمكّنا في النهاية من السيطرة على نفسيهما وكبح جِماح

أعصابهما. اعتذر كلٌّ منهما للآخر، وقبّلا بعضهما وتصالحا، ولم يُقل عن ذلك شيء لبقية فترة ما بعد الظهر. ذهب الثلاثة إلى السينما، ثمَّ خرجوا إلى مطعم صيني لتناول العشاء، وبحلول الوقت الذي عادوا فيه إلى المنزل، ووُضعت ماريا في الفراش، كان الحادث قد نُسيَ تمامًا. أو هكذا ظنّا. في الواقع، كانت هذه أول علامة على الهلاك، ومنذ اللحظة التي صفعت فيها ليليان ماريا على وجهها حتى اللحظة التي غادر فيها ساكس بيركلي بعد خمسة أسابيع، لم يعُد أيّ شيءٍ يخصهم على الإطلاق على حاله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

في 16 كانون الثاني 1988، انفجرت قنبلة أمام قاعة المحكمة في مقاطعة تورنبول، أوهايو، دمّرت نسخةً طبق الأصل من تمثال الحرية. افترض معظم الناس أنها كانت مزحة مراهق، عملٌ تخريبي تافه دون دوافع سياسية، ولكن لأن الذي تدمّر رمزٌ وطني، أُبلغ عن الحادث بإيجاز من طرف وكالات الأنباء في اليوم التالي. بعد ستة أيام من ذلك، جرى تفجير تمثالٍ آخرَ للحرية في دانبرج بولاية بنسلفانيا. كانت الظروف متطابقةً تقريبًا: انفجار صغير في منتصف الليل، لا إصابات، ولا شيء تضرر إلا التمثال نفسه. ومع ذلك، كان من المستحيل معرفة ما إذا كان نفس الشخص متورطًا في كلا التفجيرين أو إذا كان الانفجار الثاني استنساخًا للأول بما يسمَّى بجريمة بالتقليد. لم يبدُ أن أحدًا اكترث كثيرًا في تلك المرحلة، ما عدا واحدًا من أبرز أعضاء مجلس الشيوخ المحافظين أصدَرَ بيانًا يُدين «هذه الأعمال المستهجنة» وحثَّ الجناة على وقف حماقاتهم في الحال. قال: «هذا ليس مضحكًا. لم تقوموا فقط بتدمير الممتلكات، ولكنكم أيضًا دنستم رمزًا وطنيًّا. الأمريكيون يحبون تمثالهم، ولا يتقبلون هذا النوع من الاستعراض المزعج».

إجمالًا، هناك زهاءَ مائة وثلاثين نسخةً مصغرةً من تمثال الحرية تقف في الأماكن العامة في كافة أنحاء أميركا. يمكن العثور عليها في حدائق المدن، وأمام قاعات المدينة، وعلى قمم المباني. على عكس العلم، الذي يميل إلى تقسيم الناس بقدر ما يجمعهم، يُعد التمثال رمزًا لا يثير أيَّ جدل. إذا كان العديد من الأميركيين فخورين بعَلَمهم، فهناك العديد من الأشخاص الآخرين الذين يخجلون منه، وإزاء كل شخص يعتبره مقدسًا، هناك شخص آخر يرغب في البصق عليه، أو حرقه، أو جرِّه في الوحل. أما تمثال الحرية

فمحصّنٌ من هذه الصراعات. على مدى المائة عام الماضية، تجاوزَ السياسة والأيديولوجيا، وقفَ على عتبة بلدنا كرمز لكل ما هو جيد بداخلنا. إنه يمثل الأمل بدلًا من الواقع، والإيمان بدلًا من الحقائق، وسيجد المرء صعوبةً شديدة في العثور على شخص واحد على استعداد للتنديد بالأشياء التي يمثلها: الديمقراطية، والحرية، والمساواة أمام القانون. إنه أفضل ما يجب على أميركا أن تقدمه للعالم، ومهما تألّم المرءُ من فشل أميركا في الالتزام بتلك المثل العليا، فإن المثل العليا نفسها ليست موضع تساؤل؛ فقد قدمت العزاء للملايين، وزرعت الأمل فينا جميعًا بأننا قد نعيش يومًا ما في عالم أفضل. بعد 11 يومًا من حادثة بنسلفانيا، دُمّر تمثال آخر على قرية خضراء في وسط ماساتشوستس. هذه المرة كانت هناك رسالة؛ بيانٌ معدٌّ وصل هاتفيًّا إلى مكاتب صحيفة سبرينغفيلد ريبليكان في صباح اليوم التالي. «أميركا، استيقظي»، قال المتصل. «حان الوقت للبدْء في ممارسة ما تعظين به. إذا كنت لا تريدين تفجير المزيد من التماثيل، أثبتي لي أنك لست منافقة. افعلي شيئًا من أجل شعبك أفضل من صنع القنابل. وإلا، ستستمر قنابلي في التفجر. التوقيع: شبح الحرية».

خلال الأشهر الثمانية عشر التالية، دُمرت تسعة تماثيل أخرى في أجزاء متفرقة من البلاد. يتذكر الجميع هذا، ولا داعي لأن أقدم وصفًا شاملًا لأنشطة الشبح. في بعض البلدات، وُزّعت حراساتٌ طوال اليوم حول التماثيل، طواقمها مجموعات متطوعين من المحاربين القدامي، وأخوية الظباء، وفرق كرة القدم بالمدارس الثانوية، ومنظمات محلية أخرى. لكن لم يكن كل مجتمع بتلك اليقظة، فاستمرت الشبح في تفادي الاكتشاف. في كل مرة يضرب فيها، سيكون هناك انقطاع قبل الانفجار التالي، وهي فترة طويلة بما يكفي لجعل الناس يتساءلون عما إذا كانت هذه هي نهاية التفجيرات. ثم، فجأة، سيظهر في مكان ما على بعد 1500 كيلومتر، وتنطلق قنبلة أخرى. كان الكثير من الناس غاضبين بالطبع، ولكن كان هناك آخرون وجدوا

أنفسهم متعاطفين مع أهداف الشبح. كانوا الأقلية؛ لأن أميركا مكان كبير، مع أن أعدادهم لم تكنْ صغيرة بأي حال من الأحوال. بالنسبة لهم، أصبح الشبح في النهاية بطلًا شعبيًا سريًا. الرسائل كانت لها علاقة كبيرة، على ما أعتقد، والتصريحات التي نقلها بالهاتف للصحف ومحطات الراديو في صباح اليوم التالي لكل انفجار. كانت قصيرة بالضرورة، لكن بدا أنها تتحسَّن مع مرور الوقت: أكثر إيجازًا، وأكثر شاعرية، وأكثر إبداعًا في الطريقة التي عبر بها عن خيبة أمله في البلاد. بدأ أحدها: «كل شخص بمفرده، وبالتالي ليس لدينا مكان نلجأ إليه إلا بعضنا البعض.» أو: «الديمقراطية ليست هبة. يجب القتال في سبيلها كل يوم، وإلا فإننا نجازف بفقدانها. السلاح الوحيد الذي في حوزتنا هو القانون.» أو: «إن أهملنا الأطفال، دمّرنا أنفسنا. نحن موجودون في الحاضر فقط بالقدر الذي نزرع فيه إيماننا بالمستقبل». على عكس التصريحات الإرهابية التقليدية، بخطابها المتضخم ومطالبها العدوانية، لم تطلب تصريحات الشبح المستحيل. لقد أراد ببساطة أن تنظر أميركا في داخلها وتصحح سلوكها. بهذا المعنى، هناك كان نوع من الوعظ الإنجيلي في تحذيراته، وبعد فترة صار يبدو وكأنه ثوريٌّ سياسيٌّ أكثر من رسولٍ حزين رقيق العبارة. كان هناك من تحدثوا في الواقع دعمًا لما كان يفعله. جادلوا بأن قنابله لم تؤذِ أحدًا، وإن نجحت هذه المتفجرات «أم ربع دولار» في حث الناس على إعادة التفكير في مواقفهم من الحياة، فلربما لا تكون فكرة سيئة في نهاية المطاف.

لكي أكون صادقًا تمامًا، لم أتابع هذه القصة عن كثب. كانت هناك أشياء أكثر أهمية تحدث في العالم في ذلك الوقت، وكلما سرق شبح الحرية انتباهي، تجاهلته مثلما أفعل مع أي مهووس، كأي شخصية عابرة في يوميات الجنون الأميركي. حتى لو اهتممتُ أكثر، على أي حال، لا أظن أنه كان بمقدوري أبدًا تخيُّل أنه وساكس الشخص نفسه. كان ذلك بعيدًا جدًّا عن نطاق تصوراتي، وأجنبيًّا على أي شيء يبدو ممكنًا، ولا أرى كيف كنت سأنجح في

إيجاد الصلة. من ناحية أخرى (وأنا أعلم أن هذا سيبدو غريبًا)، لو أن الشبح جعلني أفكر في أي شخصٍ، فهو ساكس. كان بن في عداد المفقودين لمدة أربعة أشهر عندما جرى الإبلاغ عن التفجيرات الأولى، وأعاده ذكر تمثال الحرية إلى ذهني على الفور. كان ذلك طبيعيًّا بما فيه الكفاية، كما أعتقد؛ مع الأخذ في الاعتبار الرواية التي كتبها، مع الأخذ في الاعتبار ظروف سقوطه قبل عامين، ومنذ ذلك الحين التصق الرابط. في كل مرة أقرأُ فيها عن الشبح، كنت أفكر في بن. تندفع ذكريات صداقتنا إليّ، وفجأة أبدأ أشعر بالألم، وأرتجفُ من التفكير بمقدار افتقادي له.

هذا هو أقصى قدْرٍ وصلتُ إليه. الشبح علامةٌ على غياب صديقي، ومحفزٌ للألم الشخصي، ولكن مرَّ أكثر من عام قبل أن ألاحظ الشبح ذاته. كان ذلك في ربيع عام 1989، وحدث ذلك عندما شغلت جهاز التلفاز ورأيت طلاب حركة الديمقراطية الصينية يكشفون النقاب عن تقليدهم الأخرق لتمثال الحرية في ميدان تيانانمن. أدركت حينها أنني قللتُ من أهمية قوة الرمز. لقد مثَّلَ فكرةً تخصُّ الجميع؛ لكل إنسانٍ في هذا العالم، وقد لعب الشبح دورًا مهمًّا في إحياء معناها. كنتُ مخطئًا في تجاهله. لقد تسبّب في حدوث اضطرابٍ في مكان ما في أعماق الأرض، وبدأت الأمواج الآن في الارتفاع إلى السطح، لتُلامس كل جزء من الأرض في وقت واحد. حدث شيء ما، كان هناك شيء جديد في الأجواء، وكانت هناك أيام في ذلك الربيع عندما كنت أسير في المدينة وأكاد أتخيلُ أنني أشعر بالأرصفة تهتز تحت قدميّ.

كنت قد شرعتُ في كتابة روايةٍ جديدةٍ في مستهل العام، وبحلول الوقت الذي غادرتْ فيه آيريس نيويورك متوجهةً إلى ڤيرمونت في الصيف الماضي، كنت مدفونًا في قصتي، وبالكاد أستطيع التفكير في أي شيء آخر. أقمتُ في أستوديو ساكس القديم في الخامس والعشرين من حزيران، وحتى هذا الموقف المحيِّر لا يمكنه أن يزعج إيقاعي. هناك نقطةٌ يبدأ فيها الكتاب

بالسيطرة على حياتك، عندما يصبحُ العالمُ الذي تتخيله أكثر أهمية لك من العالم الحقيقي، وبالكاد خطر ببالي أنني كنت جالسًا على نفس الكرسي الذي جلس عليه ساكس، وأكتب على نفس الطاولة التي كان يكتب عليها، وأتنفس نفس الهواء الذي تنفسهُ ذات مرة. إن كان من شيء، فقد كان مصدر سرورٍ لي. لقد استمتعت بوجود صديقي بالقرب منّي مرة أخرى، وشعرت أنه سيكون سعيدًا لو علم أني أشغلُ مساحته القديمة. كان ساكس شبحًا مرحبًا به، ولم يُخلِّف وراءه أي تهديداتٍ أو أرواح شريرة في كوخه. شعرت أنه أراد لي أن أكون هناك، ومع إنني بالتدريج وصلت إلى قناعة آيريس (أنه مات، وأنه لن يعود أبدًا)، كان الأمر كما لو أننا مازلنا نفهم بعضنا البعض، كما لو لم يتغير شيء بيننا.

في أوائل آب، غادرت آيريس إلى مينيسوتا للمشاركة في حفل زفاف صديقة طفولة. وأخذت سونيا معها، ومع بقاء ديفيد في المخيم الصيفي حتى نهاية الشهر، كنت أتجولُ هنا بمفردي وأتابعُ كتابي. بعد يومين، وجدت نفسي أنزلق إلى الأنماط إياها؛ التي تنجم كلما تباعدنا أنا وآيريس: عمل كثير؛ طعام قليل؛ ليال تضطرب بالأرق. مع آيريس بجواري في السرير، أغفو دائمًا، لكن في اللحظة التي تبتعد فيها، أخشى من مجرد إغماض عينيّ. تصبح كل ليلة أثقل من سابقتها تدريجيًّا، وفي أي لحظة، أسهر مع المصباح حتى الواحدة أو الثانية أو الثالثة صباحًا. لا شيء من هذا مهم، ولكن لأنني كنت أعاني من نفس المشاكل أثناء غياب آيريس في الصيف الماضي، فقد كنت مستيقظًا عندما ظهر ساكس بشكل مفاجئٍ وغير متوقعٍ في ڤيرمونت. كانت الساعة تقترب من الثانية فجرًا، وأنا مستلقٍ على السرير بالطابق العلوي أقرأ رواية بوليسية تافهة؛ عن لغز جريمة قتل، تركها بعض الضيوف منذ سنوات، عندما سمعتُ صوت سيارة تسير على الطريق الترابي. رفعت عيني عن الكتاب، منتظرًا أن تتحرك السيارة إلى ما وراء المنزل، ولكن بعد ذلك، تباطأ المحرك بشكل لا لبس فيه، واكتسح شعاع المصابيح الأمامية نافذتي،

واستدارت السيارة، واندفعت نحو شجيرات الزعرور عندما توقفتْ في الفناء. ارتديتُ بنطالًا وهُرِعت إلى الطابق السفلي، ووصلت إلى المطبخ بعد ثوانٍ فقط من إيقاف تشغيل المحرك. لم يكن هناك وقت للتفكير. ذهبتُ مباشرة إلى الأواني الموجودة على المنضدة، وأمسكت بأطول سكينٍ تمكنتُ من العثور عليها، ثمَّ وقفتُ هناك في الظلام، منتظرًا من يدخل. اعتقدتُّ أنه لصٌّ أو مجنون، وطوال مدة العشر أو العشرين ثانية التالية، كنت خائفًا كما لم أكن في حياتي.

أُضيءَ المصباح قبل أن أتمكن من مهاجمته. كانت حركةً تلقائيةً بالدخول إلى المطبخ وتشغيل الضوء، وفي اللحظة التي أُحبط فيها الكمين الذي أعددته، أدركت أن ساكس هو الشخص الذي فعل ذلك. كان هناك أصغرُ فاصلٍ بين هذين التصورين، فيه أسلمتُ نفسي للموت. سار في الغرفة ثلاث أو أربع خطوات ثمَّ جَمَد. حصل ذلك عندما رآني واقفًا في الزاوية والسكين مشهرًا ما يزال في الهواء، وجسدي جاهزًا للانقضاض.

قال: «يا إلهي! إنه أنت!!»

حاولت قولَ شيء، لكن لم تخرج الكلمات من فمي. قال ساكس، وهو ما يزال يحدقُ بي غير مصدق:

- رأيت النور. ظننتُ أنها فاني.
- لا. لستُ فاني.
- لا، كما هو واضح.
- ولكن هذا ليس أنت أيضًا. لا يمكن أن تكون أنت، أليس كذلك؟ أنت ميت. الجميع يعرف ذلك الآن. أنت ترقدُ في حفرةٍ في مكان ما في حافة الطريق، تتعفن تحت كومة من أوراق الشجر.

***

لقد استغرق الأمرُ بعضَ الوقت للتعافي من الصدمة، لكنه ليس طويلًا، ليس بالقدر الذي كنت أتخيَّله. كان يبدو بحالة جيدة، كما اكتشفت، ثاقب الفكرة ومتّسقًا كما رأيته في أي وقت مضى، وباستثناء اللون الرمادي الذي انتشر في شعره الآن، كان في الأساس نفس الشخص الذي كان عليه دائمًا. لعل ذلك طمأنني. لم يكن طيفًا هذا الذي عاد، كان هو ساكس السالف، نابضًا بالحيوية ومهذارًا كما كان دائمًا. بعد خمس عشرة دقيقة من دخوله المنزل، كنت بالفعل قد تعوّدتُ عليه مرة أخرى، كنت بالفعل على استعدادٍ لقبول أنه على قيد الحياة. قال إنه لم يكن يتوقع أن يصطدم بي، وقبل أن نجلس ونبدأ في الحديث، اعتذر عدة مرات لأنه بدا مذهولًا للغاية. في ظل هذه الظروف، شككْتُ في أن أي اعتذار كان ضروريًّا. «السكين هي السبب»، قلتُ. «لو أنني دخلت إلى هنا ووجدت شخصًا على وشك طعني، أعتقد أنني كنت سأذهل أيضًا».

- ليس الأمر أنني غير سعيد برؤيتك. لم أكن أتوقع ذلك، هذا كل شيء.
- ليس عليك أن تكون سعيدًا. بعد كل هذا الوقت، لا سبب يدعوك لأن تكون سعيدًا.
- أنا لا ألومك على شعورك بالاكتواء.
- لا. على الأقل لم أشعر بذلك حتى اللحظة. أعترفُ أنني كنت حانقًا في البداية، لكن هذا ذهب بعدَ بضعة أشهر.
- ولاحقًا؟
- ثمَّ بدأت أشعر بالخوف عليك. أعتقد أنني كنت خائفًا منذ ذلك الحين.
- وماذا عن فاني؟ هل كانت خائفة أيضًا؟
- فاني أكثر شجاعة منّي. لم تتوقف أبدًا عن التفكير في كونك على قيد الحياة.

ابتسمَ ساكس، وبدا سعيدًا بما قلته. حتى تلك اللحظة، لم أكن متأكدًا ما إذا كان يخطّطُ للبقاء أو الرحيل، ولكنه فجأة سحب كرسيًّا من طاولة المطبخ وجلس، مُتصرفًا وكأنه قد توصّل للتَّو إلى قرارٍ مهم.

سأل: «ماذا تدخن هذه الأيام». بينما ينظر إليّ والابتسامة ما تزال تعلو وجهه.

- السيجار الذي أدخّنهُ دائمًا.
- جيد. دعنا نحصل على سيجارين من سجائرك، وبعد ذلك ربما زجاجةٌ ما لنشربها.
- لا بدَّ أنك متعب.
- بالطبع أنا متعَب. لقد قطعت للتَّو أكثر من 600 كيلومتر، والساعة الآن الثانية صباحًا. لكنك تريدني أن أحدِّثكَ، أليس كذلك؟
- يمكن لذلك الانتظار حتى الغد.
- هناك احتمال أن أفقد جُرأتي بحلول الغد.
- وهل أنت مستعدٌّ للحديث الآن؟
- نعم، أنا مستعدٌّ للتحدث. إلى أن قدمتُ إلى هنا ورأيتك تحمل هذا السكين، لم أكن لأقول كلمة واحدة. كانت هذه هي الخطة دائمًا: ألّا أقول شيئًا، وأحتفظ بكل شيءٍ لنفسي. ولكن أعتقد أنني غيرتُ رأيي الآن. لا يعني ذلك أن هناك ما لا أستطيع التعايش معه، ولكن خطر لي فجأة أن شخصًا ما يجب أن يعرف. تحسبًا لحدوث شيءٍ ما لي.
- لماذا يجب أن يحدث لك أي شيء؟
- لأنني في موضعٍ خطير، هذا هو السبب، وحظي قد ينفد.
- لكن لماذا تخبرني أنا؟
- لأنك أعزُّ أصدقائي، وأنا أعلم أنه يمكنك حفظُ سرّي.

توقفَ للحظةٍ ونظر في عينيّ مباشرة.

- يمكنك الاحتفاظ بسرٍّ، أليس كذلك؟

- أظن ذلك. ولكي أكون صادقًا، لست متأكدًا من أنني سمعت سرًّا من قبل. لست متأكدًا من أنه كان لديَّ واحد لأحتفظ به.

هكذا بدأ الأمر: بهذه الملاحظات الغامضة والتلميحات عن كارثة وشيكة. وجدتُ زجاجة بوربون في المخزن، جمعتُ كأسين نظيفين من لوح التنشيف، ثمَّ تقدمتُ ساكس عبر الفناء إلى الأستوديو. هناك كنت أحتفظ بسجائري، وخلال الساعات الخمس التالية كان يدخن ويشرب، ويكافح الإرهاق وهو يروي قصته لي. كنا نجلس على كراسي بذراعين، ونواجه بعضنا البعض عبر منضدةِ عَمَلي المزدحمة، وفي كل ذلك الوقت لم يتحرك أيٌّ منّا. ذوت الشموع في كل مكان حولنا، تومضُ وتتقطعُ بينما تمتلئ الغرفة بصوته. تحدثَ وأنصتُّ له، وعرفتُ شيئًا فشيئًا كل ما قلتُه حتى الآن. حتى قبل أن يبدأ، كنت أعرف أن شيئًا غير عاديٍّ قد حدث له. وإلا لما كان سيختبئ لفترة طويلة؛ لما كان ليواجه الكثير من المتاعب فقط كي يجعلنا نعتقد أنه مات. كان هذا واضحًا، والآن بعد أن عاد ساكس، كنت على استعدادٍ لقبول أكثر الإفصاحات شناعةً، والإنصات إلى قصة لم أكن لأحلم بها من قبل. لم يكن الأمر أنني كنت أتوقع منه أن يروي «هذه القصة بالذات»، لكنني علمتُ أنها ستكون شيئًا من هذا القبيل، وعندما بدأ ساكس أخيرًا اتكأ على كرسيه قائلًا: «أفترضُ أنك سمعت عن شبح الحرية» كنتُ بالكاد أرمش. قلت: «إذًا، هذا ما كنت تفعله!»، قاطعتُه قبل أن يتمكن من المضي قدمًا. «أنت الرجل الصغير المُضحك الذي كان يفجّر كل تلك التماثيل. وظيفةٌ حسنةٌ إن كنت تستطيع المضي بها، ولكن من على وجه الأرض اختارك لتكون ضمير العالم؟ آخر مرةٍ رأيتك فيها، كنت تكتب رواية».

استغرق الأمرُ منه بقية الليل للإجابة على هذا السؤال. حتى في ذلك الوقت، كانت هناك فجوات وثغراتٌ في المسألة لم أتمكن من ملئها. بشكل تقريبي، يبدو أن الفكرة قد وصلت إليه على مراحل، بدءًا من الصفعة التي شهدها بعد ظهر يوم الأحد في بيركلي وانتهت بتفكك علاقته مع ليليان. فيما بينهما، كان هناك استسلام تدريجي لديماجيو، وهوسٌ متزايدٌ بحياة الرجل الذي قتله.

قال ساكس: «وجدتُّ أخيرًا الشجاعة للدخول إلى غرفته. هذا ما بدأ الأمر، كما أعتقد، تلك كانت الخطوة الأولى نحو أيّ نوع من الإجراءات الحقيقية. حتى ذلك الحين، لم أفتح الباب حتى. كنتُ خائفًا، أظنني كنت خائفًا جدًّا مما قد أجدُه إذا شرعت في البحث. لكن ليليان عادت إلى الخروج، وماريا ذهبت إلى المدرسة، وكنت أجلس وحدي في المنزل، وأشرعُ في فقدان عقلي ببطء. من البديهي أن معظم متعلقات ديماجيو قد أُخرجت من الغرفة. لم يتبق شيء شخصيّ؛ لا رسائل أو وثائق، ولا مذكرات أو أرقام هواتف، ولا أدلة عن حياته مع ليليان. لكنني عثرت على بعض الكتب. ثلاثة أو أربعة مجلدات لماركس، سيرة باكونين، كتيب لتروتسكي عن العلاقات العرقية في أميركا، هذا النوع من الكتب. وبعد ذلك، وجدتُّ نسخة من رسالته، تقبع في ملف أسود في الدرج السفلي من مكتبه. كان هذا هو المفتاح. لو لم أجدها، فلا أعتقد أن أيًّا من الأشياء الأخرى كان سيحدث. لقد كانت دراسةً عن أليكساندر بيركمان- إعادة تقييم لحياته وأعماله في أربعمائة وخمسين صفحة مفردة- أنا متأكد أنَّ الاسم قد عرض لك. بيركمان هو الأناركي الذي أطلق النارَ على هنري كلاي فريك: الرجل الذي صار منزله الآن متحفًا في الجادة الخامسة. كان ذلك خلال إضراب عمال شركة فولاذ هومستيد في عام 1892، عندما استدعى فريك جيشًا من شركة بنكرستونز وأطلق النار على العمال. كان بيركمان في العشرين من عمره، وكان شابًّا يهوديًّا راديكاليًّا هاجر من روسيا قبل بضع سنوات فقط، وسافر إلى بنسلفانيا وطارد فريك

بمسدس، على أمل القضاء على رمز القمع الرأسمالي هذا. نجا فريك من الهجوم، وألقي بيركمان في إصلاحية حكومية لمدة أربعة عشر عامًا. بعد إطلاق سراحه، كتب «مذكرات أناركي في السجن»، واستمر في الانخراط في العمل السياسي، معظمه مع إيما جولدمان. كان محررًا لمجلة «أمّنا الأرض»، وساعد في تأسيس مدرسة تحررية، وألقى خطبًا، وحشد لقضايا مثل إضراب عمال نسيج مدينة لورانس، وما إلى ذلك. عندما دخلت أميركا الحربَ العالمية الأولى وُضع في السجن ثانية، هذه المرة لتحدثه علانية ضدَّ التجنيد الإلزامي. بعد عامين، حيث لم يمض وقتٌ طويل على إطلاق سراحه، رُحّل هو وإيما جولدمان إلى روسيا. في عشاء الوداع قبل مغادرتهما، وردت أنباء عن وفاة فريك في الليلة نفسها. كان تعليق بيركمان الوحيد: «رُحِّلَ بأمر الله» بيان رائع، أليس كذلك؟ في روسيا، لم يستغرقِ الأمرُ وقتًا طويلًا حتى أصيب بخيبة أمل. شعر أن البلاشفة خانوا الثورة، وحلَّ نمطٌ من الاستبداد محل نمطٍ آخر. بعد سحق تمرد كرونشتاد في عام 1921، قرر الهجرةَ من روسيا للمرة الثانية. استقر في النهاية في جنوب فرنسا، حيث عاش السنوات العشر الأخيرة من حياته. كتب «أبجدية الأناركية الشيوعية»، واعتاش على القيام بالترجمات والتحرير وكتابة الظل، لكنه ما انفكَّ بحاجة إلى مساعدة الأصدقاء من أجل البقاء. بحلول عام 1936، صار متقززًا للغاية من الحياة، وعوضًا عن الاستمرار في مدِّ يده، حمل بها مسدسًا وأطلق النارَ على رأسه. كانت أطروحة جيدة. خرقاء ومدرسية قليلًا في بعض المواضع، إلا إنها مدروسة جيدًا ومتّقدة، عملٌ مستفيضٌ وذكي. كان من الصعب عدم احترام ديماجيو لذلك، واكتشاف كم هو رجل ذو ذهنٍ صافٍ. وقياسًا إلى ما عرفته عن أنشطته اللاحقة، بات واضحًا أن الرسالة كانت أكثرَ من مجرد تمرينٍ أكاديمي. لقد كانت خطوةً في تطوُّره الداخلي، وطريقةً للتعامل مع أفكاره الخاصة حول التغيير السياسي. لم يفصح عن ذلك علنًا، لكن يمكنني القول إنه دَعَمَ بيركمان، وأنه آمن أن هناك مبررًا أخلاقيًا لأشكال معينة من العنف

السياسي. أن للإرهاب مكانه في النضال، إذا جاز التعبير. إذا تم توظيفه بشكل صحيح، يمكن أن يكون أداةً فعّالةً لتوضيح القضايا المطروحة، ولتنوير الجمهور بطبيعة السلطة المؤسسية. لم أستطع منع نفسي بعدها. بدأت أفكر في ديماجيو طوال الوقت، وأقارنُ نفسي به، وأتساءل عن كيفية اجتماعنا معًا على ذاك الطريق في ڤيرمونت. لقد شعرت بنوع من الانجذاب الكوني، طاقة سحبٍ لا هوادة فيها. لم تخبرني ليليان كثيرًا عنه، لكنني علمت أنه كان جنديًّا في فيتنام، وأن الحربَ قلبتهُ رأسًا على عقب، وأنه ترك الجيش بفهمٍ جديدٍ عن أميركا وعن السياسة وعن حياته الخاصة. أذهلتني فكرةُ أن دخولي السجن بسبب تلك الحرب، وقتاله فيها أوصلانا إلى نفس الموقع تقريبًا. صار كلانا كاتبًا، وكلانا عَلِمنا أن هناك حاجة إلى تغييراتٍ جوهرية، ولكن بينما بدأتُ أفقد نهجي، وأتغذّى على المقالات الهزيلة والسذاجة الأدبية، استمر ديماجيو في التطور، وواصل التقدم، وفي النهاية كان شجاعًا بما يكفي لوضع أفكاره على المحك. لا أقول إنَّ تفجير معسكرات قطع الأشجار فكرة جيدة، لكني كنت أحسده على امتلاك الجرأة اللازمة للعمل. لم أحرّك ساكنًا أبدًا في سبيل أي شي. جلستُ متذمرًا شاكيًا طوال خمسة عشر عامًا الماضية، ومع كل آرائي الإصلاحية ومواقفي المشحونة، لم أضع نفسي على الجبهة أبدًا. كنت منافقًا وديماجيو لم يكن كذلك، وعندما قستُ نفسي إليه، بدأت أشعر بالخجل.

فكرتي الأولى كانت كتابة شيء عنه. شيءٌ مشابه لما كتبه عن بيركمان، إنما أفضل، وأعمق، بفحصٍ حقيقيٍّ لجوهره. لقد خططتُ له أن يكون رثاءً، ونصبًا تذكاريًّا على هيئة كتاب. اعتقدت أنني إن تمكنتُ من القيام بهذا لأجله؛ فقد يمكنني البدء في استرداد روحي، وقد ينجم شيءٌ جيدٌ من وفاته. يلزمني التحدث إلى كثير من الناس، بالطبع، في جميع أنحاء البلاد، وجمع المعلومات، وإجراء المقابلات مع أكبر عدد ممكن من الأشخاص الذين يمكنني العثور عليهم: والداه وأقاربه، ورفاقه في الجيش، وزملاؤه في المدرسة، وزملاء المهنة، والصديقات القدامى، وأعضاء أطفال الكوكب، ومئات الأشخاص

المختلفين. سيكون مشروعًا هائلًا؛ كتابًا يستغرق منّي سنوات لإنهائه. كان هذا هو الهدف بطريقة ما. طالما كنت أكرس نفسي لديماجيو؛ فسأُبقيه على قيد الحياة. سأمنحه حياتي، كما يقال، وسيعيدُ لي حياتي بالمقابل، وأنا لا أطلب منك أن تفهم هذا؛ فأنا نفسي بالكاد أفهمه. لكنني كنت أتلمّسُ، كما تعلم، أتحركُ بشكلٍ أعمى بحثًا عن شيء أتشبثُ به، ولفترة قصيرة شعرت أن هذا خيار متماسكٌ، وأفضل من أي شيء آخر.

لم أبْلُغ به أي مكان أبدًا. جلستُ عدة مراتٍ لتدوين الملاحظات، لكنني لم أستطع التركيز، ولم أستطع تنظيمَ أفكاري. لم أعرف ما هي المشكلة. ربما ما يزال لدي فائض من الأمل أن الأمور ستنجح مع ليليان. ربما لم أصدق أنني سأتمكن من الكتابة مجددًا. الله وحده يعلم ما الذي منعني، لكنني في كل مرة حملتُ فيها قلمًا وحاولت البدء، كنت أتفصدُ عرقًا، ويدور رأسي، وأشعر كما لو كنت على وشك السقوط. تمامًا مثل المرة التي سقطت فيه من سلم النجاة. هو الذعر نفسه، الشعور ذاته بالعجز، الاندفاع نفسه نحو العدم.

ثمَّ حدث شيء غريب. كنت أسيرُ في جادة تليغراف ذات صباح لأركب سيارتي عندما لمحتُ شخصًا أعرفه من مدينة نيويورك. كال ستيوارت، محرر مجلة كنت قد كتبت مقالتين للرجوع إليه في أوائل الثمانينيات. كانت المرة الأولى التي أرى فيها شخصًا أعرفه منذ مجيئي إلى كاليفورنيا، وفكرةُ أنه قد يتعرّف علي أوقفتني تمامًا في ذهول. إن عرفَ شخصٌ ما مكان وجودي فسأنتهي، سأُدمّر تمامًا. تواريتُ في أول مدخل صادفته، فقط لأسحب نفسي من الشارع. اتَّضح أنه محلٌ لبيع الكتب، مكانٌ كبيرٌ بسقوفٍ عاليةٍ وستّ أو سبع غرف. مشيت كل المسافة إلى نهاية المحل واختبأتُ خلف صفٍّ من الأرفف العالية، وقلبي يخفق، محاولًا تجميع شتاتي. كان أمامي جبلٌ من الكتب، وملايين الكلمات مكدسة فوق بعضها البعض، عالمٌ كاملٌ من الأدب المهمَل؛ الكتب التي لم يعد يريدها الناس، والتي باعوها، والتي

تجاوزت صلاحيتها. لم أدرك ذلك في البداية، لكنني كنت أقف في قسم الروايات الأميركية، وهناك على مستوى العين، أول شيء رأيته عندما بدأت في النظر إلى العناوين، كانت نسخة من «التمثال الجديد»؛ مساهمتي الصغيرة في هذه المقبرة. لقد كانت صدفة مدهشة، شيء ما أصابني بشدةٍ إلى درجة شعرت أنها لا بد أن تكون بشارة.

لا تسألني لماذا اشتريته. لم يكن لديَّ نية لقراءة الكتاب، ولكن بمجرد أن رأيته هناك على الرَّف، عرفت أنني يجب أن أحصل عليه. الشيء المادي، الشيء نفسه. كلّفتني الطبعة الأصلية ذات الغلاف المقوى خمسة دولارات فقط، نسخةٌ كاملة بورقة الحماية والصفحات الأخيرة الأرجوانية. وصورتي على الغطاء الخلفي: صورة الفنان عندما كان شابًّا مغفلًا. التقطتْ فاني تلك الصورة، على ما أذكر. كان عمري ستة وعشرين أو سبعة عشرين عامًا حينها، بلحيتي وشَعري الطويل، وأنا أحدق في العدسة بمودةٍ خالصةٍ لا تصدقُ في عينيّ. لقد رأيتَ تلك الصورة، أنت تعرف أيها التي أتحدثُ عنها. عندما فتحتُ الكتاب ورأيتها في المتجر في ذلك اليوم، كدتُّ أنفجر من الضحك.

ما إنْ زال الخطر، غادرت المتجر وعدتُّ إلى منزل ليليان. أدركتُ أنني لا أستطيع البقاء في بيركلي بعد الآن. رؤية كال ستيوارت جمّدت الدم في عروقي، ووعيتُ فجأة مدى خطورة وضْعي، وكيف كنت أُعرّض نفسي للضياع. عندما عدتُّ إلى المنزل مع الكتاب، وضعتُه على طاولة القهوة في غرفة المعيشة وجلستُ على الأريكة. لم يعُد لديّ أي أفكار. توجّب عليَّ الرحيل، ولكن في نفس الوقت لم أستطعِ المغادرة، لم أستطع حمل نفسي على هجر ليليان. كنت قد خسرتُها للتَّو، لكنني لم أكن أرغب في تركها، لم أستطع مواجهة فكرة عدم رؤيتها مرة أخرى. لذلك جلستُ هناك على الأريكة، أحدق في غلاف روايتي، تتملكني مشاعرُ مَن اصطدم بجدارٍ حجري؛ لم أُنجز أي شيء في الكتابة عن ديهاجيو، أضعتُ أكثر من ثلث المال، أفسدتُّ

كل أملٍ بنجاتي. بدافع البؤس الخالص، أبقيتُ عينيّ مثبتتين على غلاف الكتاب. مر وقت طويل تراءى لي أنني لم أكن حتى أراه، ولكن بعد ذلك، وشيئًا فشيئًا، بدأ شيء ما يحدث. لا بد أن الأمرَ استغرق ما يقرب من ساعة، ولكن ما إن استحوذت علي الفكرة، لم تُفلتني. تمثال الحرية، هل تذكره؟ ذاك الرسم المشوه الغريب لتمثال الحرية. كان هو البداية، وما إن أدركتُ إلى أين أتّجه، تبعني كل ما تبقى، ونَزَلَت الخطة الجريئة في مكانها.

أغلقتُ عددًا قليلًا من حساباتي المصرفية بعد ظهر ذلك اليوم، وتعهّدتُّ البقية في صباح اليوم التالي. كنتُ بحاجةٍ إلى رصيد نقديّ لأفعل ما كان علي القيام به، ما يعني نقض كافة التعهدات التي قمتُ بها، والاحتفاظ بباقي الأموال لنفسي بدلًا من إعطائها لليليان. ضايقني عدم إيفائي بوعدي، ولكن ليس بالقدر الذي كنتُ أتخيله؛ فقد منحتها بالفعل خمسة وستين ألف دولار، وحتى إن لم يكن كل شيء؛ فقد كان كثيرًا من المال، وأكثر بكثيرٍ مما كانت تتوقع مني أن أعطيها. سيأخذني مبلغ 91 ألفًا الذي مازلت أملكه بعيدًا، لكن لم تكن الفكرة كما لو كنت سأنفقه على نفسي. كان الغرض الذي ابتكرته من أجل هذا المال ذا دلالةٍ تمامًا مثل خطتي الأصلية. أكثرُ دلالةً، في الواقع. لن أستخدمه فقط في تنفيذ عمل ديماجيو، ولكنني سأستخدمه للتعبير عن قناعاتي الخاصة، واتخاذُ موقفٍ تجاه ما كنت أؤمن به، ولإحداث نوع من الاختلاف الذي لم أتمكن من إحداثه من قبل. فجأة، بدت حياتي منطقيةً بالنسبة لي. ليس فقط الأشهر القليلة الماضية، ولكن حياتي كلها، طوال طريق العودة إلى بدايتها. كان اقترانًا إعجازيًّا، ووصلًا مذهلًا بين الدوافع والطموحات. لقد وجدت المبدأ التوحيدي، وهذه الفكرة ستجمع كل القطع المكسورة في نفسي معًا. لأول مرة في حياتي، سأكون إنسانًا كاملًا.

لا يمكنني البدء في نقل قوة سعادتي إليك. شعرتُ بالحرية مرة أخرى، وتحررت تمامًا بناءً على قراري. لم يكنِ الأمر أنني أردت ترك ليليان وماريا، ولكن كانت هناك أشياء أكثر أهمية ينبغي العناية بها الآن، وما إن فهمتُ ذلك، تلاشت كل مرارةِ ومعاناةِ الشهر الماضي من قلبي. لم أعُد مسحورًا. شعرت بالإلهام والنشاط والتطهير. تقريبًا مثل رجلٍ وجد الدين. مثل رجلٍ سمِعَ النداء. توقف العمل غير المكتمل في حياتي فجأة عن كونه مهمًّا. كنتُ مستعدًّا للخروج إلى العَراء ونشر الرسالة، ومستعدًّا للبدء من جديد.

إذا نظرتُ إلى الوراء الآن، أرى كم كان من العبث تعليق آمالي على ليليان. كان الذهاب إلى هناك ضربًا من الجنون، وعملًا يائسًا. كان من الممكن أن ينجح الأمر لو لم أكن قد وقعت في حبها، ولكن بمجرد حدوث ذلك، حُكم على المشروع بالفشل. لقد وضعتها في مأزقٍ عصيب، ولم تكن تعرف كيف تتعامل معه. أرادت المال، ولم تكن تريده. جعلتُها جشعةً وأذلّها جشعُها، أرادتني أن أحبها، وكرهت نفسها لأنها أحبتني بالمقابل. أنا لا ألومها على إلقائي في الجحيم بعد الآن. ليليان شخص جامح. ليست جميلة فحسب، كما تعرف، بل متوهجة، ولا تخشى شيئًا، وخارج نطاق السيطرة، مستعدةٌ لأي شيء، ولم تتح لها الفرصة لتكون على سجيتها معي.

في النهاية، لم يكنِ الشيء الرائع أنني غادرت، بل تمكُّني من البقاء قدر ما بقيت. كانت الظروف غريبة جدًّا، وخطيرةً للغاية وغير مستقرة، وأعتقد أنها بدأت في تحريك عواطفها. هذا ما علِقت فيه، لا أنا، إنها إثارةُ وجودي هناك، والغموض الذي مثّلتُه. كان الوضع محفوفًا بكل أنواع الاحتمالات العاطفية، وبعد فترة لم تعد تستطع مقاومتها، سمحتْ لنفسها بالذهاب إلى أبعدَ مما كانت تنوي عليه. ليس بالطريقة الغريبة وغير المعقولة التي قابلتْ بها ديماجيو. تلك أدَّت إلى الزواج. في حالتي، أدّى ذلك إلى شهر عسل، هذين الأسبوعين المبهرين حيث لم يحدث شيء يمكنه أن يعكر صفونا، ولم نكترث

بما يحدث بعد ذلك. لم نتمكن من إدامة بقائه، وعاجلًا أم آجلًا كانت ستبدأُ في اللف والدوران مرة أخرى، وستنزلق إلى سيرتها السالفة. ولكن بينما دام ذلك، لا أظن أن هناك أيَّ شك بأنها كانت مغرمة بي، وكلما بدأت في الشك في ذلك، عليَّ فقط أن أتذكر الدليل؛ كان بإمكانها تسليمي إلى الشرطة، لكنها لم تفعل. حتى بعد أن أخبرتُها أن المال قد نفد. حتى بعد ذهابي. لو لم يكن مِن شيء، فهذا يثبت أنني عنيتُ شيئًا لها. إنه يثبت أنَّ كل ما جرى معي في بيركلي حدث بالفعل.

لكن لا ندم. ليس بعد الآن على الأقل. كل هذا ورائي. انتهى وصار أثرًا بعد عين. كان الجزء الصعب هو الاضطرارَ إلى ترك الفتاة الصغيرة. لم أكن أعتقد أن ذلك سيؤثر بي، لكنني افتقدتها لزمن طويل، أكثر بكثير مما افتقدتُ ليليان على الإطلاق. عندما كنت أقود سيارتي غربًا، وبدأت أفكر في الذهاب إلى كاليفورنيا، فقط للبحث عنها وزيارتها. لكنني لم أفعل أبدًا. خشيتُ ما قد يحدث إذا رأيت ليليان ثانيةً، لذلك أبقيت نفسي بعيدًا عن كاليفورنيا، ولم تطأ قدماي الولاية منذ صباح اليوم الذي غادرتُها فيه. ثمانية عشر، أو تسعة عشر شهرًا. حاليًّا، قد تكون ماريا نسيَت من أنا. ذات مرة، قبل أن تنهار الأمور مع ليليان، اعتدتُ فكرة أني سأنتهي إلى تبنّيها، وأنها ستصبح ابنتي بالفعل. فكرت أن الأمر سيكون جيدًا لها، ولكلينا، لكن فات أوان الحلم بذلك الآن. أظن أنه لم يكن من المقدر لي أن أكون أبًا. لم ينجح الأمر مع فاني، ولم ينجح مع ليليان. بذورٌ صغيرة. قليلٌ من البيض والبذور. تحصل على فرصٍ كثيرة، وبعد ذلك تجرفك الحياة، ثمَّ ينتهي بك الأمر وحيدًا إلى الأبد. لقد أصبحتُ ما أنا عليه الآن، وليس هناك عودة. هذا هو بيتر. إلى أقصى ما يمكنني المحافظة عليه، سيبقى كما هو».

***

بدأ بعد ذلك يلقي الكلام على عواهنه. كانت الشمس قد أشرقت بحلول ذلك الوقت، وكان ألفُ طائرٍ يغني على الأشجار: القبرات، والحساسين، والطيور المغردة، جوقة الصباح بكامل قوتها. ساكس كان يتحدثُ لساعات طويلة، ولم يعد يعرف ما يقوله بعد الآن. حين بدأ الضوء يتدفق عبر النوافذ، استطعتُ أن أرى عينيه على وشك الانغلاق رغمًا عنه. قلت: «يمكننا مواصلة الحديث لاحقًا. إذا لم تستلقِ وتنام قليلًا، فمن المحتمل أن يغمى عليك، ولست متأكدًا من أنَّني قوي بما يكفي لأحملك إلى المنزل».

وضعتُه في إحدى غرف النوم الفارغة في الطابق الثاني، وأنزلتُ الستائر، ثم عدتُّ إلى غرفتي. كنت أشكُّ في أنني سأتمكن من النوم. كان هناك الكثير من الأشياء التي لا بدَّ لي من هضمها، والعديد من الصور التي تتخبّط في ذهني، لكن في اللحظة التي لامسَ فيها رأسي الوسادة بدأتُ أفقد وعيي. شعرت وكأنني تعرضتُّ للضرب بالهراوات، كما لو أن جمجمتي قد تحطَّمت بحجر. بعض القصص قد تكون فظيعة، والحل الوحيد لاستيعابها هو الهرب؛ أن تدير لها ظهرَك وتتملص في الظلام.

استيقظتُ في الثالثة بعد الظهر. وواصل ساكس النوم لمدة ساعتين أو ساعتين ونصف إضافية، وفي الفاصل الزمني كنت أتجول في الفناء، وأبقى خارج المنزل حتى لا أزعجه. النوم لم ينفعني. كنت لا أزال مخدرًا لدرجة أنني لا أستطيع التفكير، وإذا كنتُ قد تمكنتُ من إشغال نفسي خلال تلك الساعات، فقد كان ذلك فقط من خلال التخطيط لقائمة العشاء في تلك الليلة. لقد جاهدتُّ في كل قرار، ووزنتُ كل المزايا والعيوب كما لو أن مصير العالم يعتمد عليها: طهي الدجاج في الفرن أو على الشواية، تقديم الأرز أو البطاطس، وإن كان هناك ما يكفي من النبيذ في الخزانة. من الغريب كيف يعود كل هذا لي الآن بوضوح. لقد أخبرني ساكس للتو كيف قتل رجلًا، وكيف أمضى العاميْن الماضيين يتجول في البلاد هاربًا، وكل ما كنت أفكر

فيه هو ما الذي يجب علي أن أُعدَّه على العشاء. كان الأمر كما لو أنني كنت بحاجةٍ إلى التظاهر بأن الحياة لا تزال تتكون من مثل هذه التفاصيل الدنيوية. لكن هذا سببهُ فقط أنني كنت أعلم أنها لم تكن كذلك.

سهرنا مرَّة أخرى إلى وقت متأخر من تلك الليلة، وتحدثنا خلال العشاء وحتى الساعات الأولى من الصباح. كنا في الخارج هذه المرة، متربعيْن على كراسي من طراز اديروندك؛ التي لطالما جلسنا عليها بالداخل في العديد من الليالي على مرِّ السنين: صوتان غير مجسدين في الظلام، غير مرئيّين لبعضنا البعض، لا نرى شيئًا إلا عندما يشعلُ أحدنا عود ثقاب فينير وجوهنا لفترة وجيزةٍ بين الظلال. أتذكر نهايات السيجار المتوهجة، واليراعات التي تنبض في الأحراش، وسماءً حافلةً بالنجوم. الأشياء نفسها التي أتذكرها من ليالٍ عديدة أخرى في الماضي. ساعدني ذلك في الحفاظ على هدوئي، على ما أعتقد، ولكن أكثر من المكان كان هناك ساكس نفسه. لقد أنعشهُ النوم الطويل، ومنذ البداية كان يتحكم في المحادثة بشكل كامل. لم يكن هناك شكٌّ في صوته، ولا شيء يجعلني أشعر أنني لا أستطيع الوثوق به. كانت تلك الليلة التي أخبرني فيها عن شبح الحرية، ولم يبدُ كأنه يعترف بجريمة إطلاقًا. لقد كان فخورًا بما قام به، متصالحًا مع نفسه بشكل لا يتزعزع، وتحدّثَ بتأكيدات فنانٍ يعرف أنه قد أنجز للتَّو أهمَّ أعماله.

لقد كانت حكاية طويلة مدهشة، وملحمة من الرحلات والتخفي، ومن الهدوء والجنون وهروب اللحظة الأخيرة. إلى أن سمعتها من فم ساكس، لم أكن لأخمن أبدًا مقدار العمل المبذول في كل انفجار: أسابيع من التخطيط والتحضير، والطرق المعقدة والملتفّة لتجميع المواد لبناء القنابل، والأعذار الدقيقة والخداع، والمسافات التي كان لا بدَّ من قطعها. بمجرد اختيار المدينة، كان عليه أن يجد طريقةً لقضاء بعض الوقت هناك دون إثارة الشكوك. كانت الخطوة الأولى هي اختلاقَ هويةٍ وقصةَ تغطيةٍ، وبما أنه لم يكن نفس الشخص

مرتين، فقد اختبر قدراته في الابتكار باستمرار. كان دائمًا يحمل اسمًا مختلفًا، لطيفًا وصعب التذكر قدر استطاعته (إد سميث، آل جودوين، جاك وايت، بيل فوستر)، ومن عمليةٍ إلى أخرى، فعل ما بوسعه لإحداث تعديلات طفيفة في مظهره الجسدي (بدون لحية مرة، ملتح بأخرى، ذو شعر داكن في مكان، شَعر فاتح في المكان الذي يليه، يرتدي نظارة أو لا يرتدي نظارة، يرتدي بذلة أو يرتدي ملابس العمل، مجموعة من المتغيرات التي قد يخلطها بتشكيلاتٍ مختلفةٍ تخصُّ كل مدينة) ومع ذلك، كان التحدي الأساس هو التوصلَ إلى سبب للوجود هناك، وعذرٍ مقبولٍ لقضاء عدة أيام في مجتمعٍ لا يعرفه فيه أحد. قدّم نفسه مرةً كأستاذ جامعي؛ عالم اجتماع يجري بحثًا لكتاب عنِ الحياة والقيم الأميركية في بلدة صغيرة. مرة أخرى، تظاهر بأنه في رحلة وجدانية؛ طفلٌ بالتبني يبحث عن معلومات عن والديه البيولوجيّن. مرة أخرى كان رجل أعمال يأمل في الاستثمار في العقارات التجارية المحلية. مرة أخرى كان أرمل، فقدَ زوجته وأطفاله في حادث سيارة، وكان يفكر في الاستقرار في بلدةٍ جديدة.

ثم، بشكلٍ منحرفٍ كليًّا، ما إن صنع الشبح اسمًا لنفسه ظهر في مدينة صغيرة في نبراسكا كمراسلٍ صحفي، يعمل على مقال خاص حول مواقف وآراء الأشخاص الذين يعيشون في أماكن بها نسخها المقلدة الخاصة من تمثال الحرية. سألهم عن آرائهم في التفجيرات؟ وماذا يعني التمثال لهم؟ قال إنها كانت تجربةً محطِّمة للأعصاب، لكنها تستحق كل دقيقة.

في وقت مبكر، قرر أن الانفتاح هو الإستراتيجية الأصلح، وأفضل طريقةٍ لتجنُّب خلق انطباع خاطئ. وبدلًا من أن يتسكع مُخفيًا نفسه قام بتبادل أطراف الحديث مع الناس، وسحرهم، وجعلهم يرونه رجلًا طيبًا نوعًا ما. هذا الود امتلكه ساكس بشكل طبيعي، وأعطاه مساحة التنفس التي يحتاجها. ما إن يعرف الناس سببَ وجوده هناك، لن ينزعجوا من رؤيته

يتجول في المدينة، وإذا مرَّ على موقع التمثال عدة مرات أثناء سيره، فلن ينتبه أحد. وبالمثل مع الجولات التي قام بها بعد حلول الظلام؛ حيث كان يقود سيارته عبر البلدة المغلقة في الثانية صباحًا للتعرف على أنماط حركة المرور، لحساب احتمالات وجود أي شخص في الجوار عندما يزرع القنبلة. كان يفكر في الانتقال إلى المدينة، في نهاية الأمر، ومَن يستطِع أن يلومه إذا أراد التعود على المكان بعد غروب الشمس؟ لقد أدرك أنه عذرٌ واهٍ، لكن هذه النزهات الليلية كانت حتمية، وإجراءً احترازيًّا ضروريًّا؛ لأنه لم يكن عليه حماية نفسه فقط، بل كان عليه التأكد من عدم إصابة أي شخص على الإطلاق؛ مشرّدٌ ينام عند قاعدة التمثال، مراهقان يتعانقان على العشب، رجل يخرج مع كلبه في منتصف الليل. لن يتطلب الأمر سوى قطعة واحدة من الحجر أو المعدن المتطاير لقتل شخص ما، وهذا سيتسبَّب في تدمير القضية برُمَّتها. كانت هذه أكبر مخاوف ساكس، وقد بذل جهودًا هائلة للحماية من الحوادث؛ كانت القنابل التي صنعها صغيرةً، وأصغر بكثيرٍ مما كان يودّ، وعلى الرغم من أن ذلك يزيد المخاطر، إلا إنَّه لم يضبط الموقّت أبدًا بحيث ينفجر بعد أكثر من عشرين دقيقة من قيامه بربط المتفجرات بتاج التمثال. لم يكن هناك شك أنه لن يمرَّ أحد خلال تلك الدقائق العشرين، ولكن من عسى يضمن ذلك بعد ساعة؟ وبالنظر إلى طبيعة تلك المدن، كانت الفرص ضئيلة.

إلى جانب كل شيء آخر، قدم ساكس كميات هائلة من المعلومات التقنية في تلك الليلة، دورة مكثفة في تقنية بناء القنابل. أعترف أن معظمها لم أفهمه. ليس لدي موهبة في الأشياء التقنية، وقد صعَّب جهلي عليَّ متابعة ما قاله. لقد فهمتُ الكلمات العرضية، كالمصطلحات مثل: المنبه، والبارود، وصمام الإشعال، لكن البقية كانت غير مفهومة لي، لغة أجنبية لم أستطع اختراقَها. ومع ذلك، بناءً على طريقة حديثه، أدركتُ أن قدرًا كبيرًا من البراعة كان متضمِّنًا. لم يعتمد على أي صيغٍ مُعدةٍ مسبقًا، ومع العبء الإضافي المتمثل في الاضطرار إلى تغطية آثاره، فقد بذل مجهودًا كبيرًا لاستخدام المواد المنزلية

الشائعة فقط، وتجميع متفجراته من أشياء متفرقة لا قيمة لها يمكن العثورُ عليها في أي متجر معدات. لا بد أنها كانت عملية شاقة، التِّرحال إلى مكان ما فقط لشراء ساعة، ثم القيادة لمسافة ثمانين كيلومترًا على الطريق لشراء بكرةٍ من الأسلاك، ثمَّ الذهاب إلى مكان آخر لشراء حزمة من الشريط اللاصق. لم تكن أي عملية شراء أكبر من عشرين دولارًا على الإطلاق، وكان حريصًا على تجنب استخدام أي شيء سوى النقد في كل متجر، في كل مطعم، في كل فندق متهالك. يقتصر الأمر في الدخول والخروج على: مرحبًا ووداعًا. ثمَّ يختفي، كما لو أن جسده ذاب في الهواء. كان عملاً شاقًّا، لكن بعد عام ونصف لم يكن قد خلّفَ وراءه أي أثر.

كان لديه شقة رخيصة في الجانب الجنوبي من شيكاغو، استأجرها باسْم ألكسندر بيركمان، لكنها كانت ملجأً أكثر من منزل، ومكانًا للتوقف بين الرحلات، فلم يقضِ أكثر من ثلث وقته هناك. مجرد التفكير في حياته جعلني أشعر بعدم الارتياح. الحركة المستمرة، وضغط التظاهر دائمًا بأنك شخص آخر، والوحدة. لكن ساكس تجاهل هواجسي كما لو أنها ليست بذات أهمية. قال إنه كان منشغلًا للغاية بما يفعله عن أن يفكر في مثل هذه الأمور. إذا كان قد خلق أي مشكلة لنفسه، فهي فقط في كيفية التعامل مع النجاح. مع ازدياد سمعة الشبح بشكل مطرد، أصبح من الصعب أكثر فأكثر العثورُ على أي تماثيل للهجوم عليها. تم حراسة معظمها الآن، وبينما استغرق الأمر في البداية من أسبوع إلى ثلاثة أسابيع لإنجاز مهامه، فقد ارتفع متوسط الوقت إلى ما يقرب من شهرين ونصف. في وقت سابق من ذلك الصيف، أُجبر على التخلي عن مشروع في اللحظة الأخيرة، وتم تأجيل العديد من المشاريع الأخرى حتى فصل الشتاء، حيث ستؤدي درجات الحرارة الباردة بلا شك إلى تراخي عزيمة الحراس طوال الليل. لكن مع ذلك، مقابل كل عقبة ظهرت، كانت هناك فائدة تعويضية، وهي علامة أخرى تثبت مدى انتشار نفوذه. في الأشهر القليلة الماضية، كان شبح الحرية موضوع افتتاحياتِ

وعظاتٍ. نوقش موضوعُه في البرامج الإذاعية التي تتلقى الاتصالات، وجرى تصويره في الرسوم الكاريكاتورية السياسية، وانتُقد باعتباره تهديدًا للمجتمع، وأُشيد به كرجلٍ من الشعب. كانت قمصانُ وأزرارُ شبح الحرية معروضةً للبيع في متاجر الهدايا، والنكات بدأت في الذيوع، وفي الشهر الماضي فقط قدّم راقصًا تعرٍّ في شيكاغو عرضًا نزعت فيها سيدةٌ تمثال الحرية ملابسها تدريجيًّا ثم أغواها الشبح. قال إنه كان يترك بصمةً أكبر بكثير مما كان يعتقد. وطالما أنه قادر على مواكبة الأمر، كان على استعداد لمواجهة أي إزعاج، وشقَّ طريقه من خلال أي مشقة. أدركتُ لاحقًا أن هذا هو الشيء الذي سيقوله المتعصب؛ اعترافٌ بأنه لم يعد بحاجة إلى حياةٍ خاصةٍ به بعد الآن، لكنه تحدث بتلك السعادة والحماس وعدم الشك، لدرجة أنني نادرًا ما فهمتُ المعنى الضمني من تلك الكلمات في حينه.

كان هناك المزيد ليقال. تراكمت شتى أنواع الأسئلة في ذهني، كان الفجر قد حلّ في ذلك الوقت، وكنتُ منهكًا إلى درجة أنني لم أتمكن من الاستمرار. وددتُ أن أسأله عن المال (كم تبقّى منه، وماذا كان سيفعل إذا نفد)؛ أردتُ معرفة المزيد عن انفصاله عن ليليان شتيرن؛ أردت أن أسأله عن ماريا تيرنر، وعن فاني، وعن مخطوطة «لوياثان» (التي لم يكلف نفسه عناءَ النظر إليها) كان هناك مائة خيطٍ مُرسل، واعتقدت أنّ لي الحق في معرفة كل شيء، وأنه ملزم بالإجابة على جميع أسئلتي. لكنني لم أدفعه للاستمرار. قلت لنفسي، سنتحدث عن هذه الأشياء خلال وجبة الإفطار، أما الآن فحان وقت النوم.

عندما استيقظتُ في وقت لاحق من ذاك الصباح، اختفت سيارة ساكس. افترضتُ أنه قاد سيارته إلى المتجر وسيعود في أي دقيقة، لكن بعد انتظار أكثر من ساعة حتى يعود، بدأت أفقد الأمل. لم أكن أريد أن أصدق أنه غادر دون أن يقول وداعًا، ومع ذلك علمتُ أن كل شيء ممكن. لقد ملصَ من الآخرين من قبل، ولماذا أظن أنه سيتصرف معي بشكل مختلف؟ أولًا فاني، ثمَّ ماريا

تيرنر، ثمَّ ليليان شتيرن. ربما كنتُ فقط آخر شخصٍ في سلسلة طويلة من حالات المغادرة الصامتة؛ شخص آخر شُطب من قائمته.

في الثانية عشرة والنصف، ذهبت إلى الأستوديو لأجلس مع كتابي. لم أكن أعرف ما سأفعل سوى ذلك، وبدلًا من الاستمرار في الانتظار بالخارج، والشعور بالتفاهة أكثر فأكثر وأنا أقف هناك منتظرًا سماع صوت سيارة ساكس، رأيتُ أن إلهاءَ نفسي ببعض العمل قد يساعد. عندها وجدتُّ رسالته. وضعها فوق مخطوطتي، ورأيتها في اللحظة التي جلست فيها على مكتبي.

«أنا آسف للتسلل خلسةً عنك بهذه الطريقة»، هكذا استهلها، «ولكني أعتقد أننا غطينا كل شيء تقريبًا. إذا بقيتُ في الجوار لفترة أطول فسيؤدي ذلك إلى حدوث مشكلة فقط. ستحاول ثنيي عمّا أفعله- لأنك صديقي، لأنك سترى أنها مسئوليتك تجاهي كصديق- ولا أريد أن أتشاجر معك، لا أملك طاقةً للجدال الآن. أيًّا كان ما تظنه بي فأنا ممتنٌّ لك على الاستماع. احتاجت القصة أن تُروى، ولكَ خيرٌ لها من أي شخص آخر. عندما يحين الوقت، ستعرف كيفية إخبار الآخرين بها، ستجعلهم يفهمون ما تدور حوله هذه القضية. كتبكَ تُثبت ذلك، في نهاية المطاف، أنت الشخصُ الوحيد الذي يمكنني الاتكال عليه. لقد ذهبتَ أبعدَ بكثيرٍ مما فعلتُ في أي وقت من حياتي، يا بيتر. أنا معجبٌ ببراءتك، وبسبب الطريقة التي تمسّكتَ بها بهذا الشيء الوحيد طوال حياتك. كانت مشكلتي أنني لم أستطع الإيمان بذلك. لطالما أردتُّ شيئًا آخر، لكنني لم أعرف أبدًا ما هو. الآن أنا أعلم. بعد كل الأشياء الفظيعة التي حدثت، وجدتُّ أخيرًا شيئًا لأؤمنَ به. هذا كل ما يهمني بعد الآن؛ التمسك بهذا الشيء الفريد. من فضلك لا تلُمني على ذلك، وقبل كل شيء، لا تشعر بالأسف من أجلي. أنا بخير. أفضل من أي وقت مضى. سأواصل إذاقتَهم الجحيم لأطول فترة ممكنة. في المرة القادمة التي تقرأ

فيها عن شبح الحرية، آمل أن تضحك جيدًا. امْضِ قُدمًا أيها الرجل العجوز. أراك في الصحف المضحكة. بن».

لا بدَّ أنني قرأت هذه المذكرة عشرين أو ثلاثين مرة. لم يكن هناك شيء آخر أفعله، واستغرقَ الأمرُ كلَّ هذا الوقت على الأقل لأمتص صدمة رحيله. تركتْني القراءات القليلة الأولى شاعرًا بالأذى والغضب منه بسبب هروبه لحظة إدارتي لظهري. ولكن بعد ذلك، وببطء شديد، بينما كنت أعبر الرسالة مرة أخرى، بدأت أعترفُ لنفسي على مضض أن ساكس كان على حق. كان من الممكن أن تكون المحادثة التالية أكثرَ صعوبة من غيرها. صحيحٌ أنني خططتُ لمواجهته، وأنني قررتُ أن أفعل ما بوسعي لثنيه عن الاستمرار. لقد شعر بذلك، على ما أظن، وبدلًا من السماح لأي غضاضة بالنمو بيننا؛ فقد غادر. لا أستطيع أن ألومه حقًّا على ذلك. لقد أراد أن تدوم صداقتنا، ولأنه كان يعلم أنَّ هذه الزيارة قد تكون آخر مرة نرى فيها بعضنا البعض، لم يكن يريد أن تنتهي بشكل سيّئ. كان هذا هو الغرض من الرسالة. لقد أنهى الأمور دونَ أن يقضي عليها. كانت طريقته في إخباري أنه لا يستطيع أن يقول وداعًا.

***

عاش لمدَّة عشرة أشهرٍ أخرى، لكنني لم أسمع شيئًا عنه مجددًا. ضربَ شبح الحرية مرتين خلال تلك الفترة: مرَّة في فيرجينيا ومرَّة في ولاية يوتا، لكني لم أضحك. الآن بعد أن عرفتُ القصة، لم أستطع أن أشعرَ بأي شيء سوى الحزن؛ حزنٌ لا يقاس. مرَّ العالم بتغيرات جذرية في تلك الأشهر العشْر. هُدم جدار برلين، وأصبح هافيل رئيسًا لتشيكوسلوفاكيا، وتوقفت الحربُ الباردة فجأة. لكن ساكس كان لا يزال هناك؛ بقعةً منعزلةً في الظلام الأميركي، مندفعًا نحو دماره في سيارة مسروقة. أينما كان، بتُّ معه الآن. كنت قد أعطيته وعدًا ألّا أقول شيئًا، وكلما احتفظت بسرِّه قلَّ انتمائي لنفسي.

يعلم الله من أين أتى عنادي، لكنني لم ألقِ أي تلميح لأحد. ليس لآيريس ولا لفاني وتشارلز ولا لأي نفسٍ حيّة. لقد تحملتُ عبء هذا الصمت من أجله، وفي النهاية كاد أن يسحقني.

قابلتُ ماريا تيرنر في أوائل أيلول، بعد أيام قليلة من عودتي وآيريس إلى نيويورك. كان من المريح أن أكون قادرًا على التحدث إلى شخص ما عن ساكس، لكن حتى معها كنت أتراجع قدرَ المستطاع. حتى أني لم أذكر رؤيته؛ فقط أنه اتصل وأننا تحدثنا عبر الهاتف لمدة ساعة. كانت رقصةً صغيرةً قاتمةً رقصتها مع ماريا في ذلك اليوم. اتهمتُها بالولاء المضلِّل، وبخيانة ساكس عبْرَ الوفاء بوعدها له، بينما كان هذا هو بالضبط ما كنت أفعله. سُمح لكلينا بالدخول إلى السِّر، لكنني كنت أعرف أكثر مما عَرَفَتْه، ولم أكن على وشك مشاركة التفاصيل معها. كان يكفيها أن تعرف أنني أعرف ما تعرفه. تحدثتْ عن طيب خاطر بعد ذلك، مدركةً كم كان من العبث أن تخدعني. هذا القدر صار معروفًا الآن، وانتهى بي المطاف إلى سماع المزيد عن علاقاتها مع ساكس أكثر مما أخبرني به ساكس بنفسه. من بين أشياءٍ أخرى، كان هذا هو اليوم الأولَ الذي رأيت فيه الصور التي التقطتها له؛ ما سُمِّيَ «خميسٌ مع بن» والأهم من ذلك، علمتُ- أيضًا- أن ماريا رأت ليليان شتيرن في بيركلي في العام الماضي بعد حوالي ستة أشهر من مغادرة ساكس. وفقًا لما أخبرتها به ليليان، عاد بن للزيارة مرتين. كان هذا مخالفًا لما قاله لي، لكن عندما أشرت لماريا إلى التناقض، هزّت كتفيها فقط. قالت: «ليليان ليست الشخص الوحيد الذي يكذب. أنت تعرف ذلك جيدًا مثلما أعرفه. بعد ما فعله هذان الشخصان ببعضهما البعض، كل الرهانات منتهية».

رددتُ عليها: أنا لا أقول إنَّ بن لا يستطيع الكذب. أنا فقط لا أفهم سبب قيامه بذلك.

- يبدو أنه وجّه تهديداتٍ معينة. ربما كان محرجًا أن يخبرك عنها.

- تهديدات؟!
- ليليان قالت إنه هدَّدها بخطف ابنتها.
- ولماذا بحق السماء يفعل ذلك؟
- على ما يبدو، لم تعجبْه الطريقة التي كانت تربّي بها ماريا، قال إن تأثيرها سيئٌ عليها، وأن الطفلة تستحق فرصةً للنمو في بيئة صحية. اتخذ أرضيةً أخلاقيةً عالية، ونتج عن ذلك مشهدٌ بغيض.
- هذا لا يبدو مثل سلوك بن.
- ربما لا، لكن ليليان كانت خائفة بما يكفي لفعل شيءٍ حيال ذلك. بعد زيارة بن الثانية، وضعت ماريا على متن طائرة وأرسلتها إلى منزل والدتها في الشرق. تعيش الفتاة هناك منذ ذلك الحين.
- ربما كان لليليان أسبابُها الخاصة للرغبة في التخلص منها.
- كل شيء ممكن. أنا فقط أخبرك بما قالت لي.
- ماذا عن المال الذي أعطاها إياه؟ هل أنفقته؟
- لا، على الأقل ليس على نفسها. أخبرتني أنها وضعته في صندوق ائتمان لماريا.
- أنا في حيرة عما إذا كان بن قد أخبرها في أي وقت من أين أتت النقود. أنا لست متأكدًا من هذه النقطة، وربما أحدثت فرقًا واضحًا.
- لست متأكدة. ولكن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو أن نسأل من أين حصل ديماجيو على المال في المقام الأول؟ لقد كان مبلغًا هائلًا من المال ليحمله أينما ذهب.
- اعتقدَ بن أنها أموالٌ مسروقة. على الأقل في البداية. ثم شكّ أنه ربما مُنِحَت إلى ديماجيو من قبَل منظمة سياسية. إن لم تكن أطفال الكوكب، فعندئذ أي شخص آخر؛ الإرهابيون، على سبيل المثال، أو منظمة التحرير الفلسطينية، أو الجيش الجمهوري الأيرلندي،

أي واحدة من عشرات المجموعات. لقد اعتقدَ أن ديماجيو ربما كان مرتبطًا بأشخاص مثل هؤلاء.

- ليليان لديها رأيها الخاص حول ما كان يفعله ديماجيو.

- أنا واثق من أنها كذلك.

- صحيح. حسنًا، إنه أمر مثير للاهتمام بمجرد أن تبدأ في التفكير في الأمر. من وجهة نظرها، كان ديماجيو عميلًا سريًّا للحكومة. وكالة المخابرات المركزية، أو مكتب التحقيقات الفيدرالي، أو إحدى تلك المجاميع التجسسية. تعتقد هي أن ذلك بدأ عندما كان جنديًّا في فيتنام. فقد سجلوه هناك ودفعوا ثمنَ شقِّ طريقه إلى الكلية والدراسات العليا؛ لمنحه المؤهلات الصحيحة.

- هل تقصدُ أنه كان مزروعًا؟ عميلًا مزدوجًا؟

- هذا ما تعتقده ليليان.

- يبدو الأمر بعيدَ الاحتمال بالنسبة لي.

- بالطبع هو كذلك. لكن هذا لا يعني أنه ليس صحيحًا.

- هل لديها دليل، أم إنه مجرد تخمينٍ جامح؟

- لا أعرف، لم أسألها. لم نتحدث عن ذلك كثيرًا في الواقع.

- لم لا تسألينها الآن؟

- لم نعد نتحدث مع بعضنا الآن.

- أوه؟

- لقد كانت زيارةً جافة، ولم أتواصل معها منذ العام الماضي.

- حصل بينكما خلاف؟

- نعم، شيءٌ من هذا القبيل.

- حول بن، على ما أظن. مازلتِ متعلقةً به، أليس كذلك؟ لا بد أنه كان من الصعب الاستماع إلى صديقتك وهي تخبركِ كيف وقع في حبها.

أدارت ماريا رأسها بعيدًا عني فجأة، فعرفتُ أنني على حق. لكنها كانت معتدةً بنفسها لدرجة أنها لم تعترف بأيِّ شيء، وبعد لحظة كانت قد استجمعت نفسها بما يكفي للنظر إلى الوراء في اتجاهي. وجّهتْ لي ابتسامة قاسية ساخرة. قالت: «أنت الرجل الوحيد الذي أحببته يا تشيكيتا. ولكنك بعد ذلك ذهبت وتزوجت بسواي، أليس كذلك؟ عندما ينكسر قلب الفتاة، عليها أن تتصرف».

تمكنتُ من إقناعها بإعطائي عنوانَ ورقم هاتف ليليان. كان كتابي الجديد سيصدر في تشرين الأول، وقد رتّبت لي ناشرتي أن أقدم قراءاتٍ في عددٍ من المدن في جميع أنحاء البلاد. كانت سان فرانسيسكو المحطةَ الأخيرة في الجولة، ولم يكن من المنطقي الذهاب إلى هناك دون محاولة مقابلة ليليان. لم يكن لدي أي فكرة عما إذا كانت تعرف مكان وجود ساكس أم لا (وحتى لو فعلت، لم يكن من المؤكد أنها ستخبرني)، لكنني اعتقدت أنه سيكون لدينا الكثير لنتحدَّث حوله على أي حال. لو لم يكن هناك شيء آخر، فقد أردتُ أن أضع عينيّ عليها بنفسي لأتمكن من تكوين رأيي الخاص حول من تكون. كل ما أعرفه عنها قد أتى من ساكس أو ماريا، وهي شخصيةٌ أهمّ بالنسبة لي من الركون إلى رأييهما. اتصلتُ بها بعد يوم من حصولي على رقمها من ماريا. لم تكن موجودة، لكنني تركت رسالة على جهازها، ولدهشتي البالغة، اتصلتْ بعد ظهر اليوم التالي. كانت محادثة قصيرة ولكنها ودية. قالت إنها تعرف من أنا. كان بن قد تحدثَ معها عني، حتى إنه أعطاها إحدى رواياتي، والتي اعترفت بأنها لم يكن لديها وقت لقراءتها. لم أجرؤ على طرح أي أسئلة عليها عبر الهاتف. كان كافيًا أن أكون قد اتصلت بها؛ ولذا طرقتُ الهدف

مباشرة، وسألتها عما إذا كانت مستعدة لرؤيتي عندما أزور منطقة الخليج في نهاية تشرين الأول. ترددتْ للحظة، لكن عندما أخبرتها كم كنت أعول عليها، استسلمت.

«اتصلْ بي بعد تسجيل الوصول إلى الفندق»، قالت، «وسنحتسي شرابًا معًا في مكان ما».

كان الأمر بهذه البساطة. كان صوتها مثيرًا للاهتمام، في رأيي، مبحوحًا وعميقًا إلى حدٍّ ما، وقد أحببته. لو أنها نجحت كممثلة، فهذا هو نوع الصوت الذي يتذكره الناس.

الوعد بهذا اللقاء دفعني لمواصلة العمل لمدة شهر ونصف. عندما ضرب الزلزال سان فرانسيسكو في أوائل تشرين الأول، كان أول ما فكرت به هو التساؤل عما إذا كانت رحلتي ستُلغى. أشعر بالخجل الآن من قساوة قلبي، لكنني حينها لم ألحظ ذلك؛ طرقٌ سريعةٌ منهارة، ومبانٍ محترقة، جثثٌ مسحوقة ومحطمة؛ هذه الكوارث لا تعني لي شيئًا إلا بقدر ما ستمنعني من التحدث إلى ليليان شتيرن. لحسن الحظ، المسرح الذي حجزت فيه للقراءة نجا دون ضرر، وانطلقت الرحلة كما هو مخططٌ لها. بعد تسجيل الوصول إلى الفندق، ذهبت مباشرة إلى غرفتي واتصلتُ بالمنزل في بيركلي. أجابت امرأة بصوت غير مألوف على الهاتف. عندما طلبتُ التحدث إلى ليليان شتيرن، أخبرتني أن ليليان قد ذهبت، وأنها غادرت إلى شيكاغو بعد ثلاثة أيام من الزلزال. متى ستعود؟ سألتُ. لم تكن المرأة تعرف. تقصدين القول إنَّ الزلزال أخافها بهذا القدر؟ سألتُ. أجابت المرأة: أوه، لا، كانت ليليان تخطط للمغادرة قبل حدوث ذلك. لقد عرضت إعلانًا لتأجير منزلها بالباطن في أوائل أيلول. وهل تركت عنوانًا لها؟ سألتُ. قالت المرأة إنها لم يكن لديها، وهي تدفع إيجارها مباشرة إلى المالك. حسنًا، قلتُ، باذلًا قصارى جهدي للتغلب على خيبة أملي، إذا سمعتِ عنها يومًا ما، فسأكون ممتنًا لو أبلغتني

بذلك. قبل إنهاء المكالمة أعطيتها رقمي في نيويورك. اتصلي على حسابي، كما أكّدتُّ، في أي وقت ليلًا أو نهارًا.

أدركتُ حينها كيف خدعتني ليليان برشاقة. كانت تعلم أنها سترحل قبل أن أصل إلى هناك، ما يعني أنه لم تكن لديها أي نية للإيفاء بموعدنا. شتمتُ نفسي على سذاجتي، على الوقت والأمنيات التي أهدرتها. فقط للتأكد، راجعت استعلامات شيكاغو، لكن لم يكن هناك اسم ليليان شتيرن. عندما اتصلت بماريا تيرنر في نيويورك وسألتُها عن عنوان والدة ليليان، أخبرتني أنها ابتعدت عن السيدة شتيرن لسنوات وليس لديها أي فكرة عن مكان إقامتها. غدا الخيط باردًا فجأة. صارت ليليان ضائعة بالنسبة لي الآن تمامًا مثلما هو ساكس، ولم أستطع حتى تخيُّل كيفية إطلاق البحث عنها. إذا كان هناك أي عزاء في اختفائها، فقد جاء من كلمة «شيكاغو». كان لا بد من وجود سبب لعدم رغبتها في التحدث معي، وقد صلَّيتُ أن يكون ذلك بسبب أنها تحاول حماية ساكس. إذا كان الأمر كذلك فربما كانا على علاقة أفضل مما كنت أعتقد. أو ربما تحسن الوضعُ بعد زيارته لولاية ڤيرمونت. ماذا لو ذهب إلى كاليفورنيا ودعاها لأن تهرب معه؟ أخبرني أنه احتفظ بشقة في شيكاغو، وأخبرتْ ليليان المستأجرةَ أنها ستنتقل إلى شيكاغو. هل كانت صدفة أم أن أحدهما أو كليهما يكذب؟ لم أستطع التخمين حتى، ولكن من أجل ساكس كنت آمل أن يكونا معًا الآن، ويعيشان بعض الوجود المجنون الخارج عن القانون أثناء تجواله في البلاد، وهو يخطط بشكل خفي لخطوته التالية. شبح الحرية وتابعته. لو لم يكن من فائدة؛ فلن يكون وحيدًا حينها، وفضّلتُ أن أتخيله معها على أن أتخيله بمفرده. فضّلتُ تخيُّل أيّ حياةٍ أخرى غير تلك التي وصفها لي. إذا كانت ليليان شجاعةً كما قال، فلربما كانت معه، ربما كانت جامحةً بما يكفي للقيام بذلك.

لم أعرف أي شيء بعد ذلك. مرت ثمانية أشهر، وعندما عدتُّ أنا وآيريس إلى ڤيرمونت في نهاية شهر حزيران، كنتُ قد تخليت تمامًا عن فكرة العثور عليه. من بين مئات الاحتمالات، كنت أتخيلُ أن النتيجة التي بدت منطقيةً للغاية هي أنه لن يظهر مرة أخرى أبدًا. لم يكن لدي أيُّ فكرة عن المدة التي ستستغرقها التفجيرات، ولم يكن لديَّ أدنى فكرة عن موعد النهاية. وحتى إنْ كانت هناك نهاية، بدَا من المشكوك فيه أنني سأعرف شيئًا عنها، ما يعني أن القصة ستستمرُّ وتطول، ويتغلغل سمُّ سرِّها بداخلي إلى الأبد. الصراع هو قبول ذلك، والتعايش مع قوى عدم اليقين بداخلي. لأنني كنت في حاجة ماسة للتوصل إلى نهاية، كان عليّ أن أفهم أنها قد لا تأتي أبدًا. يمكن للمرء حبسُ أنفاسه لفترة معينة، في نهاية المطاف، ثم، عاجلًا أو آجلًا، تأتي لحظةٌ يتعيّن عليه فيها بدْء التنفس مرَّة أخرى، حتى لو كان الهواء ملوثًا، حتى لو كان يعلم أنه سيقتله في النهاية.

قَبَضَ عليّ الخبرُ في التايمز دون حراسة. بحلول ذلك الوقت كنت قد اعتدت على جهلي لدرجة أنني لم أعُد أتوقع تغيُّر أي شيء. توفي شخص ما على ذاك الطريق في ويسكونسن، وعلى الرغم من أنني كنت أشك أنه قد يكون ساكس، إلا إنني لم أكن مستعدًّا لتصديق ذلك. استلزم الأمرُ وصول رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي لإقناعي، وحتى ذلك الحين تشبثت بشكوكي إلى آخر لحظة ممكنة.. عندما ذكروا رقمَ الهاتف الذي تم العثور عليه في جيب الرجل الميت. بعد ذلك، اشتعلتْ صورةٌ واحدةٌ في ذهني، وبَقِيَتْ معي منذ ذلك الحين: صديقي المسكين يتفتّتُ إلى أشلاء عندما انفجرت القنبلة، وجسدُ صديقي المسكين وهو يتناثر في الريح.

كان ذلك قبل شهرين. جلستُ وبدأت هذا الكتاب في صباح اليوم التالي، ومنذ ذلك الحين عملتُ في حالةٍ من الذعر المستمر للانتهاء منه قبل نفاد الوقت، دون أن أعرف ما إذا كنت سأتمكن من الوصول إلى النهاية.

تمامًا كما توقعت، أبقى رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي أنفسهم مشغولين في إثري. تحدثوا إلى والدتي في فلوريدا، وأختي في ولاية كونيكتيكت، وأصدقائي في نيويورك، وكان الناس يتصلون بي طوال الصيف لإبلاغي بهذه الزيارات، يخشون من أن أكون واقعًا في مشكلة ما. لستُ في مأزق بعد، لكنني أتوقع أن أكون في المستقبل القريب.

ما إن يكتشف أصدقائي وورثي وهاريس مقدارَ ما أخفيتُ عنهما، فلا شك سيكونان غاضبيْن. لا يوجد شيء يمكنني فعله حيالَ ذلك الآن. أُدرك أن هناك عقوبات لحجب المعلومات عن مكتب التحقيقات الفيدرالي، لكن في ظل هذه الظروف لا أرى كيف كان بمقدوري التصرف بشكل مختلف. كنتُ مدينًا لساكس أن أبقي فمي مغلقًا، وأنا مدينٌ له بكتابة هذا الكتاب. لقد كان شجاعًا بما يكفي ليأتمنني على قصته، ولا أعتقد أنه كان بإمكاني العيش مع نفسي لو خذلته. كتبتُ مسودة أولية قصيرة في الشهر الأول، متمسكًا فقط بأدنى الأساسيات. عندما كانت القضية لا تزال دون حلٍّ في تلك المرحلة، عُدتُ إلى البداية وبدأتُ في ملء الفراغات، وتوسيع كل فصل إلى أكثر من ضعف طوله الأصلي. كانت خطتي هي مراجعة المخطوطة عدةَ مرّات حسب الضرورة، لإضافة مادة جديدة مع كل مسودة متتالية، والاحتفاظ بها حتى شعرت أنه لم يتبق شيء لأقوله. من الناحية النظرية، كان من الممكن أن تستمر العملية لأشهر، ربما حتى لسنوات؛ ولكن فقط إذا كنت محظوظًا. كما تبيّن، الأسابيع الثمانية الماضية هي كل ما سأحصل عليه على الإطلاق. في ثلاثة أرباع الطريق إلى المسودة الثانية (في منتصف الفصل الرابع)، اضطررت إلى التوقف عن الكتابة. كان ذلك اليوم، ومازلتُ أحاول أن أفهم كيف حدثَ ذلك فجأة. انتهى الكتابُ الآن لأن القضية انتهت. إنْ وضعتُ هذه الصفحة الأخيرة فسأقوم فقط بتسجيل كيفية عثورهم على الإجابة، والإشارة إلى مفاجأة صغيرة أخيرة، والانعطافة النهائية التي تُنهي القصة. كان هاريس هو من كشفها. هو أكبر العميليْن،

الشخص الثرثار الذي سألني عن كتبي. وهذا ما حصل، ذهب أخيرًا إلى متجرٍ واشترى بعضها، تمامًا كما وعدَ أن يفعل عندما زارني مع شريكه في تموز. لا أعرف ما إذا كان يخطط لقراءتها أو أنه تصرّفَ ببساطةٍ استنادًا على حدس، لكن النسخ التي اشتراها اتضح أنها موقعة باسمي. لا بدَّ أنّه تذكر ما أبلغته به عن التوقيعات الغريبة التي ظهرت على كتبي؛ لذا اتصل هنا قبل حوالي عشرة أيام ليسألني عما إذا كنت قد زرتُ ذاك المتجر المحدد، الواقع في بلدة صغيرة خارجَ مدينة ألباني. قلت له لا، لم أفعل، ولم تطأ قدماي تلك المدينة، ثمَّ شكرني على مساعدتي وأنهى المكالمة. قلت الحقيقة فقط لأنني لم أجدْ هدفًا من الكذب. سؤاله لم يكن له علاقة بساكس، وإذا أراد البحثَ عن الشخص الذي قام بتزوير توقيعي، فما الضررُ المحتمل الذي قد ينجم عن ذلك؟ اعتقدتُ أنه كان يقدم لي معروفًا، لكن في الحقيقة كنت قد سلَّمْتُهُ للتَّو مفتاحَ القضية. أرسلَ الكتب إلى مختبر مكتب التحقيقات الفيدرالي في صباح اليوم التالي، وبعد بحث شاملٍ عن بصمات الأصابع، توصلوا إلى عددٍ من المجموعات النظيفة. واحدةٌ منها تخصُّ ساكس. لا بدَّ أن اسمَ بن كان معروفًا لهم بالفعل، وبما أن هاريس كان محنكًا فلن يُفوِّت الرابط. قادَ شيءٌ إلى آخر، وبحلول الوقت الذي ظهر فيه أمس، كان قد قام بالفعل بتركيب القطع معًا. كان ساكس هو الرجلَ الذي فجر نفسه في ويسكونسن. كان ساكس هو الرجل الذي قتل ريد ديماجيو. كان ساكس هو شبحَ الحرية.

وصلَ إلى هنا بمفرده، غير مصحوب بالصامت الكالح وورثي. آيريس والأطفال كانوا يسبحون في البركة، وكنتُ وحدي مرة أخرى، واقفًا أمام المنزل حين شاهدته وهو يخرج من سيارته. كان هاريس في حالةٍ معنويةٍ جيدة، وكان مرحًا أكثر من المرة السابقة، وقد استقبلني كما لو كنّا أصدقاء قدامى، وزملاء في السعي لحل ألغاز الحياة. قال إن لديه أخبارًا، ويعتقد أنها قد تهمُّني. لقد تعرفوا على الشخص الذي كان يوقع كتبي، واتضح أنه كان صديقًا لي. رجل اسمُه بنيامين ساكس. الآن، لماذا يريد صديق أن

يفعل شيئًا كهذا؟ حدقتُ في الأرض، وأنا أُغالبُ دموعي بينما كان هاريس ينتظر إجابة. «لأنه افتقدني»، قلتُ أخيرًا، «ذهب في رحلة طويلة ونسيَ شراء البطاقات البريدية. تلك هي طريقته في البقاء على اتصال».

«آه»، قال هاريس. «هو إذًا محبٌّ للمقالب. ربما يمكنك إخباري المزيد عنه».

- نعم، هناك الكثير الذي يمكنني إخبارك به. الآن وقد مات، لم يعُدِ الأمر مهمًّا، أليس كذلك؟

ثمَّ أشرت إلى الأستوديو، ودون أن أنبس بكلمة أخرى، قدتُّ هاريس عبر الفناء في شمس الظهيرة الحارة. صعدنا الدرجَ معًا، وما إن وصلنا إلى الداخل، سلمتُه صفحات هذا الكتاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عن الكاتب

بول أوستر هو صاحبُ روايات: (حماقات بروكلين، ليلة التنبؤ، كتاب الأوهام، تمبكتو، مستر فيرتيجو، لوياثان) الحاصلة على جائزة Prix Medicis Étranger (لعام 1993)، (موسيقى الصدفة) رشِّحت لجائزة/ PEN Faulkner (لعام 1991)، قصر القمر، في بلد الأشياء الأخيرة، والروايات الثلاث المعروفة باسم «ثلاثية نيويورك»: مدينة الزجاج، والأشباح، والغرفة الموصدة.

كما كتبَ سيرتين ذاتيَّتين (اختراع العزلة واليد إلى الفم)، ومجموعة من المقالات، ومجلدًا من القصائد، وحرر كتاب (اعتقدت أنَّ والدي كان إلهًا: وحكايات حقيقية أخرى) من مشروع NPR للقصة الوطنية.

حصلَ أوستر على جائزة أمير أستورياس للآداب لعام 2006، وضمَّ إلى الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب في عام 2006 . وقد حصل على الزمالات الأدبية من الوقف الوطني للفنون في كلٍّ مِن الشعر والنثر، وفي عام 1990 حصل على جائزة Morton Dauwen Zabel من الأكاديمية الأمريكية ومعهد الفنون والآداب. كتب سيناريوهات فيلم Smoke و Blue in the Face وLulu on the Bridge، الذي قام بإخراجه أيضًا. تُرجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة. يعيش في بروكلين، نيويورك.

بول أوستر

لوياثان

مكتبة
t.me/soramnqraa

"رواية أوستر الأسرع وصولاً والأكثر تشويقًا. إنه يقدم لنا أفضل ما لديه من سرد".

- مجلة نيويورك تايمز

"لاذع وجذاب... محرك أوستر السردي القوي يبقينا نقرأ ونندفع نحو خاتمة مثيرة للإعجاب".

- لوس أنجلوس تايمز

"روايات بول أوستر عبارة عن أعمال فنية مصممة بشكل جميل، وألغاز فكرية معنيّةٌ بفرضية أن الحياة لغز تحكمه الفوضى والمصادفة. وفي طباق مع رسالتها؛ تُقدّمُ بأكثر أنماط السرد الأدبي مرونة ورشاقة".

- نيويورك نيوزداي

"رواية مثيرة... تحتوي على مساحات متفرقة من النثر الرائع، ولكنها في الغالب، تتخلى عن ترف الأسلوب بشكل متعمد، فهي عبارة عن سلك فولاذ مقاوم للصدأ صُبّ من سردٍ صارخ".

- كتاب واشنطن بوست بوك وورلد

"خفة يد أوستر تضفي على عمله إحساسًا مخيفًا بالدهشة".

- سان فرانسيسكو كرونيكل